روح الثورات

و

الثورة الفرنسية

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

نقله إلى العربية

محمد عادل زعيتر

المحامي والاستاذ في معهد الحقوق في فلسطين

طبعة ثانية منقحة

سنة ١٩٣٤

عنيت بنشره

المطبعة العصرية

بالفجالة ، بمصر

روح الثورات
و
الثورة الفرنسية

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

نقله إلى العربية

محمد عادل زعيتر

المحامى والاستاذ فى معهد الحقوق فى فلسطين

طبعة ثانيـــة منقحة

سنة ١٩٣٤

عنيت بنشره

المطبعة العصرية

بالفجالة ، بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

أقول بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله :

إن علم الاجتماع من العلوم التى عنى العلماء فى الوقت الحاضر باستجلاء قواعدها ، ومن أكابر هؤلاء العلماء الدكتور غوستاف لوبون مؤلف « حضارة العرب »

الف هذا العلامة ، بعد سياحات كثيرة قام بها فى أقطار الأرض ، كتباً ذات قيمة فى مدنيات بعض الأمم ، ثم وضع ثلاثة كتب بسط فيها ما استنبطه فى تلك الأثناء من العبر وما ظهر له من سنن الاجتماع وهى : « سر تطور الأمم » و « روح الجماعات » و « الآراء والمعتقدات » ، ثم عرض ما جاء فى هذه الكتب من الآراء الكلية على مسائل أخرى فأخرج للناس « روح الاشتراكية » و « روح الثورات والثورة الفرنسية» وقد نقلت هذين المؤلفين الى العربية ، فقدمت طبع الثانى لصغر حجمه ، وسأطبع الأول بعده إن شاء الله تعالى [1] .

نقل المرحوم فتحى باشا زغلول كتاب «سر تطور الأمم » وكتاب « روح الجماعات » الى العربية . فأرجو أن أعرض عما قليل، على القراء ترجمة كتاب « الآراء والمعتقدات [2]» فيكون قد اجتمع عندهم كتب غوستاف لوبون الثلاثة الأساسية وكتابان من كتبه التحليلية.

ولا أرى أن أشير الى مافى مؤلفات الكاتب المشار اليه ، ولا سيما « روح الثورات والثورة الفرنسية » ، من الفوائد العلمية والحقائق التاريخية ، فالأمر أصبح مشهوراً لا يحتاج الى بيان . وإنما أنقل على سبيل الذكر العبارات الآتية :

قال إميل فاكه العضو فى المجمع العلمى الفرنسى ، وهو من أشهر كتاب فرنسة :

« قد أثرت أفكار غوستاف لوبون السياسية الصائبة فى نفسى تأثيراً جعلنى فى الوقت الحاضر أعتمد عليها ، فالفصل الذى بحث فيه عن أوهام رجال الثورة الفرنسية حسن من كل الوجوه ، وهذه الأوهام هى اعتقاد صلاح الانسان ، وأن من الممكن فصل الأمم

(١) قد طبع فى المطبعة العصرية بمصر

(٢) نقلت هذا الكتاب الى العربية ، وقد طبع فى المطبعة العصرية بمصر

عن ماضيها ، وتحويل المجتمع بوضع القوانين ، ولا يخفى ما أدت اليه هذه الأغلاط الكبيرة من النتائج .

« أشارك غوستاف لوبون فى ما ذكره عن علل نجاح نابليون بونابرت ، فالنصر وحده، وهو الذى دل على نابليون ، لم يجعله سنة ١٧٩٩ معبود فرنسة ، وإنما الذى سهل نجاحه هو نفور الناس من الظلم والاضطهاد والأزمة المالية والطمع فى الأملاك العامة

« أعجب بغوستاف لوبون كخصم للقدر التاريخى الذى شب على اعتقاده أبناء جيلى ، فهذا القدر من الأمور المختلة . »

وجاء فى مجلة العالمين :

« ان ما أتى به غوستاف لوبون من البحث الدقيق فى مؤلفاته فى الفلسفة وعلم الحياة والتاريخ مكنه من إيضاح بعض الأمور العظيمة التى ظلت غامضة حتى الآن . وقد استطاع أن يوضح قواعد الحركات الثورية فى كتاب مبتكر جديد بحث فيه عن روح الثورات والثورة الفرنسية .

« أوضح فى هذا الكتاب وجه الشبه بين السنن النفسية للحوادث الكبيرة التى حولت مصير الأمم كثورة الاصلاح الدينى والثورة الفرنسية كما أنه أوضح فيه شأن الشعوب الضعيف فى الحركات الثورية ومناقضة عزائم أعضاء المجالس وهم منفردون لعزائمهم وهم مجتمعون والتأثير الكبير للعاطفة والدين فى سير أبطال الثورة الفرنسية »

باريس فى ٦ يناير سنة ١٩٢٤

عادل زعيتر

مقدمة المؤلف فى الطبعة الخامسة عشرة

مختلف الآراء فى الثورة الفرنسية

لم أضع هذا الكتاب لأمدح الثورة الفرنسية أو لأذمها بل لأفسرها بما ذكرته من السنن النفسية فى كتاب « الآراء والمعتقدات »

ومع أن الغاية التى توخيتها تجعلنى لا أبالى بالآراء التى قيلت فى الماضى فاننى رأيت الاطلاع عليها مفيداً فخصصت فصلا لبيان ما أتى به المؤرخون من مختلف الأفكار فى الثورة الفرنسية .

لا تعبر الكتب إلا عن آراء أصبحت قديمة ، وهى وإن أمكن أن تهيء الأفكار المستقبلة قلما تعرب عن الأفكار الحاضرة ، والمجلات والجرائد وحدها هى التى تعبر عن الوقت الحاضر تعبيراً صادقاً ، ولهذا فان ما يجىء فيها من النقد مفيد جدًّا .

يمكن أن نستخرج من المقالات التى نشرت حول هذا الكتاب ثلاثة آراء دالة على ما يدور الآن حول الثورة الفرنسية من الأفكار :

فالرأى الأول يعد الثورة الفرنسية معتقداً يجب قبوله أو رفضه برمته ، والرأى الثانى يعتبرها سرًّا غامضاً ، والرأى الثالث يعدها حادثة لا يجوز الحكم فيها قبل نشر كثير من الوثائق الرسمية التى لم تطبع بعد ، ولا يخلو البحث بايجاز عن قيمة هذه الآراء الثلاثة من فائدة .

تعتبر الأكثرية فى فرنسة تلك الثورة من المعتقدات ، ولذلك تظهر لهذه الاكثرية حادثاً ميموناً قد أخرجها من طور الهمجية وحررها من ظلم الأشراف ، ولا يزال يعتقد كثير من رجال السياسة أنه لولا نشوب الثورة الفرنسية لكانوا الآن أجراء عند الأمراء الاقطاعيين .

وقد ظهرت هذه الحالة النفسية فى بحث مهم خصصه السياسى الشهير مسيو إميل

أوليفيه لمناهضة كتابى ، فبعد أن ذكر هـذا العضو الفاضل فى المجمع العلمى النظرية التى تعد الثورة الفرنسية حادثة غير نافعة قال :

« تناول غوستاف لوبون هذا الموضوع فجاء فى كتاب حديث بحث فيه عن روح الثورة الفرنسية وتجلت فيه قوة تأليفه وبيانه « أن الثمرة التى اقتطفت بعد القيام بكثير من أعمال التخريب لا بد من نيلها فى نهاية الأمر مع سير الحضارة بلا عناء »

لم يرض أوليفيه بهـذا الرأى ، فالثورة الفرنسـية عنده ضربة لازب ، وقد ختم كلامه بما يأتى :

« هل يأسف على وقوع الثورة الفرنسية من لا يريد أن يكون مسخراً لصيد الضفادع فى الغـدران كى لا تقلق الأمير الاقطاعي فى نومه ؟ وهل ينوح على حدوثها من لا يريد أن يرى كلاب شاب عات تخرب حقـله ؟ وهل يحزن على نشوبها من لا يريد أن يسجن فى البستيل لولوع رجل من بطانة الملك بزوجتـه أو لانتقاده أحد الوجوه ؟ وهل يأسى على اشتعالها من لا يريد أن يبغى عليه وزير أو موظف وأن يكون تحت رحمة أحد من الناس وأن يؤخذ منه أكثر مما يفرض عليه وأن يهينه ويشتمه من يدعى أنه فاتح ؟ — لذلك أشكر ، وأنا من الطبقـة الوسطى ، أولئك الذين أنقذونى بعد عناء شديد من هـذه القيود التى لولاهم لظلت تقيدنى ، وأهنئهم على رغم زلاتهم . »

فالمعتقد الذى تجلى فى مثل هـذه الـكلمات قد ساعد ، مع قصة نابليون ، على جعل الثورة مرضياً عنها فى فرنسة ، ومصدر هذا الوهم الشائع ، حتى بين كثير من أقطاب السياسة ، هو المبدأ القائل إن طرق الحياة عند الأمة تكون بحسب نظمها ، والواقع أن تلك الطرق تابعة للمبتكرات العلميـة والاقتصادية ، فتأثير القاطرة فى مساواة الناس غير تأثير المقصلة ، ولا ريب فى نيلنا منـذ زمن طويل ما بلغناه وبلغتـه أمم كثيرة من المساواة والحرية سواء علينا اشتعلت هذه الثورة أم لم تشتعل .

ويؤدى الرأى الثانى القائل إن الثورة الفرنسية سر غامض الى محافظة هذه الثورة على نفوذها أيضاً ، فاليك ماجاء فى مقالة خصصها مسيو دورمون مدير إحدى الجرائد الـكبيرة فى باريس للبحث فى كتابى :

« لم تزل الحوادث المدهشة التى زعزعت أركان العالم لغزاً من الألغاز ، ولم تكتشف مباحث علم النفس سر تلك الأزمة العجيبة التى ستبقى معدودة من حوادث التاريخ الخارقة. »

و ينشأ عن تلقى الثورة الفرنسية على هذا الوجه ظن الناس أنها سلسلة وقائع نشات عن عوامل خفية ، وتدل الكلمات التى أوردناها على درجة الشكوك والريب التى تزيد البحث فى الثورة المذكورة إبهاماً وتسوغ حكمة العلماء الذين يقتصرون على نشر الوثائق .

إذاً يرى المنصف ، الذى يود أن يكون ذا رأى صائب فى الثورة . نفسه الآن إما إزاء عقائد عمياء ، وإما إزاء مزاعم قائلة ان هذا الحادث العظيم يتعذر إيضاحه بالمعارف الحاضرة .

وقد لاح لى ، عندما شرعت فى درس الثورة الفرنسية مستعيناً بطريقتى فى علم النفس ، أن شكوك المؤرخين فى هذه الأزمة الكبيرة ناشىء عن شرحهم بالمعقول ماصدر عن روح التدين والعاطفة والجماعات من الحوادث .

وفى كل صفحة من صفحات تلك الثورة برهان على ذلك ، فمنطق الجماعات ، لا المنطق العقلى ، هو الذى يكشف لنا سبب استحسان المجالس الثورية التدابير المخالفة لرأى كل عضو من أعضائها ، ولا يوضح لنا العقل لماذا تنزل نواب الأشراف فى ليلة شهيرة عن امتيازات كانوا شديدى التمسك بها مع أنهم لوكانوا قد أقلعوا عنها فى وقت آخر لاجتنب نشوب الثورة الفرنسية على مايحتمل ، وكيف يمكننا أن ندرك علة كون الأذكياء المسالمين من أبناء الطبقة الوسطى ، الذين كانوا وهم فى بعض اللجان يضعون المقياس المترى و يأمرون بانشاء المدارس الكبيرة ، قد استصوبوا أفعالا وحشية كقتل لافوازيه والشاعر شينييه وهدم قبور سان دنى الفخمة إذا لم نطلع على تقلبات الذات باختلاف الأحوال ؟ ثم كيف يمكننا ادراك السبب فى انتشار الحركات الثورية إذا لم نكن عارفين سنن الاقناع الحقيقية التى تخالف ما تدل عليه الكتب من الطرق مخالفة تامة .

وقد تأصلت قواعد المنطق العقلى فى فرنسة تأصلا جعل الناس لا يتصورون معه إمكان وقوع حوادث التاريخ بعيدة من العقل مع أنه يجب علينا لتفهم ما يعجز المنطق العقلى عن إيضاحه من الحوادث أن نغير الطرق التى نوضح بها وقائع التاريخ .

أرى الأفكار التى بينتها فى هذا المؤلف ستشيع سريعاً ، وما نشر من المقالات الكثيرة يثبت لنا أنها أثرت فى كثير من العلماء المدققين . جاء فى جريدة التايمس التى هى أهم صحف انكلترة ما يأتى :

« يجب على رجال السياسة كلهم أن يطالعوا كتاب غوستاف لوبون الذى لم يبال فيه

بمـا قيل فى تفسير الثورة الفرنسية من النظريات المدرسية فأوضح ما للشعب من الشأن الضئيل فى الحركات الثورية وما فى عزائم أعضاء المجالس وهم مجتمعون من المناقضة المطلقة لعزائمهم وهم منفردون وما سير أبطال الثورة المذكورة من الروح الدينية وما للعقل من التأثير القليـل فيهم ، فلولا هذه الثورة لصعب إثبات أن العقـل لا يحول الرجال وأن المجتمعات لا تتجدد كما يريد المشترعون ذوو السلطان العظيم . »

حقاً إن تاريخ الثورة الفرنسية سلسلة من الحوادث التى وقعت فى الغالب مستقلة بعضها عن بعض كقصة النظام الملكى الذى نقض لعدم وجود من يدافع عنه و قصة المجالس الثورية وقصة الفتن الشعبية وزعمائها وقصة الجيوش وقصة النظم الجديدة وغير ذلك من القصص الدالة فى الغالب على قوى نفسية متصادمة يجب درسها حسب طرق علم النفس .

نعم قد يجادل فى قيمة ما أتينا به من الشروح ولكننى أعتقد أنه يصعب بعد الآن أن يكتب تاريخ الثورة الفرنسية من غير أن ينظر الى ذلك .

مقدمة المؤلف

إعادة النظـــر فى التاريخ

ليس الدور الحاضر دور اكتشاف فقط ، بل يبحث فيه ثانية عن مختلف المعارف ، فبعد أن قال العلم بعدم وجود حادث يسهل الاطلاع على علته الأولى أخذ يفحص قواعده حديثاً فبدت له مختلة ، وهو يشاهد الآن دخول مبادئه القديمة واحدة بعد الأخرى فى خبر كان ، فعلم الآلات يخسر قواعده ، وصار الناس يرون أن المادة ، التى كانت معدودة فى الماضى جوهر الكائنات الأزلى ، قوى فانية تكاثفت لأجل قصير .

ولم يشذ التاريخ عن ذلك على رغم مافيه من الحدس الذى ينقذه من النقد الشديد ، فلا يستطيع أحد أن يقول الآن إنه يعرف صفحة منه معرفة تامة ، وما كان يلوح أنه علم يقيناً من الوقائع أعيد البحث فيه مرة ثانية

والثورة الفرنسية من الوقائع التى كان يظهر أن درسها تم ، فهى بعد أن بحث فيها كثير من المؤلفين ، وعمَّ القول إنها أوضحت إيضاحاً كاملا ، وإنه لم يبق سوى تعديل بعض تفاصيلها ، أخذ يتردد أشد المدافعين عنها فى أحكامهم فيها ، وهكذا أصبح كثير من الحقائق القديمة موضعاً للاخذ والرد ، وصار الأيمان بعـــدد كبير من المذاهب المقدسة مزعزعاً ، وما كتب أخيراً عن الثورة الفرنسية قد كشف القناع عن تلك الشكوك والريب .

ولم يكتف العلماء بالمماراة فى قيمة أبطال تلك الفاجعة العظمى ، بل أخذوا يسألون هل كانت دعائم النظام الحديث ، الذى حل محل النظام القديم ، تتوطد من غير عنف بتأثير مبتكرات الحضارة بعد أن رأوا أن عواقب تلك الثورة لا تساوى أعباءها

هنالك أسباب كثيرة أوجبت إعادة النظر فى ذلك التاريخ المحزن ، منها أن الزمان سكن ثوران النفوس ، وأن كثيراً من الوثائق أخذ يخرج من الخزائن ، وأن الناس صاروا يعلمون كيف يشرحونها بحرية تامة .

ولعلَّ علم النفس الحديث هو الذى سيؤثر أكثر من كل شيء فى أفكارنا ، معيناً إيانا على العلم بروح الرجال وعوامل سيرهم ، ونخص بالذكر من اكتشافاته ، التى

يمكن أن يستعين بها التاريخ ، المؤثرات الارثيـة ، والسنن المسيرة للجماعات ، والعدوى النفسية ، وكيفية نشوء المعتقدات نشوءاً غير شعورى وتمييز أنواع المنطق المختلفة .

والحق إن هذه التطبيقات العلمية التى اتخذناها فى هذا المؤلف لم ينتفع بها حتى الآن . فلا يزال المؤرخون مكتفين بدرس الوثائق . على أن ما ذكرناه يكفى لالقاء ما أشرت اليه من الشكوك والشبهات فى نفوسهم .

* * *

قد يكون تفسير الحوادث العظيمة التى تحول مصير الأمم من الصعوبة بحيث يضطر الإنسان الى الاقتصار على ملاحظة هذه الحوادث .

وقد أثر فى نفسى منذ مباحثى التاريخية الأولى تعذر اكتناه بعض الحوادث الجوهرية ، ولا سيما نشوء المعتقدات ، فشعرت بأن أموراً أساسـيـة ضرورية لايضاحها تفوتنا وبأنه لا يجوز ان ننتظر شيئاً من العقـل الذى قال ما أمكنه ويتحتم علينا أن نبحث عن وسائل أخرى للوقوف على ما عجز العقل عن تفسيره .

بقى أمر هذه المسائل الكبيرة غامضاً فى نظرى وما أتيت به من السياحات للبحث عن أنقاض المدنيات المنقرضة لم يقلل من هذا الغموض شيئاً يذكر .

إلا أن كثرة التـأمل والتفكير ساقتنى الى الاقرار بأن هـذه المعضلة مركبة من معضلات أخرى يجب البحث عن كل واحدة منها على حدةٍ ، وهذا ما فعلته فى عشرين سنة فأوردت نتائج مباحثى فى سلسلة من المؤلفات .

بحثت فى أحد مؤلفـاتى الأولى عن سر تطور الأمم ، فبعد ان بينت فيـه أن الأمم التاريخية ، أى الأمم التى نشأت حسب مصـادفات التاريخ نالت فى آخر الأمر صفات نفسية ثابتة ثبات أوصافها التشريحية أوضحت الكيفية التى تحول بها هذه الأمم نظمها ولغاتهـا وفنونها ، ثم شرحت فيه لماذا يحتمل أن تنفك عرى النفس عند تبدل البيئة فجأة

ولـكن يوجد ، عدا هـذه المجتمعات البشرية المؤلفة من الأمم ، مجتمعـات بشرية متقلبة تسمى الجماعات ، ولهذه الجماعات التى تمت على يدها أكبر الفتن التاريخية صفات تختلف عن صفات الأفراد الذين تتألف منهم اختلافاً تاماً ، وقد بحثت عن هذه الصفات وعن كيفية نشوءها فى كتاب سميته « روح الجماعات »

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أبصرت بين عوامل التـاريخ المهمة عاملا قوياً أى المعتقدات ، وقد بحثت عن هذه المسئلة الصعبة فى كتابى الأخير الذى سميته « الآراء

والمعتقدات ، فبينت فيه كيف تنشأ المعتقدات وهل تكون عقلية إرادية ، كما عرفت ، أم تكون غير شعورية مستقلة عن كل عقل .

يبقى إيضاح المعتقدات أمراً متعذراً إن عدّت إرادية عقلية ، وقد تمكنت ، بعد أن أثبت أنها غير عقلية فى الغالب وغير إرادية على الدوام ، من حل المعضلة العظيمة الآتية وهى : كيف يستصوب أرباب العقول النيرة فى كل جيل معتقدات لا يسوغها العقل

سيظهر حل المعضلات التاريخية التى بحثت فيها منذ سنوات كثيرة ظهوراً واضحاً بعد الآن ، فقد توصلت الى نتيجة دالة على أنه يوجد بجانب المنطق العقلى الذى يربط الأفكار بعضها ببعض منطق الجماعات والمنطق الدينى اللذان يستحوذان فى الغالب على عقولنا ويسيراننا .

وبعد أن حققت ذلك علمت أن إدراك كثير من الحوادث التاريخية يظل ممتنعاً عند إيضاح هذه الحوادث بنور المنطق العقلى القليل التأثير فى تكوينها .

وقد اقتضى الوصول الى القواعد التى لخصناها هنا فى بضع صفحات سعى سنين كثيرة ، وذلك بعد ان يئست من إتمامها ورجعت غير مرة الى الجد فى المختبرات التى يثق الانسان بأنه يقرب فيها من الحقيقة وينال شيئاً من العلم اليقين .

إن سبر غور الرجال مفيد كالتنقيب فى الحوادث المادية ، وهذا ما يجعلنى أرجع إلى علم النفس على الدوام .

ولما ظهر لى ان بعض النتائج التى استنبطتها من مباحثى واسعة المدى نويت أن أعرضها على بعض الحوادث ، وهكذا تناولت درس روح الثورات ، ولا سيما الثورة الفرنسية .

وكلما كنت أتوغل فى تحليل هذه الثورة الكبرى كانت أكثر الآراء التى اقتبستها من الكتب وكنت أظنها متينة تنهار انهياراً متتابعاً .

يجب لايضاح هذا الدور أن لا يعد حادثاً واحداً كما فعل كثير من المؤرخين ، فهو مؤلف من حوادث مستقلة وقعت فى آن واحد ، وقد نشأ عن كل واحدة منها أمور وقعت حسبما تقتضيه سنن النفس ، ويظهر أن ممثلى تلك الفاجعة الكبرى ساروا كممثلى الروايات التى وضعت سابقا فقال كل واحد منهم ما يجب أن يقوله وعمل ما يجب أن يعمله .

لا شك فى اختلاف أولئك الممثلين الثوريين عن ممثلى الرواية المكتوبة لكونهم لم

يدرسوا أدوارهم ، ولكن قوى خفية كانت تمليها عليهم فكانوا يقومون بها كأنهم من الحافظين لها ، وقد أوجب اتباعهم منطقاً لم يدركوا من أمره شيئاً اتباعاً مقدراً تعجبهم مثلنا من الحوادث التى كانوا أبطالها ، فالقوى الخفية التى كانت تسيرهم لم تخطر ببالهم قط ، ولم يكن أمر شدتهم وضعفهم فى يدهم ، فهم وان كانوا يتكلمون باسم العقل ويدعون أنهم مسيرون به لم يكن العقل رائدهم بالحقيقة ، قال بيوفارين :

« كنا لا نريد أن نأتى ما نلام عليه من الأفعال ، ولكن الأزمة كانت تدفعنا اليه »

ولا يستدلنّ القارىء بهذا الكلام على أن الحوادث الثورية خاضعة لمقادير مهيمنة مطلقة . فالمطلع على ما وضعناه من الكتب يعلم أننا نعترف بما لأرباب التأثير والنفوذ من القدرة على إبطال عمل المقادير ، غير أنهم لا يقدرون إلا على ابطال شىء قليل منها ، وكثيراً مايعجزون عن وقف الحوادث التى لم يتسلطوا على سيرها منذ البداءة ، فالعالم الذى يقدر على استئصال المكروبات قبل فعلها يعترف بعجزه عن ذلك عنداستفحال المرض .

* * *

افترق المعتقدون الذين أتوا أحكاماً فى الثورة الفرنسية التى هى من عمل المعتقدين أيضاً ، الى فرقتين : إحداها تلعن الثورة المذكورة والأخرى تعجب بها ، ولذلك ظلت الثورة المذكورة من جنس المعتقدات التى تقبل أو ترفض جملة من غير أن يتدخل منطق عقلى فى هذا الاختيار ، فالثورة الدينية أو السياسية وإن جاز أن تستند إلى العقل فى بداءتها لا تنتشر إلا معتمدة على عوامل الدين والعاطفة التى لا صلة بينها وبين العقل مطلقاً .

لم يستطع المؤرخون الذين بحثوا فى حوادث الثورة الفرنسية على نور المنطق العقلى أن يدركوا سرها . فبما أن هذا المنطق لم يكن محدثاً لها وبما أن القائمين بها أنفسهم كانوا غير مطلعين على كنهها لا نخطىء إذا قلنا ان تلك الثورة أمر لم يفقهه من أتاه ومن قصه ، ولم يكن فى أدوار التاريخ دور أدرك فيه الحال إدراكا قليلا وجهل فيه الماضى جهلا تاماً وكشف فيه المستقبل كشفاً ناقصاً نظير ذلك الدور .

لم يقم سلطان الثورة الفرنسية على ما كانت تنشره من المبادىء ولا على ما كانت تضعه من الأنظمة ، إذ الأمم لا تبالى بالمبادىء والأنظمة إلا قليلا ، وانما السبب فى قوة هذه الثورة وفى رضى فرنسة بما أتته من المذابح والهدم والهول وسائر المظالم وفى مدافعتها ظافرة إزاء اوربة المدججة بالسلاح هو إقامتها ديانة جديدة لا نظاماً جديداً ،

ولقد أثبت التاريخ ما للمعتقد القوى من القوة التى لا تقاوم ، فقد خضعت دولة الرومان المنيعة الجانب لجيوش من رعاة البدو الذين أضاء قلوبهم ما جاء به محمد (صلعم) من الايمان ، ولمثل هذه العلة لم تقدر ملوك اوربة على مقاومة جنود العهـــد الرثة الثياب ، فكان هؤلاء الجنود مستعدين ، كجميع الدعاة ، للتضحية بأنفسهم فى سبيل نشر عقائدهم التى كانوا يظنون أنها ستجدد العالم .

* * *

لا تعد الثورة الفرنسية .كما ظن دعاتها ، قد قطعت كل علاقة بالتاريخ ، وإن أحدث هؤلاء لاظهار مقصدهم تقويماً جديداً وزعموا أنهم قضوا على الروابط التى تربطهم بالماضى الذى لن يموت والذى هو متأصل فى النفوس اكثر من كل شىء ، فقد كان المصلحون أيام الثورة الفرنسية مشبعين بالماضى من غير أن يشعروا وهم لم يفعلوا سوى مواصلة التقاليد الملكية مسماة بأسماء أخرى والسير على نحو مركزية العهد السابق مع الافراط فى الاستبداد .

والثورة الفرنسية وإن لم تنقض بالحقيقة سوى شىء يسير من مقومات الماضى أعانت على انكشاف بعض المبادىء التى استمرت على النمو ، ومن هذه المبادىء مبدأ المساواة الذى أصبح انجيـل الأمم أى صار قطب الاشتراكية والديموقراطية فى الوقت الحاضر ، وبهذا نقصد أن نقول إن تلك الثورة التى لم تنته بظهور الامبراطورية ولا بالأنظمة التى ظهرت بعد الامبراطورية انتشرت بالتدريج مع الزمن ولا تزال ذات سلطان على النفوس .

* * *

ربما ينزع بحثنا فى الثورة الفرنسـية كثيراً من أوهام القـارىء ، فسيرى القارىء أن الكتب التى بحثت فيها تحتوى كثيراً من الأقاصيص البعيـدة من الحقيقـة . وستبقى هذه الأقاصيص مسطورة فى كتب التاريخ من غير أن نأسف على ذلك ، فمع أن الاطلاع على الحقيقة يفيد بعض الفلاسفة نرى أن تغلب الأوهام على الشعوب أنفع ، فمن مجموع تلك الأوهام تنشأ مُثل الشعوب العليا المسيرة لها . قال فونتنيل : « لولا الأفكار الباطلة لضاعت الشجاعة »

حقاً إن قصص جان دارك وغيلان العهد والامبراطورية تورث النفوس آمالا بعد الهزيمة ، وإن لهذا التراث الوهمى الذى ورثناه من الآباء سلطاناً أشد من سلطان الحقائق فى بعض الأحيان ، فالأوهام والخيالات والأساطير هى التى تقود التاريخ

الجزء الأول
روح الثورات

الباب الأول
صفات الثـــورات

الفصل الأول
الثورات العلمية والثورات السياسية

١ — تقسيم الثورات

يعبرون عادةً عن الانقلابات السياسية بالثورة ، مع أنه يقتضى أن تعرب هذه الكلمة عن جميع التحولات الفجائية للمعتقدات والأفكار والمذاهب .

وقد بحثنا فى كتاب آخر عما لعناصر العقل والمشاعر والتدين من الشأن فى تكوين الأفكار والمعتقدات التى يتوقف عليها سير الانسان ، ولا فائدة من الرجوع اليها مرة أخرى .

قد ينتج عن الثورة فى نهاية الأمر معتقد ، ولكنها تنشأ فى الغالب عن عوامل عقلية كالقضاء على ظلم فادح أو استبداد ممقوت أو ملك يبغضه الشعب ، ومع أن العقل هو

أصل الثورة فان الأسباب التى تهيئها لا تؤثر فى الجماعات إلا بعد أن تتحول الى عواطف، فاذا أمكن بالعقل إظهار ما يجب هدمه من المظالم وجب لتحريك الجماعات إفعام قلوبها بالآمال، وهذا أمر لا ينال إلا إذا استعين بعناصر العاطفة والتدين التى تجعل الانسان قادراً على السير، خذ الثورة الفرنسية مثلا تر أن المنطق العقلى الذى تذرع به فلاسفة ذلك العصر أظهر للملأ مساوىء النظام القديم وجعل فى القلوب ميلا الى تبديله وأن المنطق الدينى ألقى فى النفوس إيماناً بفضائل مجتمع قائم على بعض المبادىء وأن المنطق العاطفى أطلق النفوس من عقالها القديم وشدّ قواها وأن منطق الجماعات استحوذ على الأندية والمجالس ودفع أعضاءها الى اقتراف أعمال لم يدفعهم المنطق العقلى والمنطق العاطفى والمنطق الدينى الى اقتراف مثلها.

والثورة مهما يكن مصدرها لا تصبح ذات نتائج إلا بعد هبوطها الى روح الجماعة، فالجماعة تتم الثورة ولا تكون مصدرها، وهى لا تقدر على شىء ولا تريد شيئاً إن لم يكن عليها رئيس يقودها، ولا تلبث الجماعة أن تجاوز الحد الذى حرضت عليه وإن كان التحريض لا ينشأ عنها أبداً.

وإن الثورات السياسية الفجائية التى تعجب المؤرخين هى أقل أهمية من غيرها فى بعض الأحيان، فالثورات الكبيرة هى ثورات الطبائع والأفكار.

وفى الغالب تتم الثورات الحقيقية التى يتوقف عليها مصير الأمم بالتدريج، وهذا ما يجعل المؤرخين يلقون مصاعب فى تعيين بدائتها، ولذلك نرى كلمة التطور أصح فى التعبير عن المقصود من كلمة الثورة.

لا تصح العناصر المختلفة التى ذكرنا عملها فى تكوين اكثر الثورات أن تكون أصلا لتقسيمها، ولكننا إذا نظرنا الى الثورة من حيث غايتها فقط أمكننا تقسيمها الى ثورات علمية وثورات سياسية وثورات دينية.

٢ — الثورات العلمية

الثورات العلمية من اكبر الثورات أهمية ومع أنها لا تستوقف النظر كثيراً هى فى الغالب ذات نتائج بعيدة لا تأتى بمثلها الثورات السياسية.

فسر تحوّل الصورة التى ننظر بها الى الكون منذ عصر النهضة هو أن الاكتشافات

الفلكية والطرق القائمة على التجربة والاختبار أورثت نفوسنا ثورة باثباتها أن الحوادث تصدر عن سنن ثابتة لا تتبدل لا عن أهواء الآلهة .

والأجدر أن تدعى هذه الثورات بالتطورات لبطء وقوعها ، بيد أنه يوجد من نوعها ثورات أخرى تقع بسرعة وتستحق أن تدعى بالثورات ، مثال ذلك آراء داروين التى قلبت علم الحياة فى بضع سنين رأساً على عقب واكتشافات باستور التى حولت علم الطب فى أيام صاحبها ، والرأى فى انحلال المادة الذى اثبت أن الذرة لا تشذعن السنن القاضية على جميع عناصر الكون بالزوال والفناء خلافاً لما كان يظن .

وبما أن مجال هذه الثورات هو عالم الأفكار ليس للمشاعر والمعتقدات سلطان عليها ، وعلى المرء أن يعانيها من غير أن يجادل فيها .

٣ — الثورات السياسية

نذكر بعد الثورات العلمية التى هى سر تقدم الحضارة ، الثورات الدينية والثورات السياسية وإن كانت بعيدة منها ولا تربطها بها رابطة ، فالثورة العلمية لا تشتق الا من العقل مع أن المشاعر والعواطف هى دعائم المعتقدات السياسية والدينية ولا يكون للعقل سوى شأن ضئيل فى تكوينها .

لقد أثبت فى كتاب « الآراء والمعتقدات » أن المعتقد السياسى والدينى هو ايمان أينع فى عالم اللاشعور من غير أن يكون للعقل سلطان عليه وبينت فيه أن المعتقد قد يكون أحياناً من القوة بحيث لا يقوم فى وجهه شىء وأن المرء الذى استحوذ عليه إيمانه يصبح رسولا مستعداً للتضحية بمنافعه وسعادته وحياته فى سبيل نصره ،وأنه لا أهمية لمخالفة هذا الايمان للعقل والصواب بعد أن يكون حقيقة فى نظر صاحبه، وحقاً ان للعقائد الدينية ، قوة عجيبة فى تغلبها على الأفكار وفى أنها لا تتبدل الا بتبدل الأزمان

واعتبار المؤمنين المعتقد حقيقة مطلقة يجعلهم غير متسامحين بحكم الضرورة ، وهذا يوضح لنا سر قسوتهم وأحقادهم ومظالمهم أيام الثورات السياسية والدينية الكبيرة ولا سيما أيام ثورة الاصلاح الدينى والثورة الفرنسية .

وتظل بعض أدوارنا التاريخية سراً إن جهلنا منشأ المعتقدات العاطفى والدينى وعدم تسامحها الضرورى واستحالة التوفيق بينها ثم ما تنعم به المعتقدات الدينية على المشاعر المسخرة لخدمتها من القوة .

والمبادىء المذكورة حديثة العهد بعيدة من تغيير عقلية المؤرخين الذين سوف يستمرون على اعتبار كثير من الحوادث صادراً عن المنطق العقلى ، فمع أن الاصلاح الدينى الذى قلب فرنسة مدة خمسين سنة وما ماثله من الحوادث لم ينشأ عن عوامل عقلية لا يزال أكثر المتأخرين من العلماء يعزون هذه الوقائع الى العقل ، مثال ذلك الايضاح الذى أوضح به مسيو لافيس ومسيو رامبو ثورة الاصلاح الدينى فى كتابهما « التاريخ العام » . إذ قالا :

« ان ثورة الاصلاح الدينى حركة غريزية تولدت فى نفوس القوم من مطالعة الانجيل ومن تأملات فردية أورثها قلوب البسطاء عقل مقدام »

فالحقيقة هى غير ما زعم هذان المؤرخان ، فهذه الثورة لم تنشأ عن الغريزة ولم يكن للعقل تأثير فى نضجها ، وانما خرجت كغيرها من المعتقدات السياسية والدينية التى قلبت العالم من المشاعر وخلق التدين .

حقاً إن مصدر المعتقدات،سياسية كانت أم دينية ، لمشترك وهى خاضعة لسنن واحدة . أى انها لا تتكون بالعقل وكثيراً ما تتكون خلافاً لما يقتضيه العقل . فالبوذية والاسلام والاصلاح الدينى واليعقوبية والاشتراكية وإن لاحت على شكل فكرى ظاهر هى بالحقيقة قائمة على عواطف وتدينات متماثلة وتخضع لمنطق لاعلاقة بينه وبين المنطق العقلى أبداً .

تنشأ الثورات السياسية عن معتقدات تأصلت فى النفوس ، ولكنها قد تنشأ عن أسباب أخرى تجمعها كلمة الأستياء ، فمتى يعم هذا الأستياء يتألف حزب قادر على مكافحة الحكومة .

ويقتضى أن يتراكم الاستياء ليكون ذا نتائج ، ولهذا لا تكون الثورة فى الغالب حادثة لم تلبث أن تنتهى حتى تعقبها ثورة أخرى ، بل هى حادثة مستمرة أسرعت فى نشوءها قليلا .

وعندنا أن الأمم الكثيرة المحافظة هى التى تأتى أشد الثورات خلافاً لما يظن البعض، لأنها لما كانت محافظة غير متحولة ببطوء لتلائم تقلب البيئات تكره على ملاءمتها بغتة بالثورة حينما تصبح الشقة بين الطرفين عظيمة جداً .

ولا مفرّ للأمم التى تلائم تقلب البيئـة بالتدريج من الوقوع فى الثورات ، فلم ينجح الانكليز سنة ١٦٨٨ فى ختم النزاع الذى استمر قرناً بين العرش الذى كان يرغب أن يكون مطلقاً وبين الشعب الذى كان يسعى أن يكون محكوماً من نوابه إلا بالثورة، وخاصـة الأمة ، لا عامتها ، هم الذين يبدأون بالثورات فى الغالب ، ولكن الثورات تستمد قوتها من الشعب عندما يهيج ، وقد لا تتم الثورات إلا إذا دعمها فريق كبير من الجيش ، فلم تأفل الملكية فى فرنسـة يوم قطع رأس لويس السادس عشر بل يوم امتنع جنده عن الدفاع عنه .

وقد تزول المحبة بالعدوى النفسية من الجيوش التى لا تكترث لسَير الأمور إلا قليلا فعندما استطاع بضعة ضباط أن يقلبوا الحكومة التركية فكر ضباط اليونان فى تقليدهم بتغيير الحكومة مع أنه لم يكن شبه بين النظامين .

وقد يمكن تغيير الحكومة بحركة عسكرية ، وذلك كما يقع فى الجمهوريات الاسبانية ، ولكن مثل هذه الثورات لا تكون ذات نتائج مهمة إلا إذا صـدرت عن استياء عام وآمال كبيرة ، والاستياء إذا لم يكن عاماً شديداً لم يكف لاحداث الثورات المجدية ، فمن الأمور السهلة أن تحرّض شرذمة من الناس على النهب والهدم والقتل ، ولكنه يجب لتحريك الأمة كلها أو معظمها أن يبالغ الزعماء فى تجسيم الأستياء وأن يحملوا الساخطين على اتهام الحكومة بأنها سبب الحوادث السيئة ، ولا سيما الفاقة والغلاء ، وأن يجعلوا الجمهور يعتقد أن عصر السعادة سينبثق على الناس من النظام الجـديد الذى يقترحونه ، فمتى تتأصل هذه الأمور فى النفوس وتنتشر بالتلقين والعدوى يقرب الوقت الذى تنضج فيه الثورة .

على هذا الوجه نشأت الثورة المسيحية والثورة الفرنسيـة ، واذا كانت الأخيرة قد وقعت فى سنوات قليلة وتطلب وقوع الأولى كثيراً من السنين . فلأن الثورة الفرنسيـة لم تلبث أن دعمها الجيش مع أن الثورة المسيحية لم تنل قوة مادية إلا بعد انقضاء زمن طويل ، فالأصاغر والسفلة والعبدان هم الذين كانوا أنصار المسيحية فى البـداءة ، ومنهم سرت عدواها الى الخاصة ، ولما كمل انتشارها بين هؤلاء أيضاً رأى أحد الامبراطرة اتخاذها ديناً رسمياً للدولة ، وهذا كله لم يتم إلا فى وقت طويل .

٤ — نتائج الثورات السياسية

بعدما يتم النصر لحزب ينظم هذا الحزب المجتمع كما تقتضيه مصالحه ، فيسن القوانين ويضع الأنظمـــة حسب منافعه ومنافع الطبقات التي ساعدته على الغلبة ، كطبقة الاكليروس مثلا ، واذا تم النصر للغالبين بعد مصارعات عنيفـــة ، كما وقع أيام الثورة الفرنسية ،فانهم يقوّضون دعائم الحقوق القديمـــة مع اضطهادهم لأنصار النظام الساقط وإخراجهم من ديارهم وإبادتهم .

ويبلغ التعذيب غايته حينما يدافع الحزب الغالب عن معتقد ، عدا دفاعه عن منافعـه المادية ، فلا يعامل الحزب المغلوب بالرحمـــة ، بل يطرده من البلاد كما طرد العرب من الأندلس ويقضى عليه كما قضت محكمة التفتيش على الخوارج بالحرق ويمعن فى قتله كما حدث فى دور العهد ويسن القوانين ضده كالقوانين الحديثة التى وضعت ضد اليسوعيين.

وقد يتمادى الغالب فى الظلم فيأمر أن يقوم الورق مقام الذهب وأن تباع السلع بأثمان يعينهـا كما يهوى ، الا أنه لا يلبث أن تصدمه الضرورات التى تحول الرأى العـام ضد استبداده ، وذلك كما حدث فى أواخر الثورة الفرنسية وكما وقع لوزارة اشتراكية أسترالية مؤلفة من العمال ، فقد وضعت هذه الوزارة قوانين عقيمة ومنحت المنتسبين الى النقابات امتيازات كثيرة فسخط الرأى العام عليها فسقطت فى ثلاثة أشهر .

والأحوال المذكورة استثنائية ، فأكثر الثورات قـد وقعت ليجلس على العرش ملك جديد ، فليعلم هذا الملك أن استمرار حكمه لا يكون بتفضيله طبقـة على أخرى بل باستمالته الطبقات كلها اليه ، وهو لا ينال ذلك إلا إذا وازنها موازنة مانعة من تغلب إحداها عليـه ، فاذا ساعد على تفوق طبقة دون أخرى لم تلبث هـذه الطبقة أن تصبح سيدته ، وهذه سنة من أصح سنن السياسة ، وقد علمها ملوك فرنسة عندما كانوا يكالحون تطاول الأشراف فى البداءة ثم الاكليروس من بعـدهم ، ولولا ذلك لكان نصيبهم مثل نصيب امبراطرة الألمان فى القرون الوسطى حين كانوا يضطرون ، كما فعل الامبراطور هنرى الرابع ، الى زيارة البابوات ليطلبوا العفو عنهم بتذلل .

وقد ثبتت صحة هذه السنة فى جميع أدوار التاريخ ، فلما تفوقت طبقة الجند فى أواخر

الدولة الرومانية أصبح الامبراطرة تحت إمرة جنودهم فصار هؤلاء يرفعونهم على العرش أو يخلعونهم كما يشتهون

إذاً من حسن حظ فرنسة أن ظلّ على رأسها زمناً طويلا ملوك مطلقون مدعون أن سلطانهم مستمد من الله ، فلولا ذلك ما استطاعوا أن يقبضوا على زمام الأشراف والأكليروس والبرلمان معاً ، ولو كان على رأس بولونية فى أواخر القرن السادس عشر ملوك مطلقون محترمون مثل ملوك فرنسة ما هبطت الى منحدر الانقراض الذى أوجب محوها من خارطة أوربة .

بينا فى هذا الفصل أنه يمكن أن ينشأ عن الثورات السياسية انقلابات اجتماعية عظيمة الشأن ، وسنرى أن هذه الانقلابات تظهر ضعيفة عندما تقاس بالانقلابات التى تنشأ عن الثورة الدينية .

الفصل الثانى
الثورات الدينية

١ — البحث فى الثورات الدينية ينفع للوقوف على الثورات السياسية الكبرى .
٢ — أنصار الاصلاح الدينى الأولون
٣ — قيمة ثورة الاصلاح الدينى العقلية .
٤ — انتشار الاصلاح الدينى
٥ — تصادم المعتقدات الدينية واستحالة التسامح .
٦ — نتائج الثورات الدينية .

١ — البحث فى الثورات الدينية ينفع للوقوف على الثورات السياسية الكبرى .

سنخصص جزءاً من هذا الكتاب للبحث فى الثورة الفرنسية الحافلة بالمظالم الناشئة عن عوامل نفسية .

هذه الثورة الشاذة تفعم القلوب حيرة ، و يلوح للناظر غموض أمرها ، مع أن سرها ينجلى عند اعتبارها ديناً جديداً تابعاً لنواميس انتشار المعتقدات .

فسوف نرى عندما نبحث فى ثورة الاصلاح الدينى الكبرى ان ما شوهد فى أيامها من الأحوال النفسية شوهد مثله ايام الثورة الفرنسية ، فقد رؤى فى هاتين الثورتين أن شأن العقل ضئيل فى انتشار المعتقد وان الاضطهادات فاقدة التأثير وأن تسامح المعتقدات المتباينة مستحيل وان أشد المظالم والملاحم تصدر عن تصادم العقائد المختلفة وأنه يستحيل تبديل عقيدة الناس قبل تبديل كيانهم .

فبعد أن يثبت عندنا ذلك كله ندرك السبب فى انتشار انجيل الثورة الفرنسية حسب الطرق التى انتشرت بها الأناجيل الدينية الأخرى . ولا سيما انجيل كالفن .

وإذا وجد شبه شديد بين تكوين الثورات الدينية ، كثورة الاصلاح الدينى ، وتكوين

الثورات السياسية ، كالثورة الفرنسية ، فان هنالك فرقا ظاهراً بين نتائجهما ، وهذا الفرق يوضح لنا السر فى تفاوت دوامهما ، وبيان ذلك أنه ليس فى الثورات الدينية تجربة تثبت للمؤمنين ضلالهم . لأن ذلك يستدعى اطلاعهم على ما فى اللوح المحفوظ ، وأما الثورات السياسية فان تجربتها لم تلبث أن تثبت ما فى المذاهب السياسية من الخطأ والضلال فيضطر الناس إذ ذاك الى تركها ، على هـذه الصورة اضطر أشد اليعاقبة تعصباً الى العدول عن طريقتهم عندما رأوا فى أواخر عهد الديركتوار أن تطبيق المعتقدات اليعقوبية أوجب إشراف فرنسة على الخراب والشقاء ، ولم يدم من نظرياتهم سوى بضعة مبادىء يصعب تحقيق أمرها ، كمبدأ السعادة القائل إن المساواة أساس سعادة الناس .

٢ — أنصار الاصلاح الديني الأولون

انتهت ثورة الاصلاح الدينى بعد ما اشتد تأثيرها فى عواطف الناس ومبادئهم الأدبية ، وهذه الثورة الصغيرة الشأن فى بداءتها كانت تتجلى فى انتقاد تصرف الاكليروس الممقوت وفى دعوة الناس الى العمل بنصوص الانجيل ، لا فى دعوتهم الى حرية الفكر ، فقد كان كالفن غير متسامح كروبسبير وكان رجال النظر يقولون إنه يجب على الرعية أن تكون على دين ملوكها ، وهـذا ما وقع فعلا ، ففى البلاد التى عمها الاصلاح الدينى حل الملوك محل البابا حقوقاً وسلطاناً .

وقد انتشر الايمان الجديد ببطوء فى فرنسة فى بدء الأمر لعدم علانيته وفقدان وسائل إذاعته . فلم ينضم الى لوثر سنة ١٥٢٠ سوى بضعة أشخاص ، ولكن لما كثر أنصاره سنة ١٥٣٥ رؤى أن إحراقهم أمر ضرورى .

وسهل الاضطهاد انتشار الاصلاح الدينى تبعاً للسنة النفسية المعروفة ، وكان اول المؤمنين به القساوسة والقضاة وأهل الحرف ، وقد تم اقبالهم عليه بالعدوى النفسية والتلقين .

ومن المشهود أنه عندما يشيع معتقد جديد بين الناس يلتف حوله رجال لا يهمهم من أمره سوى أنهم يرون فيه وسيلة لارواء شهواتهم وأطماعهم ، وقد وقع ذلك أيام الاصلاح الدينى فى بلدان كثيرة ، ولا سيا فى المانية وانكلترة ، فلما قال لوثر إنه لا حاجة للاكليروس بالمال وجد أمراء المانية الدين الذى يعدهم بالاستيلاء على أموال الكنيسة ديناً طيباً نافعاً .

٣ — قيمة ثورة الاصلاح الديني العقلية .

قلبت ثورة الاصلاح الديني اوربة ، وكادت تدمر فرنسة بتحويلها إياها مدة خمسين سنة الى ساحة حرب ، وما أتته من النتائج العظيمة لم تأت مثله أية حادثة تعدلها من حيث قلة قيمتها العقلية .

والأدلة على أن المعتقدات تنتشر بعيدة من العقل كثيرة ، وما أقام النفوس وأقعدها من المذاهب اللاهوتية ايام ثورة الاصلاح الديني ، ولا سيما مذهب كالفن لا يستحق أن يبحث عنه من جهة المنطق العقلي .

فلوثر الذى همه أمر سعادته الأبدية وخاف من الشيطان خوفا لم يقدر كاهنه على ازالته كان يبحث عن أقوى الوسائل التى يرضى بها الله ليتقي جحيمه ، وبعد أن شرع فى انكار حق البابا فى بيع المغفرة رفض ما له ولكنيسته من السلطان رفضاً تاماً وأنحى باللائمة على الطقوس الدينية والاعتراف وعبادة القديسين وصرح أنه لا يجوز للنصارى أن يتبعوا غير ما جاء فى الكتاب المقدس .ثم قال إن النجاة الأبدية لا تكون إلا بفضل الله وكرمه ، ولم يحدد لوثر « نظرية المشيئة الأزلية » المذكورة تحديداً تاماً ، وقد عرّفها كالفن بأوضح من ذلك لجعلها أساس مذهب لا يزال اكثر البروتستانت تابعين له . فعند كالفن « أن الله اختار من الأزل أناساً للنار وآخرين للجنة » وكان جوابه وقتما سئل عن علة هذا الظلم « أن الله أراد ذلك » ، وهكذا رأى كالفن ، الذى لم يفعل سوى ايضاح زعم القديس اوغوستن ، أن الله القادر على كل شيء يعنى بخلق أناس ليكونوا خالدين فى النار غير مبال بأفعالهم وفضائلهم ، ومما يستوقف النظر أن تستولى هذه الغباوة الفكرية على النفوس زمناً طويلا وأن تظل مستحوذة على كثير من الناس حتى الآن .

وهنالك شبه بين نفسية كالفن وروبسبير ، فكان الأول كالثاني استاذاً غير متردد فى قتل من لم يكن على مذهبه ، وكان يقول « إن الله يريد أن تطرح الرأفة والانسانية جانباً عند الجهاد فى سبيله »

ونستدل من حالة كالفن وأنصاره على أن المتناقضات تلتئم فى أدمغة المؤمنين ، فيستحيل من حيث المنطق العقلي أن تثبت أخلاق على مبدإ « المشيئة الأزلية » القائل إن الناس ، مهما تكن أفعالهم ، بعضهم ناجون وبعضهم معذبون ، ومع ذلك لم يلق كالفن صعوبة فى إبداع أخلاق قوية قائمة على أساس غير منطقي .

٤ — انتشار الاصلاح الدينى

لم ينتشر هذا الايمان بالخطب والبراهين العقلية بل بالعناصر التى بحثنا عنها فى كتابنا السابق أى بالتوكيد والتكرار والعدوى النفسية والنفوذ ، وقد انتشرت الأفكار الثورية بعد ذلك فى فرنسة على هذه الطريقة أيضاً .

وساعدالاضطهاد على هذا الانتشار ، إذنشأ عن كل حادثة قتل دخول أناس فى المذهب الجديد ، فلما سيق القاضى اندنبرغ المحكوم عليه بالحرق الى النار سار اليها وهو يحث الجماعة على اعتناق مذهبه ، وقد قال أحد الرواة أن عـــدد البروتستان زاد بين طلاب المدارس بفعل جلده وصبره اكثر مما بكتب كالفن .

وكانوا يقطعون ألسنة المحكوم عليهم بالحرق خوفاً من أن يخاطبوا القوم ، وقد زاد التعذيب هولا تقييد الضحايا بسلاسل من حديد لادخالهم فى النار وإخراجهم منها مرات كثيرة .

كل ذلك لم يثن البروتستان عن مذهبهم الجديد مع أنهم كانوا يوعدون بالعفو بعد أن تمسهم النار .

ولما عدل فرنسوا الأول عن تسامحه سنة ١٥٣٥ أمر باضرام الوقيد فى ستة مواقد فى باريس ، وقد اكتفى رجال العهد بمقصلة واحدة فيها كما هو معلوم ، وقد ظهر أن العذاب لم يكن أليما عند المؤمنين ، حتى إنه شوهد قبل ذلك عدم شعور شهداء المسيحية بالعذاب لتنويمه إياهم ، ومن المسائل المعروفة فى الوقت الحاضر أن بعض طرق التنويم تبطل الحس تماماً .

والخلاصة أن انتشار ذلك المذهب كان سريعاً ، ففى سنة ١٥٦٠ أصلحت الفاكنيسة فى فرنسة وانتحله كثير من الأمراء الذين كانوا فى بدء الأمر لا يبالون به الا قليلا .

٥ — تصادم المعتقدات الدينية واستحالة التسامح .

ذكرت غير مرة أن عدم التسامح يلازم المعتقدات القوية ، والثورات الدينية والسياسية الدالة على ذلك كثيرة ، وقد أثبتت هذه الثورات أن عدم التسامح بين أنصار المعتقدات المتقاربة يكون أشد مما بين أنصار المعتقدات المتباعدة كالاسلام والنصرانية مثلا ، فاذا نظرنا الى المعتقدات التى شطرت فرنسة زمناً طويلا رأيناها لا تختلف الا فى

الأمور الثانوية ، فالكاثوليكى والبروتستانى إلهما واحد ولا يختلفان الا فى كيفية عبادته ولو كان للعقل شأن فى صوغ معتقدهما لأراهما أن الله لا يبالى بالصورة التى يعبد عليها .

ولما كان العقل غير مؤثر فى دماغ المؤمنين استمر البروتستان والكاثوليك على الاقتتال بقسوة ، وما سعى فيه الملوك للتأليف بين الفرقتين ذهب ادراج الرياح ، وقد ذهب عن بال كاترينا دومديسيس أن التسامح إن أمكن بين الأفراد لا يكون بين الجماعات ، فعند ما جمعت علماء اللاهوت خاضوا غمار المناقشة والشتم من دون أن يحيد واحد منهم عن عقيدته ، ثم رأت سنة ١٥٦٢ أن نشرها مرسوماً تمنح فيه البروتستان حق الاجتماع والعبادة جهراً أقرب الى النجاح .

وهذا التسامح الحسن نظرياً والسيء عملياً ، لم ينشأ عنه غير إيغار صدور رجال الحزبين فاضطهد البروتستان الأقوياء فى جنوب فرنسة الكاثوليك لكى يترك هؤلاء عقيدتهم وكانوا يذبحونهم وينهبون كنائسهم عندما يفشلون ، وقد أصاب البروتستان نظير ذلك فى الأمكنة التى كانت الأكثرية فيها الكاثوليك .

وقد نشأ عن مثل هذه الأحقاد حروب دينية ضرجت فرنسة بالدم زمناً طويلا ، فمدنها دمرت والدماء فيها سفكت ، وسرعان ما اتصف هذا النزاع بالقسوة الوحشية الخاصة بالوقائع الدينية والسياسيه .

أبيد الشيوخ والنساء والأطفال وصار رئيس برلمان إكس البارون دوبيد مثالا يقتدى به لقتله فى عشرة أيام ثلاثة آلاف شخص وتدميره ثلاث مدن واثنتين وعشرين قرية ، وكان مونلوك يطرح أتباع كالفن فى الآبار حتى تمتلىء . ولم يفعل البروتستان أقل من ذلك فكانوا يعتدون على الكنائس الكاثوليكية ويتطاولون على القبور والهياكل كتطاول رجال العهد من بعدهم على قبور الملوك .

أخذت تلك الحوادث تفكك عرى فرنسة ، فاصبحت فى أواخر عهد هنرى الثالث جمهوريات صغيرة مستقلة متشاكسة ، وقد تضاءلت سلطة الملوك فكانت بلوا تملى على هنرى الثالث الذى فرّ من عاصمته مطالبها ، وقد شاهد السائح ليبومانو سنة ١٥٧٧ فى فرنسة مدناً كبيرة ، مثل اورليان وبلوا وتور وبواتيه ، عمها الخراب وكنائس متداعية وقبوراً مهدمة .

والواقعة التي تركت من بين وقائع ذلك الوقت أسوأ ذكر هي مذبحة سان بارتلمي التي أمر بها سنة ١٥٧٢ شارل التاسع وكاترينا دوميديسيس .

لا يتطلب الجزم بانه لم يوجد ملك قادر على الأمر بوقوع مثل ذلك الحادث بحثاً نفسياً دقيقاً ، فلم تكن واقعة سان بارتلمي جرماً أقترفه الملك بل جرماً شعبياً ، فلما قتلت كاترينا دوميديسيس في باريس خمسة من زعماء البروتستان الذين ظنت أنهم يأتمرون بها وبالملك وشاع ذلك في باريس انقض اشراف الكاثوليك والحرس الملكي والجمهور على الخوارج فقتلوا منهم الفي نفس ، وقد حذا سكان الولايات حذو أهل باريس في ذلك بعامل العدوى فسفكوا دماء ما يقرب من ثمانية الاف نفس .

ولما سكن الزمان الحمية الدينية قليلا أنحى المؤرخون من كاثوليك وغيرهم على مذبحة سان برتلمي باللائمة فأثبتوا لنا بذلك أن الوقوف على نفسية عصر من خلال نفسية عصر آخر أمر متعذر .

لم يوجه إلى حادثة سان بارتلمي أيام وقوعها شيء من الانتقاد في أوربة الكاثوليكية ، وقد أوجبت حماسة لا توصف ، فكاد فيليب الثاني يصبح مجنوناً لشدة فرحه عندما بلغه وقوعها وتساقطت أنواع التهنئة على ملك فرنسة أكثر مما كانت تتساقط عليه لو نال نصراً عزيزاً في ساحة الحرب ، ولم يبد السرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثالث عشر ، فقد أمر بضرب أوسمة خاصة تخليداً لذكراها [١] وبإيقاد نيران الفرح وباطلاق المدافع وباقامة قداديس كثيرة وبجعل الرسام فازاري يصور على جدران الفاتيكان مناظرها ثم أرسل إلى ملك فرنسة سفيراً ليهنئه بعمله الجيد ، فهذه الأنباء التاريخية تدلنا على نفسية المؤمنين في كل دور .

ومن الأمور الطبيعية أن لا يبقى البروتستان مكتوفي الأيدي إزاء هذه الملحمة ، فقد بلغ امتعاضهم مبلغاً جعل هنري الثالث يمنحهم في مرسوم بوليو الذي نشره سنة ١٥٧٦ حرية دينية تامة وثمانية أماكن حصينة وأن يكون عددهم في بعض البرلمانات مساوياً لعدد الكاثوليك ولم ينشأ عن هذه الامتيازات القهرية ارتياح في النفوس ، فقد تألب الكاثوليك ،

---

(١) وزعت الاوسمة على كثير من الوجوه والاكابر ، والى الآن يوجد ثلاثة منها في المكتبة الوطنية : أحدها من ذهب والثاني من فضة والثالث من نحاس ، وقد رسمت على هذه الاوسمة صورة غريغوار الثالث عشر وبجانبه ملك يضرب بالسيف أعناق الخوارج ثم هذه الكلمة : « قتل الخوارج »

وعلى رأسهم دوك دوكيز ، وأوقدوا نيران حرب لم يطفئها هنرى الرابع إلا بارتداده سنة ١٥٩٣ وبوضعه مرسوم نانت .

نعم إنه أضعف جذوتها ولكنه لم يقض عليها ، إذ رفع البروتستان راية العصيان أيام لويس الثالث عشر فاضطر ريشيليو سنة ١٦٢٧ الى محاصرة لاروشيل حيث هلك ١٥٠٠٠ نفس من البروتستان ، ولما كان هذا الكردينال الشهير ذا روح سياسية عالية عاملهم بالتسامح .

ولم يدم هذا التسامح طويلا ، فالعقائد المتناقضة لا تظل متقابلة من غير أن تتصادم عندما تشعر إحداها بقدرتها على قهر الأخرى ، فلما ضعف البروتستان فى أيام لويس الرابع عشر عدلوا عن القيام بأية حركة عدائية وأصبحوا مسالمين ، وقد كان عددهم ١٢٠٠٠٠٠ نفس وكان لهم ٦٠٠ كنيسة لها ٧٠٠ قسيس ، وبما أن بقاءهم فى فرنسة مما لم يصبر عليه كهنة الكاثوليك أخذوا فى اضطهادهم فاعتمد لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٥ على فرسانه فى قتل أناس كثيرين منهم ، ولما لم يجد ذلك نفعاً ضغطه الاكليروس ولا سيما بوسويه فألغى مرسوم نانت وخير البروتستان بين ترك مذهبهم وهجرة بلاد فرنسة .

استمرت تلك الهجرة طويلا ، وقد خسرت فرنسة من أجلها أربعمئة الف رجل كريم أصغوا الى نداء ضمائرهم أكثر مما الى مصالحهم الذاتية .

٦ — نتائج الثورات الدينية

لم تكن الثورات الدينية كلها سيئة مثل ثورة الاصلاح الدينى ، بل كان تأثير الكثير منها فى تقويم الناس وتهذيب نفوسهم عظيما جداً ، فهى بمنحها الشعب وحدة أدبية تزيد قوته المادية كثيراً ، وقد شوهد ذلك لما حوّل محمد (صلعم) بما جاء به من الايمان قبائل العرب الضعيفة الى أمة عزيزة .

ولا يقتصر المعتقد الدينى الجديد على جعل الأمة متجانسة ، بل يأتى بما يتعذر على أى فيلسوف أو قانون أن يأتى بمثله ، أى إنه يغير عواطف الأمة الثابتة .

وقد لوحظ ذلك وقتما قضت أكبر ثورة تاريخية على الوثنية وأقامت مقامها عبادة إله جاء من سهول بلاد الجليل ، دعا هذا الدين الجديد الناس الى العدول عن كل نعيم فى هذه الحياة ليكونوا خالدين فى ملكوت السموات وهذا الدين الذى أقبل عليه الأرقاء

والبائسون والمحرومون طيب العيش أيما إقبال لوعده إياهم نعيما دائماً بدلا من حياة لا أمل فيها قد هان أمره على الأغنياء أيضاً ، وهذا يثبت لنا ما للايمان الجديد من السلطان على النفوس .

لم تقتصر الثورة النصرانية على تحويل العادات ، بل أثرت تأثيراً كبيراً فى سير الحضارة مدة ألفي سنة . فمتى يتم النصر لمعتقد دينى تلائمه عناصر الحضارة ملاءمة تتحول بها ، ولا يفعل الكتاب ورجال الأدب والفن والفلاسفة وقتئذٍ غير الاشارة الى ذلك المعتقد الجديد فى تآليفهم .

وعندما ينتصر الايمان سواء أدينياً كان أم سياسياً لا يؤثر فيه العقل ، وإنما يجد هذا العقل مسوغات يزكيه بها ، وربما كان أيام مولوخ خطباء ولاهوتيون كثيرون يثبتون مافى القرابين البشرية من الفوائد كعدد من ظهر فى الأزمنة الأخرى من الخطباء وعلماء اللاهوت الذين مجدوا محاكم التفتيش وملحمة سان بارتلمى ومذابح دور العهد .

ولا تعرف الأمم ذات المعتقدات القوية شيئاً من التسامح ، فالأمم المشركة هى التى كانت متسامحة فى القرون القديمة ، والأمم المتسامحة فى القرون الأخيرة هى التى يمكن نعتها بأمم ذات أرباب متعددة ، فهى ، مثل الانكليز والأمريكان ، مفترقة على فرق دينية كثيرة وتعبد آلهة مختلفة بأسماء واحدة ، غير أن تعدد المعتقدات الذى يجعلها متسامحة يضعفها فى نهاية الأمر ، وهنا نرى أنفسنا إزاء معضلة نفسية لم تحل حتى الآن وهى : حيازة معتقد قوى ومتسامح معاً .

ظهر لنا من البيان الوجيز السابق ماللثورات الدينية من الشان الأعظم وما للمعتقدات من السلطان الأكبر ، فهى التى تقود التاريخ على رغم قيمتها العقلية القليلة ، وهى التى تقى الأمم من أن تكون أشخاصاً ضعفاء لا تربطهم رابطة ، وقد احتاج الانسان اليها فى كل عصر ليوجه أفكاره نحو مطلب وما استطاعت أية فلسفة أن تقوم مقامها حتى الآن

الفصل الثالث
شأن الحكومات فى الثورات

١ ـــ ضعف مقاومة الحكومات في الثورات

عانى كثير من الأمم الحديثة كفرنسة واسبانية وبلجيكة واليابان وتركية والبرتغال أمر الثورات ، وتوصف هذه الثورات فى الغالب بحدوثها بغتة وبسهولة قلبها للحكومات .

وسبب حدوثها بغتة هو سرعة العدوى النفسية الناشئة عن طرق النشر والاذاعة فى الوقت الحاضر ، ومما يقضى بالعجب ضعف مقاومة الحكومات لها ، فذلك يدل على عجزها عن الاطلاع على حقائق الأمور وكشف عواقبها .

لم يكن إسقاط الحكومات بسهولة أمراً حديثاً ، فقد شوهدت غير مرة حكومات قلبت بسهولة ، ومنها حكومة استبدادية أسقطتها مؤامرات البلاط ومنها حكومات مطلعة على الرأى العام بواسطة الصحافة وبواسطة موظفيها .

ومن أمثلة ذلك السقوط الفجائى خلع شارل العاشر بعد نشر مراسيمه بأربعة أيام ، فهذا الملك ، الذى لم يتخذ وزيره بولينياك وسيلة للدفاع عنه ، قد بلغ اعتقاده سكون باريس مبلغاً جعله يذهب الى الصيد ، وقد تشتت شمل جيشه ، لسوء قيادته ، أمام هجمات عصاة قليلين

وخلع لويس فيليب بثورة صغيرة يقضى بالعجب العجاب ، فهذا الخلع لم ينشأ عن استبداده ، وإنما نشأ عن عجز قواده عن الدفاع عنه ، وذلك خلافاً لما قاله المؤرخون الذين

لا يعتقدون إمكان سقوط حكومة منظمة يؤيدها جيش كبير على يد نفر من العصاة ويعزون خلع لويس فيليب الى أسباب بعيدة من الحقيقية .

حقاً وجد فى باريس جيش مؤلف من ٣٦٠٠٠ جندى لم ينتفع به لعجز قادته وضعفهم ، فلما أكثر هؤلاء القادة من إعطاء الأوامر المتناقضة ونهوا الجيش عن ضرب القوم اختلطت الجماعات بالجنود فتم النصر للثورة من غير كفاح واضطر الملك الى التنزل عن العرش .

وقد أشار الجنرال بونال ، مستعيناً بمباحثنا فى روح الجماعات ، الى أن اخماد الفتنة التى أدت الى خلع لويس فيليب كان ممكناً ، فبين أنه لو بقى شىء فى رؤوس القواد من العقل لاستطاعت ثلة من الجيش أن تردع العصاة عن الاستيلاء على مجلس النواب ولنادى هؤلاء النواب الذين كانوا من أنصار الملكية بكونت دوبارى ملكا وانابوا أمه عنه .

يثبت لنا ذلك ما للعوارض الصغيرة الثانوية من الشأن فى تكوين الحوادث العظيمة ويغنينا عن الاسهاب فى بيان سنن التاريخ العامة ، فلولا الفتنة الصغيرة التى أوجبت خلع لويس فيليب ما قامت الجمهورية سنة ١٨٤٨ وما ظهرت الامبراطورية الثانية وما حدثت واقعة سيدان وما أغار الأجنبى علينا وما أضعنا الألزاس على ما يحتمل .

ولم يمد الجيش فى الثورات التى ذكرتها يد المعونة الى الحكومات ولم يثر عليها ، وقد يقع عكس ذلك ، فالجيش هو الذى قام بالثورات فى البرتغال وتركية وعلى يده تتم الثورات الكثيرة فى الجمهوريات اللاتينية الأمريكية ، وإذا قام الجيش بالثورة أصبح القائمون بأمور الدولة تحت إمرته ، وقد وقع ذلك فى أواخر الدولة الرومانية عندما كان الجنود هم الذين يخلعون الامبراطرة .

ولا تتم الثورة بغير معاضدة الجيش أو بمحايدته على الأقل ، بيد أنها تبدأ فى الغالب من غير أن يتدخل ، ذلك كما حدث فى ثورة سنة ١٨٣٠ وثورة سنة ١٨٤٨ وثورة سنة ١٨٧٠ التى قضت على الامبراطورية حينما شعر الناس فى فرنسة بالعار الذى أصابهم من استيلاء الألمان على مدينة سيدان .

وتقع أكثر الثورات فى العواصم ومنها تسرى بالعدوى الى البلاد جميعها ،وليس لذلك قاعدة ثابتة ، فقد ثار أهل فانده وبريتانية والجنوب على باريس أيام الثورة الفرنسية الكبرى كما هو معلوم .

٢ — كيف تؤدى مقاومة الحكومات الى انتصارها على الثورات

ظهر لنا من أكثر الثورات التى ذكرناها أن الحكومات الضعيفة تنهار عندما تمس ، غير أن الثورة الروسية السابقة أثبتت لنا إمكان انتصار الحكومة التى تعرف كيف تدافع عن نفسها .

لم تحدث ثورة أكثر خطراً على حكومة من هذه الثورة ، فبعدما غلبت روسية فى الشرق الأقصى وشعر الناس بشدة النظام الاستبدادى تمردت فيها الطبقات الاجتماعية ومنها جزء من الجيش والاسطول وأضرب موظفو الخطوط الحديدية والبريد والبرق عن العمل فانقطعت وسائل النقل والمراسلة فى تلك الامبراطورية العظمى .

ثم أخذت الدعوة الثورية تشيع بين طبقة الفلاحين الذين هم معظم الأمة الروسية وقد كان هؤلاء يعيشون عيشة بؤس وشقاء لا كراهم ، كما يقتضيه نظام مير ، على الفلاحة من غير أن تكون الغلة لهم فعزمت الحكومة على استمالتهم بتحويلهم الى ملاك فوضعت قوانين أكرهت بها سادتهم على بيعهم جزءا من أطيانهم ثم أنشأت مصارف لتقرضهم مالا يؤدون به ثمن ما يشترونه على أن يدفعوا ديونهم الى تلك المصارف اقساطاً سنوية من المحاصيل .

وبعدما استمالت الحكومة الروسية الفلاحين على هذا الوجه استطاعت أن تقاتل ، من غير رحمة ، العصاة المتمردين الذين كانوا يحرقون المدن ويلقون القنابل بين الجماعات فابادت من قبضت عليهم منهم سائرة على السنة الضرورية لحفظ المجتمع من الثائرين الذين يريدون نقضه .

ثم رأت الحكومة الروسية التى خرجت من هذه المعامع ظافرة ان تجيب فريق الأمة المهذب الى مطاليبه الحقة فانشأت مجلساً اشتراعياً يسن القوانين ويراقب النفقات .

يثبت لنا تاريخ الثورة الروسية كيف أن حكومة تداعت أركانها الطبيعية استطاعت بثباتها ودرايتها أن تتغلب على أشد الصعوبات ، فلقد أصاب من قال : « إن الحكومات لا تقلب بل تنتحر . »

٣ — ثورات الحكومات ، مثال تركية والصين

الحكومات تقاوم الثورات عادة ولا تقوم بها ، غير أن هنالك حكومات قامت باصلاحات بجائية من فصيلة الثورات ، وما أتصفت به الروح القومية فى البلاد من الثبات أو التقلب يوضح لنا سر نجاح هذه الحكومات أو فشلها فى ذلك .

فالحكومة تنجح عندما تكون الأمة التى ترغب أن تكرهها على أنظمة جديدة مؤلفة من قبائل وحشية خالية من القوانين الثابتة والتقاليد الراسخة أى من روح قومية قوية ، ومن أمثلة ذلك روسية أيام بطرس الأكبر الذى حاول أن يفرنج الروس ، واليابان مثال آخر للثورات التى قامت بها الحكومات ، ولكن طرق اليابان الفنية هى التى تغيرت لا روحها القومية .

ويتطلب النجاح فى تلك المساعى وجود ملك عبقرى مستبد قوى ، ذلك لأن الملك المصلح يرى الأمة جمعاء قد وقفت فى وجهه فيكون وقتئذ هو الثائر وهى المحافظة خلافاً لما يقع عادة .

والفشل فى تلك الثورات هو الأصل سواء أمن علية القوم كان القائمون بها أم من سفلتهم ، فروح الأمة الراسخة منذ زمن طويل لا تتبدل وإنما الأمور التى أبلاها الزمان هى التى تتحول .

قامت الصين فى الوقت الحاضر بتجربة دلتنا على أنه من المستحيل أن تجدد حكومة نظم الأمة فجأة ، فالثورة التى اشتعلت فيها ونشأ عنها سقوط العائلة المالكة هى نتيجة استياء الشعب من الاصلاحات التى أرادت الحكومة الصينية أن تلزمه بها لتحسن حالة البلاد ، وقد أوجب تحريم الأفيون ولعب القمار واصلاح الجيش وفتح المدارس فيها أن زيدت الضرائب زيادة أقلقت الرأى العام كالاصلاحات نفسها .

فاستفاد من هذا السخط بضعة صينيين درسوا فى المدارس الأوربية فحرضوا الشعب على الثورة ليعلن النظام الجمهورى الذى لا يفقه صينى من أمره شيئاً .

ولا يدوم هذا النظام طويلا ، فلم يكن الباعث الذى أحدثه باعث تقدم بل باعثاً رجعياً ، فكلمة جمهورية عند الصينى الذى تخرج على الطريقة الأوربية مرادفة لكلمة التحرر من سلطان القوانين والأنظمة والتقاليد ، وهو يظن أنه بقصه ضفيرته وبوضعه خوذة على رأسه وباقامته الجمهورية يستطيع أن يرخى لشهوات نفسه أعنتها .

وسترى الصين قريباً ماذا يكون أمر بنيانها الجديد الذى لم يقم على دعائم الماضى . فالعلم لم يكتشف بعد عصا السحر القادرة على إبقاء مجتمع فوضى ، فستضطر الصين بعد أن تغوص بضع سنين فى بحار الفتن التى تسفك بها الدماء الى الاعتصام بسلطة مستبدة أشد من السلطة التى قلبتها ، إذ لا احتياج إلى اكراه الناس على النظام إذا كان وراثياً ، وأما إذا هدمت الشهوات الأنظمة التى أقامها الأجداد فلا يتجدد بناؤها الا باستبداد شديد .

وقامت تركية أخيراً كالصين بتجربة قد تكون دليلا على صحة ما بيناه ، فقد استطاع منذ بضع سنين شبان درسوا فى مدارس أوربية أن يخلعوا السلطان الذى أصبح استبداده لا يطاق ، وأعانهم على ذلك كثير من الضباط ظانين أنهم قادرون على تأسيس نظام نيابى فى بلاد متأخرة ذات أديان مختلفة مثل بلادهم.

لم يأت هؤلاء حتى الآن عملا مشكوراً ، وقد رأوا على رغم انتحالهم الحرية ، أنهم مضطرون إلى حكم البلاد بأساليب قريبة من اساليب العهد الذى قضوا عليه .

ولا يجوز أن يلاموا على ذلك ، فماذا يفعلون فى تحويل أمة ذات تقاليد قديمة راسخة وذات عواطف دينية قوية ؟ وكيف لا يبقى الاسلام دين الدولة فى بلاد اتحد فيها الشرع المدنى والشرع الدينى وقام فيها المبدأ الوطنى على الايمان بالقرآن ؟ يصعب هدم ذلك ، ولذا رجعت تركية الى نظام استبدادى ذى مسحة دستورية كنظامها السابق .

بتلك التجارب يستشهد فى القول : إنه يتعذر على الأمة أن تختار نظمها قبل أن تغير روحها .

٤ — العناصر الاجتماعية التى تبقى بعد أن تقلب الثورات الحكومات

ما نقوله عن ثبات الروح القومية يدلنا على ماللنظم التى قامت منذ زمن بعيد من القوة . نعم يقدر المؤتمرون على خلع الملك ، ولكنهم يعجزون عن فعل شىء لا يلائم المبادىء التى يمثلها الملك ، فلما خلع نابليون لم يخلفه وارثه الممثل لمبادىء غير ثابتة فى النفوس بل ورثه ابن الملوك الممثل لمبدإ قديم .

والوزير مهما يكن ماهراً وبارعاً فى خدمة بلاده فقد لا يقدر على خلع ملكه ، ولو أراد بسمارك ذلك ما استطاع ، مع أنه كفى لسقوط بسمارك ، وهو الذى صنع وحده الوحدة الألمانية ، إشارة صغيرة من سيده .

على أننا اذا فرضنا وجود أسباب مختلفة تلاشى الحكومة والمبدأ الذى تمثله ، كما وقع أيام الثورة الفرنسية ، فان العناصر التى يتألف منها نظام المجتمع الحقيقى لا تزول كلها فى الوقت نفسه ، فلو اقتصر مانعلمه عن فرنسة على ما وقع فيها من الانقلابات منذ عصر لقلنا إنها فوضى ، والواقع أنها تبدو للناظر ذات حياة اقتصادية صناعية سياسية مستمرة بعيدة من الانقلابات والأنظمة .

فبجانب الحوادث العظيمة التى يهتم بها التاريخ أمور صغيرة تخص الحياة اليومية

ولا تعبأ الكتب بذكرها ، وهى تابعة لعوامل مهيمنة لا تقف أبداً و يتألف من مجموعها لحمة حياة الأمة .

إذن من هم قادة الأمة الحقيقيون ؟ لا ريب ، هم الملوك والوزراء فى الأحوال العظيمة ، ولكن لا شأن لهؤلاء الرجال فى الأمور الصغيرة التى تتألف الحياة اليومية منها ، فالقوى الحقيقية التى تسير البلاد هى عناصر الادارة غير الشخصية التى لا يؤثر فيها ما يصيب نظام الحكم من التحولات ، ولهذه الادارة ، ذات التقاليد المحافظة المتصفة بالدوام والخفاء، قوة تنحنى أمامها القوى الأخرى ، وقد بلغ تأثيرها مبلغاً أوشك أن يكون لها به دولة خفية أقوى من الدولة الرسمية ، وسيأتيك تفصيل ذلك .

الفصل الرابع
شأن الامة فى الثورات

١ — ثبات روح الامة ومرونتها

يستلزم الاطلاع على أحوال إحدى الأمم الوقوف على بيئة تلك الأمة ولا سيما ماضيها ، فالماضى وإن أمكن إنكاره نظرياً ، كما فعل رجال الثورة الفرنسية وكثير من رجال السياسة فى الوقت الحاضر ، لا يفنى تأثيره .

ففى الماضى الذى هو تعاقب الأجيال تتكون عناصر روح الأمم من أفكار ومشاعر وتقاليد وأوهام ، ولولا هذه العناصر التى لا ارتقاء بغيرها لاضطر كل جيل الى استئناف العمل .

ولا تتوطد عناصر روح الأمة إلا إذا كانت على شىء من الثبات الذى تسهل به مرونة تلك الروح ، فالروح الدائبة بلا ثبات تكون مذبذبة غير مستقرة ، وبلا مرونة تكون عاجزة عن ملاءمة تقلبات البيئة الناشئة عن تقدم الحضارة .

شدة المرونة فى روح الأمة تسوقها إلى القيام بثورات متوالية وشدة الثبات تقودها إلى الانقراض ، فنوات الحياة ومنها الأنواع البشرية تضمحل إن ظلت مستقرة على رغم تعاقب الزمن وعاجزة عن ملاءمة ما يطرأ على الحياة من الأحوال الجديدة .

والأمم التى وازنت بين هاتين الصفتين المتناقضتين أى الثبات والمرونة، قليل عددها، ونذكر منها الرومان فى القرون القديمة والانكليز فى الوقت الحاضر .

حقاً إن الأمم التي رسخت روحها كثيراً تأتى بأشد الثورات فى الغالب، فهى لعجزها عن النشوء التدريجى تضطر الى ملاءمة تقلبات البيئة بعنف عندما تصبح هذه الملاءمة أمراً ضرورياً .

ولا تستقر روح الأمة إلا ببطوء عظيم ، فما التاريخ إلا أنباء مجهوداتها الكبيرة فى سبيل توطيد روحها ، وتظل هذه الأمم مذبذبة لا رابطة بين أجزائها ما دامت غير ناجحة فى ذلك ، وقد سعت فرنسة ، بعد أن أغار البرابرة على الدولة الرومانية فى أواخر عهدها ، قروناً كثيرة لتنال روحاً قومية .

نعم إنها اكتسبتها فى آخر الأمر ، ولكن رسوخها لم يلبث أن صار شديداً ، ولو اتصفت روحها بقليل من المرونة لتطور نظامها الملكى القديم بالتدريج ، ولتخلصت من ثورتها الكبرى ومن نتائجها ومن سعي شاق لتجديد روحها القومية .

تثبت لنا الملاحظات السابقة شأن العنصر فى تكوين الانقلابات وتوضح لنا لماذا تأتى الثورة الواحدة بنتائج تختلف باختلاف الأمم كما توضح لنا سبب اقبال بعض الأمم بحماسة على مبادىء الثورة الفرنسية ومقاومة الأمم الأخرى لها .

لا ريب فى أن انكلترة المحافظة عانت أمر ثورتين وقضت على أحد ملوكها ، ولكن مزاجها النفسى كان ثابتاً ثباتاً كافياً لحفظ تراث الماضى ومرناً مرونة كافيـــة لنشوء هذا المزاج حسبما تقتضيه الضرورة ، وهى ، على عكس رجال الثورة الفرنسية ، لم تفكر قط فى تقويض تراث الأجداد لتقيم مجتمعاً جديداً باسم العقل .

قال البير سورل : « بينما كان الفرنسى يحتقر حكومته ويمقت اكليروسه ويحقد على أشراف أمته ويتمرد على قوانين بلاده كان الانكليزى يفتخر بدينه وبدستوره وبأكابر أمته وبمجلس أعيانه ، فكان كأنه يحكم أوربة ويستخف بها معتصما بأبراج ذلك الحصن المنيع »

ويتجلى لنا أيضاً شأن العنصر فى مصـــير الأمم عند البحث فى تاريخ الثورات الاميركية الأسبانية الدائمة ، فالأمم الأميركية الأسبانية مولدة ، أى مؤلفة من أناس انحلت أخلاقهم بتأثير الوراثة المتباينة انحلالا حرمهم روحاً قومية ثابتة وجعل حكمهم متعذراً .

ومن يرد أن يطلع على التباين بين استعداد الأمم السياسى الناشىء عن اختلاف العنصر فليبحث عن أمة واحدة حكمها جنسان .

ولم يكن ذلك نادراً فى التاريخ ، فقد تجلى حديثاً فى القطرين كوبا والفلبين اللذين

استولت عليهما الولايات المتحدة بعد الحكم الأسبانى ، فالكل يعلم درجة ما وصلت اليه كوبا أيام الحكم الأسبانى من الفوضى وما صلت اليــــه من العمران فى بضع سنين أيام حكم الولايات المتحدة

والكل يعلم أن الفلبين كانت أيام سلطان الأسبان الذى استمر قروناً كثيرة مستنقعاً واسعاً تعيش فيه أمة بائسة عاطلة من التجارة والصناعة ، وبعد استيلاء الاميركيين عليه أصبح خالياً من العفن والحمى والطاعون موصول الأجزاء بالسكك الحديدية مكتظاً بالمصانع والمدارس متمتعاً بأسباب الصحة والوقاية .

فإلى مثل هذه الأمثلة يجب رد رجال النظر الذين لم يدركوا ما فى كلمة العنصر من المعانى ولم يفقهوا أن روح الأمة الموروثة هى التى تسيطر على مصيرها .

٢ — كيف تتلقى الامة الثورة

شأن الشعوب واحد فى الثورات كلهـا ، فهى لا تدرك مغزاها ولا تدبر أمرهـا ، وإنما الزعماء هم الذين يحركونها .

ولا يخلع الطاعة فريق من الشعب بغريزته إلا إذا مس الضر منافعـــه الظاهرة ، وذلك كما وقع فى شامبانية حديثاً ، وتدعى هذه الحركة المحلية بالعصيان البسيط .

ويسهل وقوع الثورة إذا كان زعماؤها من ذوى النفوذ العظيم ، وأما مبادىء الثورة فلا تدخل فى قلب الشعب إلا بالتدريج ، فالشعب يقوم بالثورة من غير أن يعلم سببهـا ، ومتى ساقه الحظ إلى إدراك هذا السبب فان الثورة تكون قد انتهت منذ زمن طويل .

ويقوم الشعب بالثورة مجيباً دعوة زعمائه ، وهو مع عدم إدراكه شيئاً يستحق الذكر من أفكار هؤلاء الزعماء تتوارده هذه الأفكار حسبما يمليه عليه خياله .

خذ الثورة الفرنسية التى وقعت ســـنة ١٧٨٩ مثلا تر غايتها أن يقبض على زمام الأمور أبناء الطبقة الوسطى بدلا من الأشراف .

ولم ينظر إلى مصلحة الشعب فى بدء هـذه الثورة إلا قليلا . والشعب وان أعلنت سيادته فيها كانت تفسر هذه السيادة بحقه فى انتخاب نوابه فقط .

ولما كان الشعب جاهلا غير طامح ، كابناء الطبقـة الوسطى ، الى الارتقـاء فى السلم الاجتماعى وكان شاعراً ببعده من درجة الأشراف غير طامع فى مساواتهم كانت اغراضه ومنافعه تختلف كثيراً عن أغراض علية القوم ومنافعهم .

يد أن ماوقع بين المجلس النيابى والملك من المنازعات أوجب تدخل الشعب فيها شيئا فشيئاً فاصبحت ثورة الطبقة الوسطى بذلك ثورة شعبية ، و بما أن المبدأ لا يؤثر إلا إذا استند الى العاطفة والتدين وجب على مبادىء الطبقة الوسطى النظرية ، لتؤثر فى الشعب ، أن تتحول الى إيمان جديد واضح مشتق من المنافع العملية الظاهرة .

تم هذا التحول بسرعة عندما سمع الشعب الرجال الذين كانوا الحكومة فى نظره يقولون له إنه مساو لسادته السابقين فاعتبر أنه كان ضحية وشرع ينهب و يحرق ويقتل ظاناً أنه يتصرف فى حق له .

وهكذا تجلت قوة المبادىء الثورية فى منح حرية السير والعمل لأصحاب الغرائز الفطرية الضارة التى ردعتها البيئة والتقاليد والقوانين منذ القديم .

ولما أخذت الزواجر الاجتماعية التى كانت تزجر عامة الأمة تتداعى على الوجه المذكور تصور هؤلاء أن قوتهم غير محدودة فصاروا يطاردون سادتهم السابقين و يسلبونهم أموالهم ، وهل يمتنع الشعب عن فعل كل شىء بعد أن يصبح حاكماً ؟

لم تلبث كلمة الحرية والمساواة والاخاء التى كانت عنوان الايمان الجديد والآمال الجديدة فى بدء الثورة أن أخذت تسوغ غرائز الطمع والحسد والحقد ، تلك الغرائز المحركة للجماعات والتى لا يزجرها نظام ، وهذا ما جعل النظام يختل والظلم يسود والفوضى تعم فى وقت قصير .

وبعد أن هبطت الثورة الفرنسية من الطبقة الوسطى الى طبقة العوام تقلص ظل العقل وتغلبت عليه الغرائز ، وانتصار الغرائز الموروثة أمر مخيف ، فلم تؤد المجهودات التى قامت بها المجتمعات لتعيش إلا إلى زجر بعض الغرائز الحيوانية الموروثة ، نعم يمكن ردع هذه الغرائز ، ولما تقدمت الأمة فى ميدان الحضارة صار هذا الردع أتم واكمل ، إلا أنه يستحيل القضاء عليها ، ولذا كان تحريرها خطراً جداً ، فمتى فاض السيل لا يرجع الى مجراه قبل أن يخرب ما يصل اليه .

٣ — شأن الشعب فى الثورات

تثبت لنا سنن روح الجماعات أن الشعب لا يسير من غير زعماء وأن عمله و إن كان عظيما فى الثورات ، لاندفاعه فيما حرض عليه ، لا يقود ما ينجزه من الحركات أبداً .

وللزعماء فى كل ثورة سياسية تأثير ، ومع أنهم لا يبتكرون المبادىء التى تستند اليها

فانهم يتخذونها وسيلة للعمل ، فلكل من المبادىء والزعماء والجيوش والجماعات شأن خاص فى جميع الثورات .

تسير الجماعة التى هيجها الزعماء معتزة بعددها ، ومثل تأثيرها كمثل تأثير القنبلة التى تخترق الدرع مستمدة قوتها من شىء آخر ، وقلما تدرك الجماعة شيئاً من الثورات التى تقوم بها ، فهى تتبع الزعماء طائعة من غير أن تبحث عن شهواتهم ، فقد خلعت شارل العاشر من أجل مراسيمه وهي لم تفقه شيئاً من أمر هذه المراسيم ، ولو سئلت عن سبب خلعها لويس فيليب لعجزت عن الجواب .

وقد خدعت الظواهر مؤلفين كثيرين ، كميشله واولار ، فظنوا أن الشعب هو الذى قام بالثورة الفرنسية الكبرى ، قال ميشله : « إن الفاعل الأصلى للثورة الفرنسية هو الشعب » وقال اولار : « ان من الخطاء أن يقال إن الذين أوقدوا نار الثورة الفرنسية هم بعض الوجهاء فقد ثبت عندى ، بعد الاطلاع على ما وقع فى سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٩ أن الشعب هو بطل تلك الثورة وأنه لم يسير الحوادث شخص واحد ، سواء كان ذلك الشخص لويس السادس عشر أم كان ميرابو أم دانتون أم روبسبير »

وقد غالى مسيو كوشان فى قوله : « ان من الخوارق أن حكمت هذه الجماعة (الشعب) وأمرت وقالت وسارت مدة خمس سنين باتقان تام غير مستعينة برئيس أو قانون ، فقد كانت هذه الجماعة تعمل بغريزتها وهى مؤلفة من ٢٥ مليون نفس على مساحة ٣٠,٠٠٠ فرسخ مربع كأنها رجل واحد . »

نعم لو كان سير الشعب غريزياً كما زعم هذا المؤلف لعد من الخوارق ، وقد فطن مسيو اولار الى استحالة ذلك فكان حينما يبحث عن الشعب يقول إنه مؤلف من أحزاب لها رؤساء ، قال هذا المؤلف : « من وطد الوحدة القومية ؟ ومن أنقذ الأمة التى هاجمها الملك ومزقتها الحرب الأهلية ؟ أدانتون أم روبسبير أم كارنو ؟ كلا ، نعم قد خدم هؤلاء الأمة ، ولكن ألذى أيد الوحدة والاستقلال هو تجمع الأمة الفرنسية على شكل بلديات وجمعيات شعبية ، واذا كان فى كل حزب بضعة زعماء فان هؤلاء الزعماء كانوا يستمدون قوتهم من أحزابهم و ينفذون أحكامها كما يظهر ذلك من مطالعة محاضر الجمعيات الشعبية »

٤ — طبقات الامة

يقال فى الرد على بعض الأفكار أن الأمة ذات كيان لاهوتى حائز جميع ما يمجده

رجال السياسة ويسهبون فى ذكر ما له من القوى والفضائل ، وسنبدى رأينا فى ذلك عند بحثنا الآن عن شأن الأمة فى الثورة الفرنسية .

إن الأمة عند المتقدمين والمتأخرين من اليعاقبة ، كالآلهة ، ذات شخصية سامية لا تسأل عما تفعل ولا تخطىء أبداً ، فالكل مسؤول عن إطاعتها وان جاز لها أن تقتل وتنهب وتحرق وتأتى أقسى المظالم وتطرح غداً فى الدرك الأسفل من رفعته اليوم الى مصاف الأبطال ، ولا يعدل رجال السياسة عن السجود أمام أحكامها مسبحين بحمد فضائلها وحكمتها العالية .

فما هى حقيقة الأمة أى المعبود الذى يقدسه الثوريون منذ قرن ؟

يمكن تقسيمها الى قسمين : فالقسم الأول يشتمل على الفلاحين والنجار وأرباب الحرفة أى على من يحتاجون الى السكينة والنظام ليقوموا بمهنهم ، ويغفل المؤرخون أمر هذا الفريق الذى هو أكثرية الأمة والذى لا يقوم بالثورات أبداً ويعيش عيش عناء وسكوت .

وأما القسم الآخر الذى له شأن مهم فى الفتن القومية كلها فهو ثمالة اجتماعية هادمة ذات نفسية أثيمة أى هو أناس يتألف من مجموعهم جيوش متمردة حوّلها البؤس وإدمان المسكرات الى لصوص وصعاليك .

فالخوف من العقاب يردع الكثيرين من هؤلاء الأخلاط المشائيم عن اقتراف الجرائم فى الأوقات العادية ، ولكنهم لا يتأخرون عن ارتكابها عندما تستطيع غرائزهم المنحطة أن تسير حرة ، فهم الذين كانوا يستولون ، بتأثير زعمائهم ، على مجالسنا الثورية الكبرى ويقترفون أنواع القتل والنهب والحرق غير مكترثين للنظريات والمبادىء أبداً .

وينضم بتأثير العدوى الى هذه الطبقة المنحطة جماعة من العاطلين الذين يصرخون مع كل ناعق ويتمردون مع كل متمرد دون أن يفقهوا شيئاً من المسئلة التى يصرخ من أجلها ويتمرد .

ولا يعرف الخطباء غير هذه الجماعات المشاغبة الضارة التى هى آلة كل عصيان منذ القديم والمؤلفة من الرعاع الذين قال تيار عنهم « إنهم لم يتغير منهم شىء منذ الأزمنة التى رآهم فيها تاسيت يصفقون لجرائم القياصرة ، وانهم يتأهبون لتدنيس المجتمعات باقترافهم أنواع الجرائم مجيبين نداء كل سلطة لوصم كل مبدإ »

لم يمتد شأن الرعاع فى دور امتداده أيام الثورة الفرنسية فمنذ تفلتوا من قيدهم سنة ١٧٨٩ ، أى قبل دور العهد بقليل ، أخذوا فى ذبح الناس ، وقد شرّحوا المسجونين وهم أحياء ومثلوا بهم لتمتد آلامهم و يتسلى الحضور باضطرابهم و نواحهم .

هكذا يسير الرعاع عندما تقضى الأيدى الغافلة على الزواجر الرادعة لغرائزهم المتوحشة المنتقلة اليهم بالوراثة ، فلو تكاثف هؤلاء الرعاع طرفة عين لظهر هذا الجسم غولا طاغياً قليل العقل سفاكا للدماء .

على أنه يسهل التغلب على هؤلاء الرعاع عندما يقف فى وجههم جبار عنيد ، فقد أعانوا كل استبداد وأيقن القياصرة أنهم يصفقون لهم سواء أكاليغولا كان اسمهم أم نيرون أم روبسبير أم بولانجه .

وبجانب هذه الزمر المخربة ذات الشأن الكبير فى الثورات نذكر فريق الأمة الذى لا يصبو الا الى الجد والعمل كما بينا ذلك سابقاً ، فهذا الفريق وان كان يستفيد أحياناً من الثورات لا يفكر فى القيام بها ، ولا يعلم رجال الثورة من أمره الا قليلا .

نعم ، قد يجعله الخوف مطيعاً فيقوده الزعماء بنفوذهم الى اقتراف المظالم ، ولكن مقومات الأمة الوراثية لم تلبث أن يثقل ميزانها فيضجر ذلك الفريق من الثورات فتدفعه روح الأمة الثابتة الى الوقوف أمام الفوضى عندما تستفحل باحثاً عن رئيس قادر على اعادة النظام .

وليس لهذا الفريق الهادىء مبادىء سياسية سامية أو غامضة ألبتة . فغايته أن يسود الحكم المطلق ، ولذا قام هذا الحكم بعد الفوضى على الدوام ، فقد عقب الحكم المطلق الثورة الأولى عندما هتف لنابليون ، وقد عقب الثورة الثانية عندما رفع الانتخاب العام لويس نابليون الى رآسة الجمهورية وأقره على استبداده بالحكم ثم جعله أمبراطوراً ثم استصوب نظامه سنة ١٨٧٠ أى قبيل الحرب الفرنسية البروسية .

وجب أن لا تغيب الحوادث التى أشرنا اليها فى هذا الفصل عن بالنا اذا أردنا الاطلاع على شأن الامة فى الثورات فللامة شأن كبير فيها ولكنه يختلف عما جاء فى الأقاصيص .

الباب الثانى
النفسية التى تسود الثورات

الفصل الأول
تقلبات الخلق أيام الثورات

---

١ ــ تحول الشخصية
٢ ــ عناصر الخلق السائد للثورات
٣ ــ الحقد
٤ ــ الخوف
٥ ــ الحرص والحسد والزهو
٦ ــ الحماسة

---

١ ــ تحول الشخصية

فصلت فى مؤلف آخر نظرية الأخلاق التى يستحيل بدونها إدراك تحول الانسان أيام الثورات ، واليك عناصرها الأساسية :

لكل امرىء ما عدا نفسيته الثابتة ، شؤون خلقية متقلبة تظهرها الحوادث .

وتتألف شخصية الانسان الخاصة من اجتماع شخصيات وراثية كثيرة تبقى متوازنة ما دامت البيئة ثابتة لا تتقلب ، فمتى تقلبت هذه البيئة كثيراً ، وذلك كما يقع أيام الفتن ، اختل هذا التوازن وتألف من تكتل العناصر المنحلة شخصيـــة جديدة ذات أفكار وعواطف ومناهج تختلف جداً عن الشخصية العادية ، ومن ذلك أن كثيراً من رجال

الصـــلاح والقضاء الذين كانوا موصوفين بالحلم انقلبوا أيام الهول الى أناس متعصبين سفاكين للدماء .

حقاً قد يصير المرء بتأثير البيئة الجديدة أمراً آخر ، وإن لاح لنا أحياناً أن القائمين بالأزمات الدينية والسياسية العظيمة من جوهر يختلف عن جوهرنا فهم بالحقيقة مثلنا ، ومن تكرار الحوادث نفسها يظهر الأشخاص أنفسهم .

وكيف تتألف شخصية جديدة عندما تنحل الشخصية العادية بفعل بعض الحوادث ؟ إنها تتألف بوسائل كثيرة أهمها حيازة معتقد قوى .

فبالمعتقد تألفت الشخصيات التى شوهدت فى الأزمات العظيمة كالحروب الصليبية ، والأصلاح الدينى والثورة الفرنسية ، وإننا لعدم تحول البيئة فى الأوقات العادية لانشاهد سوى شخصيات متماثلة فى الناس .

وقد تصبح هذه الشخصيات متناقضة متشاكسة ، ولكن ذلك يحدث قليلا فى الازمنة العادية ، ويكون بارزاً أيام الاضطرابات .

وليس الذكاء هو الذى يتغير عند تحول الشخصيات بل المشاعر التى يتألف الخلق منها.

٢ — عناصر الخلق السائد للثورات

نشاهد فى أيام الثورات أن المشاعر المزدجرة عادة تسير حرة عنـــد رفع الزواجر الاجتماعية ، ولا ترفع هذه الزواجر المستندة الى القوانين والتهذيب والتقاليد رفعاً كلياً ، بل يبقى بعضها على رغم الأنقلابات ، وينفع هذا البعض فى وقف ثوران المشاعر الخطرة.

وروح العنصر أقوى هذه الزواجر ، فهى تحدد تقلبات الأمة وتسيرها على رغم ظواهر الأمور ، فلو نظرنا الى ما قصه التاريخ لظهر لنا مثلا أن النفسية الفرنسية تبدلت كثيراً فى قرن واحد أى انتقلت فى سنوات قليلة من نظام الثورة الى النظام الامبراطورى فالى النظام الملكى فالى نظام الثورة فالى النظام الامبراطورى ، والواقع أن ظواهر الأمور وحدها هى التى تغيرت .

ولا نوضح حدود تقلب الأمة بأكثر مما فعلنـا ، وسنبحث الآن فى العنـاصر العاطفية التى يســاعد انتشارها أيام الثورات على تغيير شخصيات الأفراد والجماعات ، وسأذكر من هذه العناصر الحقد والخوف والحرص والحسد والزهو والحماسة ،فقد لوحظ تأثير هذه العناصر فى انقلابات التاريخ كلها ولا سيما فى الثورة الفرنسية الكبرى .

٣ — الحقد

حقد رجال الثورة الفرنسية على الناس والنظم وكل شىء هو أحد مظاهرهم العاطفية التى تبدو عند البحث فى نفسيتهم ، فلم يكتف هؤلاء الرجال بمقت أعدائهم بل مقتوا أيضاً أعضاء حزبهم الخاص ، قال أحد الكتاب حديثاً : « إذا نظرنا الى ما كانوا يصفون به بعضهم بعضاً لم نر فيهم سوى الخونة والكاذبين وبائعى الضمائر والقتلة والظالمين » ، وما كان مجهولا ذلك الحقد الذى غلى فى صدور الجيرونديين والدانتونيين والايبريين والروبسبيريين أيام كانوا يتطاردون ، فلم يهدأ هذا الحقد إلا بقتل كل امرىء من يخالفه .

وسبب ذلك هو أن هؤلاء الهائجين لما اعتقدوا أنهم على الحق صاروا كالمؤمنين فى كل زمن لا يطيقون مسامحة من لم يكن على مذهبهم ، فصاحب الايمان الدينى أو العاطفى يميل على الدوام الى حمل الناس على إيمانه وهو لا يتأخر عن القتل فى سبيله اذا استطاع ذلك

ولو كان العقل مصدر الأحقاد التى فرقت بين رجال الثورة الفرنسية لم تدم هذه الأحقاد طويلا ، ولكن صدورها عن خلق التدين والعاطفة جعل أصحابها عاجزين عن الصفح ، وبما أن مصدرها واحد عند الأحزاب كلها ظهرت بشدة واحدة عند الجميع ، ولقد أثبتت الوثائق الصحيحة أن الجيرونديين لم يكونوا أقل من حزب المونتانيار سفكا للدماء ، فكانوا أول من صرح مع بيسيون بأنه يجب على الأحزاب المغلوبة أن تبيد ، وقد بين مسيو اولار أنهم حاولوا تسويغ مذابح سبتمبر ، وعليه وجب أن لا تعد طريقة الهول من طرق الدفاع بل من طرق الابادة التى يتخذها المؤمنون الغالبون نحو أعدائهم المقهورين ، فالانسان وان تحمل ما يباين أفكاره لا يطيق معتقداً مخالفاً لمعتقده أبداً .

لا سلام للمغلوب فى المنازعات السياسية والدينية ، هذه سنة لم تتبدل منذ قطع سيللا رقاب مئتى عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ورقاب زهاء ستة آلاف رومانى حتى رجال الكومون الغالبين الذين قتلوا بالرصاص أكثر من عشرين ألف مغلوب ، ولا ريب فى أن هذه السنة ستجرى حكمها فى المستقبل كما فعلت فى الماضى .

ولم يكن اختلاف المعتقدات وحده سبب الأحقاد التى ظهرت أيام الثورة الفرنسية ، بل صدرت تلك الأحقاد أيضاً عن المشاعر الأخرى كالحسد والحرص والعجب ، ومما أوجبته هذه المشاعر مغالاة رجال الأحزاب المختلفة فى الحقد ، فما كان يقع بين الأشخاص من المزاحمة للقبض على زمام الأمور كان يسوق رؤساء الأحزاب الى المقصلة واحداً بعد الآخر.

ونرى أن من عناصر الروح اللاتينية الميل الى الانقسام وما ينشأ عنه من الأحقاد . فيه أضاع أجدادنا الغولويون استقلالهم ، وقد انتبه الىذلك يوليوس قيصر فقال : « ليس فى بلاد الغول مدينة غير منقسمة الى حزبين كما أنه ليس فيها كورة أو قرية أو دار خالية من روح التحزب ، وقلما تمضى سنة من غير أن تهاجم مدينة جاراتها بالسلاح . »

وبما أن الأنسان لم يدخل فى دور المعرفة الا منذ زمن قليل وكان مسيراً بالمشاعر والمعتقدات تجلى لنا شأن الحقد فى التاريخ . ولقد أشار أحد أساتذة المدرسة الحربية القائد كولان الى أهمية عاطفة الحقد فى بعض الحروب حيث قال : « لا داعى الى الشجاعة فى الحرب اكثر مما الى الحقد ، فهو الذى نصر بلوخر على نابليون ، واذا بحثنا عن احسن الحركات العسكرية واحزمها رأيناها قد صدرت عن البغض والنفور اكثر مما عن العدد ، وماذا كانت نتيجة حرب سنة ١٨٧٠ لولا الحقد الذى كان يحمله الألمان فى صدورهم ضدنا ؟ . »

ويمكن هذا المؤلف أن يقول أيضاً إن حقد اليابان الشديد على الروس الذين كانوا يزدرونهم هو احد الأسباب التى نصرت اولئك على هؤلاء ، وأما الروس فلما كانوا لا يعلمون غير شىء يسير عن اليابان لم يحملوا شيئاً من الضغينة نحوهم فزاد ذلك ضعفهم

نعم لاكت الأفواه كلمة الاخاء أيام الثورة الفرنسية ، ولا يزال الناس يرددونها ، وصارت كلمة السلم والأنسانية والتضامن قواعد للاحزاب ، ولكن شدة الأحقاد المستترة تحت هذه الكلمات والأخطار المحدقة بالمجتمع الحاضر ليست بالشىء الخفى .

٤ — الخوف

للخوف فى أيام الثورات شأن عظيم يقرب من شأن الحقد ، فرجال العهد الذين كانوا كثيرى الشجاعة أمام المقصلة كانوا شديدى الجبن أمام وعيد مثيرى الفتن الذين كانوا متسلطين على مجلس النواب . وسنرى ذلك عندما نلخص تاريخ مجالسنا الثورية .

حقاً شوهد الخوف بمظاهره كلها فى ذلك الزمن ، وكان الظهور بمظهر العاقل المعتدل أخوف ما يخافه الناس ، فقد سابق أعضاء المجالس وموظفو الاتهام وقضاة المحاكم خصومهم فى التطرف أى فى اقتراف الجرائم ولو أن معجزة أزالت الخوف من المجالس الثورية لكان لها سير آخر وكان للثورة الفرنسية وجهة أخرى

٥ — الحرص والحسد والزهو

تتبع هذه العناصر العاطفيـة فى الأوقات العادية مقتضيات الاجتماع فيكون الحرص محدوداً بحكم الضرورة فى مجتمع قائم على نظام المراتب . فاذا صار فيه جندى قائداً فذلك لا يقع الا بعد انقضاء زمن طويل ، وأما فى أيام الثورات ، فلما جاز لكل امرىء أن يصعد الى أعلى المراتب فان خلق الحرص يهيج عند الناس فيظن أحقرهم أنه أهل لها فيبلغ الزهو فيه غايته

وللحسد شأن عظيم فى الأدوار الثورية ، فكان حسد الناس للاشراف سبباً من أسباب الثورة الفرنسية ، ولما زادت الطبقة الوسطى فيها مالا وسطوة وكثر اختلاطها بالأشراف شعرت على رغم ذلك ببعدها منهم فأحست فى نفسها ألماً شديداً ، وهذه الحالة الروحية جعلتها تميل غير شاعرة الى المذاهب الفلسفية القائلة بالمساواة .

اذن كانت عزة النفس المجروحة والحسد سببين لما لم ندرك مغزاه اليوم من الأحقاد . فكان كثير من رجال العهد مثل كاريه ومارا وغيرهما يتذكرون ، والغضب آخذ منهم مأخذه ، أنهم تقلدوا وظائف ثانوية لدى الأمراء الاقطاعيين ، وما استطاعت مدام رولان أن تنسى أنها عندما دعيت فى الدور السابق مع والدتها للعشاء عند سيدة كبيرة تناولتاه مع خدم المائدة .

قال الفيلسوف ريفارول : « لم تكن الضرائب وأوامر الملك وتصرف السلطة السيء وجور الولاة وتقاعس القضاة أموراً أثارت وحدها ساكن الأمة بل ان الأمة أظهرت من الحقد على طبقة الأشراف مالم تظهره على شيء آخر . »

قال نابليون : « ان الزهو كان سبباً للثورة الفرنسية ، ولم يكن السعى الى الحرية سوى حجة باطلة . »

٦ — الحماسة

حماسة مؤسسى الثورة الفرنسية تعدل حماسة ناشرى دين محمد (صلعم) ، فقد كانت تلك الثورة ديانة اعتقد رجال الطبقة الوسطى فى المجلس الاشتراعى الأول أنهم أسسوها وقضوا بها على المجتمع القديم وأقاموا بها على أنقاضه حضارة أخرى . وما وجد خيال فاتن شغل قلب الانسان أكثر من ذلك الخيال ، فكان أولئك الرجال يقولون ان مبدأ

الاخاء ومبدأ المساواة اللذين أعلنوهما يمنحان الأمم سعادة أبدية وانه لما قطعت العلائق بالماضى المظلم المتوحش أصبح المجتمع الجديد سائراً على نور العقل المطلق .

واذا قام العنف حالا مقام هذه الحماسة فذلك لأن انتباه الناس كان سريعاً ، ويسهل علينا ادراك السر فى أن رسل الثورة الفرنسية وقفوا أشداء غاضبين فى وجه العوائق اليومية المانعة من تحقيق أحلامهم ، فهم لما أرادوا نبذ الماضى ونسيان التقاليد وتجديد البشر وكان الماضى يظهر من غير انقطاع والبشر يأبى أن يتغير اضطروا الى التوقف عن سيرهم غير مريدين الخضوع ، فأخذوا يرغمون الناس على الانقياد لأوامرهم بضغط أعادوا به فى النهاية النظام السابق المقضى عليه والذى لم يلبث أن أسف الناس عليه .

ومما يستحق الذكر أن حماسة الأيام الأولى التى لم تدم كثيراً فى المجالس الثورية بقيت فى الجيوش فكانت سر قوتها ، فجيوش الثورة الفرنسية التى كانت تميل الى الجمهورية قبل أن تصبح فرنسة جمهورية استمرت على نزعتها زمناً طويلا بعد أن صارت فرنسة غير جمهورية .

تتبع تقلبات الخلق التى بحثنا فيها آنفاً بعض الأمانى وتحولات البيئة ، وهى ترد الى أربع نفسيات : النفسية اليعقوبية ، والنفسية الدينية ، والنفسية الثورية ، والنفسية المجرمة .

الفصل الثانى
النفسية الدينية والنفسية اليعقوبية

١ — تقسيم النفسيات التى تسود الثورة .
٢ — النفسية الدينية .
٣ — النفسية اليعقوبية .

١ — تقسيم النفسيات التى تسود الثورة .

تؤدى التقسيمات ، التى يستحيل البحث العلمى بغيرها ، الى قطع ما هو متصل ، ولا مفر من ذلك ، فالمتصل لا يدرك إلا بعد تحويله إلى أجزاء .

ولم يكن التفريق بين مختلف النفسيات التى تسود الثورة سوى فصل عناصر متداخلة ويقتضى ترك قليل من الضبط والصحة لنيل ما يقابل ذلك من الوضوح ، فالعناصر الأساسية التى أشرنا اليها فى آخر الفصل السابق لا يمكن تفصيلها عند البحث فيها مشتبكة الأجزاء .

بينا أن الانسان تسيره أنواع المنطق الكثيرة المتقاربة التى لا يؤثر بعضها فى بعض فى الأوقات العادية ، وتتنازع هذه الأنواع بتأثير الحوادث ، فيبدو الفرق بينها للعيان فيؤدى ذلك الى اضطرابات فردية وانقلابات اجتماعية عظيمة .

٢ — النفسية الدينية

توصف روح التدين باسنادها قدرة عظيمة الى قوى علوية تتمثل على شكل أصنام وأنصاب والفاظ وصيغ ، والروح المذكورة هى أساس المعتقدات الدينية كلها وكثير من المعتقدات السياسية .

والمنطق الدينى مشبع بالمشاعر وسائر العواطف ، والفتن الشعبية الكبيرة تنال قوتها

منه ، وإذا كان الناس لا يبذلون من حياتهم فى سبيل المعقولات الا شيئاً قليـــلا فانهم يبذلونها كلها طوعاً فى سبيل خيال دينى يعبدونه

لم تلبث مبادىء الثورة الفرنسوية أن القت فى قلوب الناس حمية دينية كالتى القتها المعتقدات الدينية السابقة ، ولم تفعل بذلك غير تحويلهـا وجهة النفس الموروثة المتكاثفة مع الزمن .

إذن لا نعجب من حمية رجال العهد الشديدة ، وهم يشبهون بنفسيتهم الدينية البروتستان فى دور الاصلاح الدينى ، وقد كان أبطال دور الهول كروبسبير وكوتون وسان جوست وغيرهم رسلا يشبهون بوليوكت الذى ظن أنه بهدمه تماثيل الآلهة الباطلة فى سبيل ايمـانه يجعل العالم نصرانياً ، فلما اعتقدوا أن صيغهم السحرية تكفى لدك العروش لم يترددوا فى شهر الحرب على الملوك ، وقد غلبوا أوربة بفضــــل ايمانهم القوى الذى يغلب الايمان الضعيف .

وكان تدين زعماء الثورة الفرنسية يظهر فى أدق أعمالهم ، فقد قال روبسبير فى إحدى خطبه ، وهو يعتقد أنه محفوف بعون الله . « إنـــ الله تعالى أمر بالحكم الجمهورى منذ البداءة » ، وجعل ، وهو الحبر الاعظم لدين الحكومة ، مجلس العهد يضع مرسوماً جاء فيه : « أن الأمة الفرنســـية تؤمن بالله تعالى وبخلود النفس » . والقى ، وهو جالس على العرش ، يوم عيد الرب موعظة طويلة .

واعتقد مكسيمليان « وجود إله قادر عظيم يحافظ على البرىء المظلوم ويعاقب المجرم الظافر » ، وكان الخوارج الذين كانوا يطعنون فى المذهب اليعقوبى يرسلون الى المحكمة الثورية التى كان لا يخرج منها المتهم إلا إلى المقصلة .

ولم تمت النفسية الدينية بموت روبسبير الذى هو عنوانها . فبين رجال السياسة نرى أناساً ذوى نفسية تشبه نفسيته. فهؤلاء وان لم يكن للمعتقدات الدينية القديمة سلطان عليهم، يخضعون لتعاليم سياسية لا يتأخرون ساعة عند المقدرة عن حمـل الناس عليها . فطريقة الارشاد فى كل جيل عند المتدينين الذين يضحون بأنفسهم فى سبيل نشر معتقدهم واحدة حينما يصيرون سادة .

اذن من الطبيعى أنـــ يكثر عدد المعجبين بروبسبير والناسجين على منواله وهو وان

قطع رأسه بالمقصلة لم تقطع مداركه ،ولا تزول المدارك التىنشأت مع الانسان الا بزوال آخر المعتقدين .

لم ينتبه أكثر المؤرخين الى وجه الثورات الدينى ، وسوف يستمرون على عزوهم كثيراً من الحوادث الى المنطق العقلى البعيـــدة منه . وقد ذكرت فى فصل سابق عبارة لمسيو لافيس ولمسيو رامبو قالا فيها ان « ثورة الاصلاح الدينى ، نتيجة تأملات فردية أورثها قلوب البسطاء عقل مقدام »

فلا يمكن ادراك هذه الثورات اذا ظن أن مصدرها العقل . فللمعتقدات التى أقامت العالم وأقعدته ، سواء أدينية كانت أم سياسية ، مصـــدر واحد ، وكلها سارت على سنة واحدة أى انهـا لم تتم بالعقل ، وكثيراً ما تمت خلافاً لـكل عقـل . نعم يظهر ان البوذية والنصرانية والاسلام والاصـــلاح الدينى والسحر واليعقوبية والاشتراكية والمذهب الروحانى معتقـدات متباينة ، ولـكننى أقول مؤكداً ان لهـا دعائم عاطفية ودينية واحدة ، وتتبع منطقاً لا علاقة بينه و بين المنطق العقلى ، وقوتها ناشئة عما للعقل من التأثير الضئيل فى تكوينها وتحويلها .

ولقد فصلت نفسية رسلنا السياسيين الدينية فى الوقت الحاضر فى مقالة نشرت فىاحدى الجرائد الـكبيرة. جاء فىهذه المقالة التى تمس أحد وزرائنا السابقين : «يسألون عن الفرقة التى ينتسب اليها مسيو فلان ، هل هو من فرقة الملحدين ؟ فياللسخرية !. . . نسمع ، مع عدم اختياره أى ايمان وضـعى ولعنه رومة وجنيف أنه يجحد العقائد التقليدية ويكفر بالـكنائس المعروفة ، فهو ان جعل الصفيحة هكذا ملساء فذلك ليقيم عليها كنيسته الخاصة التى هى ذات بدع أكثر من كل كنيســة ، ولن تقل محكمته التفتيشية فى شـدة تعصبها وعدم تسامحها عن أشهر محاكم توركمادة .

« صرح بأنه لا يرضى عن حرية التعليم وبأنه يطلب أن يكون التعليم زمنياً من كل وجه . وان لم يقـــل بالاحراق فذلك لاضطراره الى مداراة نشوء العادات والطبائع. ولعجزه عن قتل الناس يسـتعين بالقوة الزمنية للحكم على المذاهب كلهـا بالموت . وقد بلغت حرية الفكرفيه مبلغا جعله يقول ان كل فلسفة لا يرضى عنها مجرمة أثيمة موجبة للهزء والسـخرية . وهو يزعم أنه اطلع على الحقيقة المطلقة وأوجب اعتقاده هذا أن يعتبر كل من يخالفه غولا شنيعاً وعدواً فظيعاً . فمسيو فلان ، كما يظهر ، من

أشياع آلهة العقل التى تشبه الاله مولوخ الظالم فى تعطشها الى القرابين البشرية .

« ألا ان الأمانى خلابة ، وكم من أصنام حطمت منذ بضعة قرون تمهيداً للسجود أمام صنم حديث . »

ولما كان سلطان العقل على المعتقدات الدينية قليلا أصبح من اللغو أن نجادل ، كما يفعل البعض ، فيما للمبادىء الثورية والسياسية من القيمة العقلية ، وتاثيرها وحده هو الذى يهمنا ، سواء علينا أكذبت التجربة نظرية المساواة ونظرية الصلاح الفطرى ونظرية تجديد المجتمع بالقوانين أم لم تكذبها .

٣ — النفسية اليعقوبية

اصطلحت على تعبير « النفسية اليعقوبية » ، مع أنه لم يسبقنى احد اليه فى أى تقسيم ، لدلالته على نوع نفسى خاص .

فقد سادت هذه النفسية رجال الثورة الفرنسية ، ولا تزال مؤثرة فى سياستنا الحاضرة .

زعم اليعاقبة أنهم عاطلون من خلق التدين وأن العقل يسيرهم ، وقد كانوا يستشهدون بالعقل أيام الثورة الفرنسية و يتخذونه هادياً مرشداً .

وقد رأى أكثر المؤرخين أن الروح اليعقوبية تنزع الى المعقول ، وذهب تاين الى هذا الرأى الفاسد فعزا كثيراً من أعمال اليعاقبة الى مغالاتهم فى المعقولات ، غير أنه جاء فى بحثه عنهم بعض الحقائق التى تستحق النظر ، فاليك بعضها :

« لم تكن عزة النفس والعقل النظرى بالشيء النادر عند البشر ، ففي أى بلد نراهما ، وهما مصدر الروح اليعقوبية ، لا يفنيان ، ومتى يبلغ عمر المرء عشرين سنة فيدخل فى معترك الحياة يستحوذ الغم على عقله و زهوه فيعتبر المجتمع الذى نبت فيه حاجزاً يحول دون تقدم عقله النظرى . والمجتمع قد أوجدته الأجيال المتعاقبة حسب احتياجاتها الكثيرة المتحولة أى انه لم يكن من صنع المنطق بل من صنع التاريخ كما هو معلوم . ثم يهز ذلك المبتدىء كتفيه هازئاً بهذا البناء الاجتماعى الهرم الذى لم يقم على نظام والذى يبدو عليه الرتق والترقيع .

« انظروا الى أحسن ما أنتجته قرائح أولئك الرجال ، أى الى خطب روبسبير وسان جوست والى مناقشات المجلس الاشتراعى الأول ومجلس العهد والى أقوال الجيرونديين

والمونتانيار والى مناشيرهم وتقاريرهم تروا أنهم أتوا فيها باكثر الكلام للتعبير عما يتطلب أقله وأن تعقلهم كان يغرق فى بحر طام من الالفاظ المفخمة ، فاليعقوبى يسير وراء مايدور فى دماغه المتعقل من الأوهام والخيالات التى هى عنده أكثر من غيرها ولا يعبأ الا بما توحيه اليه فيصرخ بين الناس كما يهتف فى موكب النصر . »

وانى وان كنت أعجب لبيان تاين لا أعتقد أنه فهم نفسية اليعقوبى تماماً .

فروح اليعقوبى الحقيقى ، سواء أفى أيام الثورة الفرنسية أم فى أيامنا ، تتألف من عناصر يجب تحليلها لادراك شأنها .

يدلنا هذا التحليل على أن اليعقوبى معتقد غير متعقل وأنه لا يؤسس معتقده على العقل بل يسكب العقل فى قالب معتقده وأن خطبه وان كانت مشبعة من العقليات لا يسير عليها الا قليلا ، ولو كان اليعقوبى يتعقل بنسبة ما يلام عليه من التعقل لأجاب نداء العقل فى بعض الأحيان ، وقد دلتنا المشاهدة منذ عهد الثورة الفرنسية على أن العقل مهما يكن سديداً لم يؤثر فيه قط ، وهذا هو سر منعته ، والسبب فى عدم تأثير العقل فيه هو أن ما فيه من قصر النظر لا يسمح له بمقاومة اندفاعاته العاطفية المسيرة له .

ولا تتألف النفسية اليعقوبية من هذين العنصرين أى العقل الضعيف والعواطف القوية وحدهما ، بل تتألف من عنصر آخر أيضاً ، فاليعقوبى الحقيقى ذو معتقد راسخ ، والعاطفة تدعم المعتقد ولا تنشئه ، فما هو ركن هذا المعتقد ؟ هنا يبدو لنا عنصر التدين الذى بحثنا فيه سابقاً ، فاليعقوبى متدين أقام مقام آلهته القديمة آلهة جديدة ، أى انه لما كان للالفاظ والصيغ سلطان قوى على نفسه فانه يعزو اليها قوة إلهية ولا يتأخر فى سبيل خدمة هذه الآلهة الكثيرة الطلب عن اقتراف أقسى الأعمال ، والدليل على ذلك ما سنه اليعاقبة فى الوقت الحاضر من القوانين .

وتظهر النفسية اليعقوبية عند ذوى الخلق الضيق الحس على الخصوص ، وتتضمن تلك النفسية فكراً قاصراً عنيداً لا يؤثر فيه النقد ، وما تغلب على الروح اليعقوبية من التدين والعاطفة يجعل اليعقوبى كثير السذاجة . وهو لعدم إدراكه من الأمور غير علاقاتها الظاهرة يظن أن ما يساوره من الصور الوهمية حقائق ويفوته ارتباط الحوادث فلا يتحول عن خياله أبداً .

إذن لا يقترف اليعقوبى الآثام لرقىّ منطقه العقلى ، وإنما لضعف عقله يسير معتقداً

مندفعا ، الى حيث يتردد الرجل ذو المدارك السامية فيقف ، وهو ، كسائر المعتقدين ، عاجز عن الخروج من دائرة المعتقد .

ويشبه اليعقوبى بصفتـه اللاهوتية المكافحة المناجزة أنصار كالفن الذين قلنا فى فصـل سابق إنهم لم يثنهم شيء عن إيمانهم الذى نوَّمهم وإنهم رأوا كل من يخالفهم فى معتقدهم جديراً بالموت ، فقد كان اولئك الأنصار المتعقلون كاليعاقبة جاهلين ما يسيرهم من القوى الخفية ظانين أن العقل رائدهم مع أن الذى قادهم هو خلق التدين وعنصر الحماسة .

يتعذر علينا اكتناه اليعقوبى بقولنا انه متعقل ولا ينفعنا ذلك إلا فى القنوط من العقل ، وأما إذا قلنا إنه حمس متدين تيسرت لنا معرفة أمره .

وهذه الأمور الثـلاثة ، أى العقل الضعيف والحماسة الشـديدة والتدين القوى ، هى عناصر الروح اليعقوبية

الفصل الثالث
النفسية الثورية والنفسية المجرمة

١ — النفسية الثورية
٢ — النفسية المجرمة

١ — النفسية الثورية

قلنا إن عنصر التدين هو من عناصر الروح اليعقوبية ، وهذا العنصر من مقومات نفسية أخرى أى النفسية الثورية .

تشتمل المجتمعات فى كل زمن على عدد من النفوس المضطربة المتقلبة الساخطة المتأهبة للتمرد الراغبة فى الفتنة للفتنة نفسها ، ولو أن قوة سحرية حققت آمالها بلا قيد ولا شرط ماعدلت عن التمرد .

وتنشأ هذه النفسية فى الغالب عن عدم الامتزاج بالبيئة أو عن الغلو فى التدين أو المرض.

وللتمرد درجات مختلفة تبدأ من الاستياء الطفيف الذى ينحصر فى كلام المرء عن الناس والأشياء وتنتهى الى التخريب ، وقد يصوب المرء صولته الثورية أحياناً نحو نفسه عند عجزه عن التصرف بها على طريقة أخرى ، فلقد كثر فى روسية عدد المجانين الذين لم يكتفوا بالحرق والقاء القنابل فتحولوا الى البخع والانتحار

ويسهل إغواء هؤلاء العصاة الذين أضلت بعض الوساوس نفوسهم الدينية ، فهم على رغم العزيمة الظاهرة التى تدل عليها أعمالهم ضعفاء عاجزون عن مقاومة أقل المحرضات ، والقوانين والبيئة تردعهم فى الأوقات العادية فيظلون غير مؤثرين . ولكن متى بدت أدوار الفتن تضعف هذه الزواجر فيطلقون عنان غرائزهم غير مبالين بالغاية التى نشبت الثورة من أجلها .

وقد تكون الروح الثورية غير خطرة ، فهى إذا صدرت عن العقل بدلا من العاطفة أو التدين أصبحت عامل تقدم وارتقاء . فعندما يصير حكم التقاليد والعادة ثقيلا على الحضارة تتخلص منه بفضل أناس من ذوى العقول المستقلة الثورية كغليله ولافوازيه وداروين وباستور الذين أعانوا على تقدم العلوم والفنون والصناعة فى العالم .

ويجب أن يكون فى كل أمة عدد من هؤلاء الأعاظم الذين لولاهم لظل الانسان عائشاً فى الكهوف . وتتطلب الجرأة الثورية التى تظهر ما عند صاحبها من الاكتشافات استقلالا ذهنياً يتخلص به من الافكار الجارية بين الناس وحصافة يدرك بها ما تحت المتشابهات السطحية من الحقائق .

٢ — النفسية المجرمة

قدر على المجتمعات المتمدنة كلها أن تشتمل على جماعة من المنحطين وشذاذ الآفاق والمذنبين والأشرار واللصوص والقتلة الذين يتألف منهم فريق المدن الكبيرة المجرم ، والوازعون لهم ايام السلم انما هم الشرطيون أى رجال البوليس ، ولكن لا رادع لهم أيام الثورات ، فيسهل عليهم فيها أن يقتلوا ويسلبوا ،ومنهم يجمع رجال الثورة جنودهم ، وهم، لعدم طمعهم فى غير القتل والنهب ، لا يبالون بالغاية التى يدافعون عنها ولا يتأخرون ساعة عن الانضمام الى الحزب المتقهقر حينما يكون حظهم من القتل والسلب عنده اكثر.

ويضاف الى هؤلاء المجرمين الذين هم داء المجتمعات العضال الفريق الذى يأتى المنكر وقتما يستحوذ عليه الخوف من النظام السائد والذى لا يلبث أن ينضم الى زمر العصاة حينما يعترى هذا النظام وهن . ويتألف من هذين الفريقين جحفل مخل بالنظام ، وعليه يعتمد الثوريون والقائمون بالفتن الدينية والسياسية .

قلنا فى فصل آخر إن هذه الفئة المجرمة كانت عظيمة النفوذ أيام الثورة الفرنسية . وقد قص علينا بعض المؤرخين ، وهم خاشعون ، خبر الأوامر التى كانت تحملها الى مجلس العهد وهى مسلحة بحراب على رؤوسها هامات مقطوعة . ولو بحثنا عن العناصر التى كانت تتألف منها هذه الفئة التى ادعت أنها وكيلة الشعب لرأينا أن أكثريتها من اللصوص والأشرار وأن أقليتها من ذوى النفوس الساذجة الذين يسيرون حسبما يحرضهم الزعماء . والى اولئك اللصوص والاشرار تعزى المذابح الكثيرة كمذابح شهر سبتمبر وقتل الأميرة لامبال.

حقاً إنها أرهبت جميع المجالس التى قامت منذ المجلس التأسيسى حتى مجلس العهد وعاثت فى فرنسة مدة عشر سنين . ولو أن معجزة قضت عليها لكان سير الثورة الفرنسيه غيرما وقع ، فلقد ضرجتها بالدماء منذ فجرها حتى غروبها وليس للعقل سلطان عليها وهى للعقل من القاهرين .

الفصل الرابع
روح الجماعات الثورية

١ ـ صفات الجماعات العامة

لا تأتى الثورات ، مهما يكن مصدرها ، بشتى النتائج إلا بعد دخولها فى نفوس الجماعات وهى لهذا السبب تعتبر نتيجة روح الجماعات .

ومع أنى بحثت مطولا فى كتاب آخر عن روح الجماعات فان الضرورة تقضى علىّ بأن أذكر هنا سننها الاساسية ، وعلى ذلك أقول :

إن المرء وهو جزؤ من الجماعة يختلف جداً عنه وهو منفرد ، فشخصيته الشاعرة تفنى فى شخصية الجماعة غير الشاعرة . وليس من الضرورى أن يتصل المرء بالجماعة اتصالا مادياً ليكتسب نفسية الجماعة ، بل يكفى فى الغالب لتكوين هذه النفسية ما ينشأ عن بعض الحوادث من الانفعالات والمشاعر العامة .

ولروح الجماعة التى تظهر وقتياً مزاج خاص يتصف بتغلب اللاشعور الخاضع لأحكام منطق خاص يسمى منطق الجماعات

ونعد من الأوصاف الأخرى للجماعات غلوها فى سرعة التصديق وسرعة الانفعال وعدم التبصر وعجزها عن التأثر بالمعقول ، فلا يمكن اقناعها إلا بالتوكيد والعدوى والتكرار والنفوذ ، وليس للحقائق والتجارب تأثير فيها ويمكن حملها على تصديق كل شئ لعدم وجود ما هو مستحيل عندها .

وما تتصف به الجماعات من سرعة التأثر والانفعال يجعلها مفرطة فى مشاعرها التى تكون إما ضارة و إما نافعة . و يعظم هذا الأفراط فى أيام الثورة . فأقل تحريض يدفع الجماعات وقتئذ الى القيام باقسى الأعمال و يزيد فى الثورات أيضاً ما تتصف به الجماعات فى الأحوال العادية من سرعة التصديق فتعتقد صحة مالا يمكن تصديقه من الأقاصيص . ذكر أرثور يانع أن الشعب قبض ، عندما كان يزور أيام الثورة الفرنسية المنابع القريبة من كلرمون ، على دليله لاعتقاده أنه جاء لينسف المدينة كما أمرته الملكة ، ثم أخذ الناس بعد ذلك يتناقلون أشنع الأحاديث عن بيت الملك عادين إياه من الغيلان والعفاريت .

والانسان وهو جزء من الجماعة يهبط كثيراً من سلم الحضارة فتصدر عنه عيوب الشراسة ومزاياها اى أنواع الظلم والاستبداد وأنواع الحماسة والبطولة . فالجماعة وإن كانت من الجهة العقلية ادنى من الرجل المنفرد قد تكون اسمى منه شعوراً وخلقاً ، ويسهل عليها أن تقترف إثماً كما يسهل عليها أن تضحى بنفسها .

وتتلاشى الأخلاق الشخصية فى الجماعات لما لها من التأثير فى أفرادها فيصبح فيها البخيل متلافاً والملحد معتقداً والصالح مجرماً والنذل بطلا ، وما اكثر أمثلة هذه التحولات أيام الثورة الفرنسية .

فالانسان يبدى، وهو مجتمع، سواء أمن المحلفين كان أم من أعضاء البرلمان، ما لا يخطر بباله وهو منفرد من حكم فى قضية أو رأى فى قانون .

ومن أهم النتائج التى تنشأ عن تأثير الجماعة فى أفرادها توحيد مشاعرهم وعزائمهم . ومن هذه الوحدة النفسية تكتسب الجماعات قوة عظيمة . والباعث على تكوين هذه الوحدة النفسية هو انتشار المشاعر والحركات والأعمال بين الجماعة بالعدوى على الخصوص

وكيف تحدث تلك الارادة والمشاعر المشتركة ؟ إنها تحدث بالعدوى، ولكن تكوين هذه العدوى يتطلب مصدراً ، وهذا المصدر هو الزعيم الذى سنتكلم قريباً عن تأثيره فى الحركات الثورية . فالجماعة بلا زعيم تعجز عن السير والحركة .

ويجب الاطلاع على سنن روح الجماعات لتفسير حوادث الثورة الفرنسية وادراك سير المجالس الثورية وتطور أعضائها ، فلما كانت القوى اللاشعورية هى الدافعة لهؤلاء الأعضاء كانوا يقولون و يفعلون فى الغالب خلاف ما كانوا يريدون .

ومع أن فريقاً من أقطاب السياسة أدرك سنن روح الجماعات نرى أكثر الحكومات

قد جهل أمرها ، ولا يزال يجهله . وقد سهل هذا الجهل سقوط اكثر الحكومات ، وتتضح الأخطار الناشئة عن جهل روح الجماعات عند الاطلاع على السهولة التى أسقطت بها فتنة صغيرة بعض أولياء الأمور ولا سيما لويس فيليب ، فقد جهل القائد الذى كان يقود سنة ١٨٤٨ جنوداً كافية للدفاع عن ذلك الملك أن اختلاط الجماعة بالجند يؤدى بالتلقين والعدوى الى شلل هؤلاء وعدم قيامهم بواجباتهم فنشأ عن هذا الجهل خلع مليكه

٢ — كيف تحدد روح العرق تقلبات الجماعات

يمكن تشبيه الشعب بالجماعة ، لانه يتصف ببعض صفاتها ، الا أن روح العرق الذى ينتمى اليه الشعب يحدد تقلبات هذه الصفات ، ففى روح العرق ثبات لاعهد لروح الجماعة المتقلبة بمثله .

ومتى حصلت للشعب روح وراثية مستقرة مع الزمن تتغلب هذه الروح على روح الجماعة .

ويظهر الشعب أحياناً كالجماعة بمظهر المتقلب . ولكن لنعلم أن وراء تقلبه وحماسته ومظالمه وهدمه غرائز ثابتة متأصلة تدعمها روح العرق ، وقد أثبت تاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ القرن الذى بعدها كيف تتغلب الروح الثابتة على روح التخريب فى نهاية الأمر وما اكثر المرات التى جدد فيها الشعب حالا بناء ما هدمه من الأنظمة .

ولا يسهل التأثير فى روح الشعب كما يسهل فى روح الجماعات ، فوسائل التأثير فى روح الشعب تسير معوجة بطيئة كالجرائد والمحاضرات والخطب والكتب ، ويمكن ردها الى العناصر التى وصفناها سابقاً وهى : التوكيد والتكرار والنفوذ والعدوى .

قد تنال العدوى النفسية شعباً بأسره فجأة ، ولكنها لا تسرى فى الغالب من فريق الى آخر الا بالتدريج ، فهكذا انتشر الاصلاح الدينى فى فرنسة ، والشعب وان كان يهيج أقل من الجماعة فقد تثيره بغتة بعض الحوادث كشتمه وتهديده بالغزو ، وقد شوهد ذلك غير مرة أيام الثورة الفرنسية ولا سيما حين توعد دوك دو برونسو يك الأمة الفرنسية جاهلا نفسيتها ، فهذا الدوك لم يضر بذلك لويس السادس عشر وحده بل أضر نفسه . اذ اوجب سوق جيش لمقاتلته .

ويشاهد انفجار المشاعر فجأة فى الأمم كلها ، ولم يدرك نابليون قوة هذه المشاعر وقتما اغار على اسبانية وروسية ، فالفلاح الروسى الذى كان خشناً سخيفاً تحولت صفاته حينما

شعر بغارة نابليون ، و يمكن استجلاء ذلك من العبارة الآتية التي نقتطفها من رسالة اليزابت زوجة القيصر اسكندر الأول والدتها :

« لقد اشتعلت قلوب الروس حينما جاوز نابليون حدودنا ، وكان ذلك الشعور ينمو كلما أوغل نابليون في البلاد . وصار الشيوخ الذين أضاعوا أموالهم يقولون : سنجده ما نسد به خلتنا وكل شيء أفضل عندنا من صلح مخز ، وأصبحت النساء اللواتي لهن أزواج في الجيش لا ينظرن الى ما يحيق بهم من الأخطار ولا يخشين الا الصلح الذي هو قضاء على روسية بالموت ، وكل ذلك لم يخطر ببال القيصر ، ولو أراده القيصر لم يقدر عليه . »

وقد قصت الامبراطورة اليزابت المذكورة على والدتها الأمرين الآتيين اللذين يستدل بهما على درجة ما في نفوس الروس من المقاومة . قالت اليزابت :

« استخدم الفرنسيون في موسكو بعض الفلاحين في جيشهم ووسموهم في أيديهم كما توسم الخيل لكيلا يفروا ، وقد سأل أحدهم عن هذه السمة فقيل له انها تدل على أنه جندي فرنسي فصرخ قائلا : يا عجباً أأكون من جنود امبراطور فرنسة . ثم أخذ فأساً وقطع بها يده ورماها على أرجل الحضور قائلا : خذوا سمتكم هذه .

« وقبض الفرنسيون في موسكو على عشرين فلاحاً لخطفهم بعض الفرنسيين ، فصفوهم وقرأوا عليهم حكم القتل باللغة الروسية ، وكان الفرنسيون ينتظرون أن يطلبوا العفو ، ولكنهم بدلا من ذلك طلبوا اليهم أن يمهلوهم ليصلبوا ، ثم قتلوا الأول بالرصاص منتظرين أن يخاف الآخرون فيسألوا العفو ويعدوا بتحسين سلوكهم ، ثم قتلوا الثاني والثالث ومن بقي من العشرين بالرصاص من غير أن يستمطر واحد منهم رحمة العدو »

وتكون الروح الشعبية مشبعة من خلق التدين ، فالشعب يعتقد وجود كائنات علوية ، كالآلهة والحكومات وأعاظم الرجال ، قادرة على تحويل الأمور كما تريد ، ويورث هذا الخلق عند الشعب ميلا شديداً الى العبادة فيحتاج الى معبود سواء أرجلا كان أم مذهباً ، وعندما تخيفه الفوضى يتطلب مسيحاً منقذاً .

والشعوب تنتقل كالجماعات من العبادة الى الحقد ، إلا أن انتقالها هذا يقع بالتدريج في الغالب ، فقد تلعن اليوم من عبدته امس ، ويشاهد هذا الانتقال في مختلف البلدان ، كما دلّ على ذلك تاريخ كرومويل الذي أسقط أسرة مالكة ورفض تاج الملك ، فكرومويل الذي دفن كما يدفن الملوك لم يمض على موته سنتان حتى انتزع جسده من قبره وقطع الجلاد رأسه معلقاً إياه على باب البرلمان .

٣ — شأن الزعماء فى الحركات الثورية .

ذكرنا أن الجماعات والمجالس والامم والاندية تعجز عن السير حينما تكون عاطلة من سيد يقودها ، وبينت فى كتاب آخر ، مستعيناً بعلم وظائف الأعضاء ، أن روح الجماعة اللاشاعرة ترتبط بروح زعيمها ، فهو الذى يمنحها إرادة واحدة و يلزمها الطاعة المطلقة.

يؤثر الزعيم فى الجماعة بالتلقين على الخصوص ، ويتوقف نجاحه على طريقة تلقينه ، وقد أثبتت التجارب الكثيرة أن تلقين الجماعة سهل جداً .

والجماعة تكون بحسب أنواع التلقين ، هادئة أو هائجة أو مجرمة أو باسلة مغامرة وهذه الأحوال وإن جاز أن تكون ذات مظهر عقلى ليس فيها من العقل سوى الظاهر ، فالمشاعر والخيالات هى التى تؤثر فى الجماعة ، ولا تتأثر الجماعة بالمعقول أبداً .

ويدلنا تاريخ الثورة الفرنسية على سهولة اتباع الجماعات ما يأتى به الزعماء من التحريض المتناقض ، فهى قد هتفت لفوز الجيرونديين والايبريين والدانتونيين ورجال الهول كما هتفت لسقوطهم .

والزعماء لسيرهم سراً لا يلاحظ شأنهم بعد تقادم العهد إلا بصورة مبهمة ، فيجب لاستجلاء هذا الشأن أن يبحث عنه فى الحوادث الحديثة التى تثبت سهولة تحريك الزعماء للناس ، ولا نشير هنا الى اعتصابات موظفي البريد والمعدنين التى قد يقال إن سببها هو استياؤهم ، بل نشير الى الحوادث التى لا منفعة للجماعة فيها ، كالهرج الذى أوجبه بعض زعماء الاشتراكية فى باريس يوم أعدم فى أسبانية الفوضوى فيرير الذى لم يسمع الناس شيئاً عنه فى فرنسة ، فقد كفى تحريض بعض الزعماء فى باريس لسوق جيش شعبى الى السفارة الأسبانية بقصد حرقها ، ولما دفع المهاجمون عنها اقتصروا على تخريب بعض المخازن لانشاء بضعة متاريس .

وقد أتى الزعماء فى ذلك الحين دليلا آخر على تأثيرهم ، فلما أحسوا أن حرق سفارة أجنبية أمر خطر أشاروا على الجماعة فى يوم آخر باقامة مظاهرة سلمية فاطاعتهم كما فعلت وقتما أمروها بالتمرد ، ولا شىء أحسن من هذا المثال لاثبات شأن الزعماء وإطاعة الجماعات .

الفصل الخامس
روح المجالس الثورية

١ ـ صفات المجالس الثورية الكبرى

المجلس السياسى الكبير ، كالبرلمان ، جماعة ، ويكون فعل هذه الجماعة قليلا حينما تتناقض مشاعر أحزابها ، وقد تعتبر هذه الأحزاب ذات المنافع المختلفة مجلساً ذا جماعات متباينة خاضعة لزعمائها ، وحينئذ لا يتجلى ناموس الوحدة النفسية للجماعات إلا فى كل حزب على حدته ، والأحوال الاستثنائية وحدها هى التى تجمع بين عزائم تلك الاحزاب

ولكل من أحزاب المجلس كيان يفنى فيه رجاله ، فيستصوبون فى المجلس مالا يعتقدونه وما لا يريدونه . فقد أبدى فرنيو استياءه من اقتراح الحكم بالموت على لويس السادس عشر ولكنه استحسن ذلك الاقتراح فى اليوم التالى .

ويستطيع ذوو النفوذ من الزعماء أن يؤثروا أحياناً فى أحزاب المجلس كلها فيؤلفوا منها جماعة واحدة ، ومن ذلك تأثير عدد قليل من الزعماء فى أعضاء مجلس العهد وجعلهم يأتون أعمالا تناقض آراءهم .

أذعنت الجماعات فى كل زمن للزعماء الأشداء فاثبت لنا تاريخ المجالس الثورية مقدار خوف هذه المجالس من زعماء الفتن مع سلقها الملوك بألسنة حداد ، فكانت تستحسن فى جلسة واحدة اكثر الأمور مناقضة للمعقول خشية من الزعماء الجبارين .

وعندما يكسب المجلس صفات الجماعة يصبح مثلها ذا مشاعر متطرفة أى انه قد يصير

مسرفاً فى قوته كما انه قد يصير مسرفاً فى جبنه،ويكون عاتياً أمام الضعفاء ذليلا أمام الأقوياء

فالكل يعلم درجة الخوف الذى استحوذ على البرلمان وقتما دخل عليه الشاب لويس الرابع عشر والسوط بيده ، ليلقى خطبته ، والكل يعلم درجة الوقاحة التى أتاها المجلس التأسيسى ازاء لويس السادس عشر حينما كان هذا الملك يشعر بضعفه ، وليس ذعر مجلس العهد من روبسبير بأمر مجهول .

صفات المجالس المذكورة سنة عامة ، فمن الخطأ العظيم أن يدعو الملك عندما تهن قوته مجلساً للاجتماع ، فقد أدى اجتماع مجلس النواب الى اعدام لويس السادس عشر ، وفقد هنرى الثالث عرشه عندما غادر باريس وجمع مجلساً نيابياً فى بلوا ، فعندما شعر هـــذا المجلس بضعف الملك عد نفسه سيداً فغير الضرائب وعزل الموظفين وادعى أن لقراراته ما للقانون من القوة .

وشوهد غلو المشاعر فى مجالس الثورة الفرنسية كلها ، فبعد أن انتحل المجلس التاسيسى السيادة بالتدريج أعلن أنه هو الحاكم واعتبر لويس السادس عشر موظفاً بسيطاً ، ثم جاء مجلس العهد فكان فى بدء الأمر معتدلا ، ثم أفرط فى اظهـار سلطانه فسن قانوناً حرم به المتهمين حق الدفاع عن أنفسهم وأجاز الحكم عليهم بالشبهات . وقد أدى امعانه فى سفك الدماء الى اقتتال أعضائه فقتل الجلاد الجرونديين ثم الايبريين ثم الدانتونيين ثم الروبسبيريين

وسرعة التقلب فى مشاعر المجالس توضح لنا علة اتيانها نتائج مخالفة لمقاصدها ، فقد ساق المجلس التأسيسى المؤلف من الحزب الكاثوليكى والحزب الملكى فرنسة الى جمهورية مستبدة بدلا من الملكية الدستورية التى كان يريد اقامتها ،كما ساقها الى اضطهاد الاكليروس بدلا من اعلاء شأن الديانة التى كان يود الدفاع عنها .

۳ — روح الاندية السياسية

تختلف الجمعيات الصغيرة ، ذات الآراء والمعتقدات والمنافع الواحـدة ، عن المجالس الكبيرة بوحدة مشاعرها وعزائمها ، ومن هذه الجمعيات الصغيرة نذكر المجالس الدينية وطوائف المحترفين فى العهد السـابق والأندية أيام الثورة الفرنسية والجمعيات السرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ومحافل الماسون ونقابات العمال فى الوقت الحاضر .

ويقتضى لادراك سير الثورة الفرنسية أن يبحث عن الفرق بين المجلس المتخالف

والنادى المتجانس ، فالأندية هى التى سيطرت على الثورة الفرنسية حتى عهد الديركتوار، وقد كانت هذه السيطرة شديدة فى دور العهد كما هو معلوم .

تخضع الأندية لنواميس روح الجماعات ، على رغم وحدة عزائمها الناشئة عن فقدان الأحزاب فيها ، فهى تستكين للزعماء كما شوهد فى النادى اليعقوبى الذى كان يقوده روبسبير

ويكون تأثير الزعيم فى النادى ، أى فى الجماعة المتجانسة ، أصعب مما فى الجماعة المتباينة ، فلكى تسير الجماعة المتخالفة يكفي أن يهتز عدد قليل من أوتارها ، وأما الجماعة المتجانسة ، كالنادى مثلا ، حيث تكون المشاعر والمنافع واحدة فيقتضى لسوقها مداراة هذه المشاعر والمنافع ، وبهذا قد يصبح الزعيم مرؤوساً .

وللجماعات المتجانسة قوة عظيمة فى خفائها ، فقد كفى أيام الكومون ، أى سنة ١٨٧١ بضعة أوامر خفية لحرق أجمل أبنية باريس كدار البلدية وقصر التويلرى وديوان المحاسبة وبيت جوقة الشرف ، والمصادفة هى التى أنقذت وقتئذ قصر اللوفر وما فيه من الآثار الفنية ، والآن يصغى باحترام الى الأوامر التى يصدرها زعماء العمال المستترون على رغم مخالفتها للصواب ، ولم يكن الانقياد لأندية باريس وللجمعية الثورية المتمردة أقل من ذلك أيام الثورة الفرنسية ، فكانت بأمر واحد منها تسوق رعاعاً مسلحين الى المجلس الاشتراعى لاملاء مطالبها عليه ، وسنرى عند بحثنا فى تاريخ مجلس العهد وقوع مثل هذه الغارات كثيراً وانقياد هذا المجلس ، الذى وصفته الأقاصيص بشدة البأس ، لأوامر عصابة من الغوغاء .

تدلنا الملاحظات السابقة على ما لروح الجماعة من التأثير فى إرادة أعضائها ، فاذا كانت الجماعة متجانسة كان هذا التأثير عظيما ، والا كان أقل من ذلك ، وقد يصبح عظيما إما لتغلب الجماعات النافذة فى المجلس المتخالف على الجماعات الضعيفة الالتحام وإما لانتشار بعض المشاعر بالعدوى بين أعضاء هذا المجلس .

وأحسن مثال نورده على تأثير الجماعات هو القرار الذى تنزل فيه الأشراف عن امتيازاتهم الاقطاعية فى الليلة الرابعة من شهر اغسطس (أيام الثورة الفرنسية) ، وسبب ذلك أن الناس وهم فى الجماعة غيرهم وهم منفردون ، فلو سئل كل شريف عن رأيه وهو منفرد لأجاب أنه لا يتنزل عن حقوقه أبداً .

وقد أورد نابليون ، وهو فى جزيرة القديسة هيلانة ، أمثلة عجيبة على تأثير المجالس فى

أعضائها فقال : « كنا نصادف فى ذلك الوقت أشخاصاً كانوا يسيرون على غير ما سمع عنهم ، خذ مونج مثلا تر أنه صعد على منبر اليعاقبة لما اختير الحرب وصرح انه يهب ابنتيه مقدماً للجنديين الأولين اللذين يجرحهما العدو ، وكان يود أن يقتل جميع الأشراف ، مع أنه كان من اكثر الناس دماثة وأشدهم ضعفاً ، ولو اضطر الى ذبح فروجة ما فعل ذلك وما سمح لأحد أن يفعله أمامه . »

٣ — اشتداد المشاعر التدريجى فى المجالس

لو أمكننا أن نقيس مشاعر الجماعات بعضها ببعض قياساً رياضياً لاستطعنا أن نرسمها على خط منحن يصعد من طرفه الأول ببطوء ثم بسرعة ثم يهبط الى طرفه الثانى عمودياً، ويمكن أن تسمى هذه المعادلة معادلة تحول مشاعر الجماعات المحرّضة تحريضاً مستمراً

فلو كانت سنن علم النفس مشابهة لسنن علم الميكانيك لجاز لنا أن نعتبر أن علة ثابتة المقدار مستمرة التأثير تزيد المشاعر سرعة ، فمن المعلوم أن قوة ذات مقدار ثابت واتجاه مستمر كالجاذبية المؤثرة فى أحد الأجرام تحدث فى الجرم حركة زائدة السرعة فتكون سرعة الجرم الساقط فى الفضاء بتأثير الجاذبية عشرة أمتار فى الثانية الأولى وعشرين متراً فى الثانية التالية وثلاثين متراً فى الثانية الثالثة .

غير أن هذا المقياس الذى قد تقاس به سرعة المشاعر التابعة لمؤثرات مستمرة لا يوضح لنا سبب توقف هذه المؤثرات بغتة عن التأثير ، ويمكن إدراك هذا التوقف بقياسه على سنن وظائف الأعضاء ، فمن قواعد علم وظائف الاعضاء أن للذة والألم حدوداً لا يمكن تعديها وأنه ينشا عن كل تشديد على الأعضاء شلل فى الحس ، وأن أعضاءنا لا تحتمل غير مقدار محدود من الفرح والألم والمجهود ، وأن اليد التى تشدد على مقياس القوة لا تلبث أن تستنفد قوتها فتضطر فجاة الى الكف عن إمساكه .

ويجب فى البحث عن علة اختفاء بعض المشاعر بغتة فى المجالس أن نسلم أيضاً بوجود أحزاب ذات مشاعر ردعتها قوة الحزب المتغلب عن النمو ، وقد تشتد مشاعر هذه الأحزاب عندما يضعف الحزب المتغلب لسبب من الأسباب ، وذلك كما وقع للبونتانيار بعد شهر ترميدور (الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية)

الجزء الثانى

الثورة الفرنسية

الباب الأول

مآخذ الثورة الفرنسية

الفصل الأول

آراء المؤرخين فى الثورة الفرنسية

١ — رواة الثورة الفرنسية
٢ — نظرية القضاء والقدر فى تفسير الثورة الفرنسية
٣ — شكوك المؤرخين فى تأثير الثورة الفرنسية
٤ — إنصاف المؤرخين

١ — رواة الثورة الفرنسية

اختلفت الآراء فى الثورة الفرنسية ، فهى عند دومستر من عمل الشياطين ، فقد قال : « إن عمل الشياطين لم يظهر فى أى حين ظهوره فيها . » ، وهى عند اليعاقبة مجددة للنوع البشرى . ويستحب الأجانب المقيمون فى فرنسة عدم الخوض فيها ، قال باريت ويندل : « لم يذهب أثر تلك الثورة من النفوس ، فالناس لا يزالون ينظرون اليها بعين التشيع

والتحزب ، وكلما أدركتم كنه فرنسة رأيتم أنه حتى الآن لم يظهر لفرنسى بحث خال من الغرض فى هذه الثورة . »

هذه ملاحظة صحيحة . فيجب لتفسير حوادث الماضى تفسيراً عادلا أن لا تبقى مؤثرة فى النفوس وأن لا يبقى لها صلة بمعتقدات الناس السياسية أو الدينية الحاضرة التى أشرت إلى عدم تسامحها الجبرى .

ولذا لا نعجب من تناقض آراء المؤرخين فى الثورة الفرنسية . وسيظل بعضهم يعدها حادثة مشؤومة كما يظل البعض الآخر يعدها حادثة مجيدة .

« واليوم قد نسى الناس رواة الثورة الفرنسية المتقدمين كتيار وكينه وميشله مع ما اتصف به هذا الأخير من حسن القريحة . ففى آرائهم شىء من الغموض ويتغلب عليها مبدأ القدر التاريخى ، ومن ذلك أن تيار كان يعد الثورة الفرنسية نتيجة طبيعية للنظام الملكى المطلق ويعد الهول نتيجة غارة الأجنبى ، وأن كينه كان يعتبر ما حدث سنة ١٧٩٣ من الاضطهاد نتيجة استبداد قديم ، وأن ميشله كان يعتبر الثورة الفرنسية عملا شعبياً جديراً بالاعجاب والتعظيم .

وقد محا تاين كثيراً من نفوذ هؤلاء ، فهو مع شدة بيانه أوضح كثيراً من حقائق الثورة الفرنسية ، وعما قليل يصبح كتابه مرجعاً لا يقوم مقامه كتاب آخر .

ولا يخلو كتابه من عيوب . فهو ، وإن أجاد رواية الحوادث ووصفها ، قد فسرها بالمنطق العقلى مع أن العقل لم يملها ، وهو باثباته غطرسة روبسبير الذى قتل كثيراً من رجال العهد فى بضعة أشهر لم يكتشف علة سلطانه على هذا المجلس ، ولذلك أصاب من قال : إن تاين أحسن الرواية وأساء الفهم .

وكتاب تاين على ما فيه من النقص عظيم الشأن ، ولم يؤلف ما يعدله . ويظهر لنا نفوذ هذا الكتاب عند الاطلاع على الغيظ الذى أوجبه فى أنصار المذهب اليعقوبى المخلصين الذين يرئسهم الآن أحد أساتذة السوربون مسيو اولار ، فقد وضع مسيو اولار فى سنتين رسالة مشبعة من روح الغضب على تاين، وهو مع ما قضاه من الوقت فى تصحيح بضعة أغلاط مادية فى كتاب تاين لم يصن نفسه عن ارتكاب مثلها .

وأحسن نقد لكتاب تاين هو القول إنه ناقص ، فهو مع بحثه فيه عن شأن الرعاع

وزعمائهم أيام الثورة الفرنسية ومع إملاء ذلك عليه صفحات سخط تقضى بالعجب غابت عنه وجوه كثيرة من هذه الثورة .

وسيستمر الخلاف بين أنصار تاين وأنصار اولار ، وهذا الخلاف يتجلى على الخصوص فى أن اولار يعتبر الشعب حكماً وتاين يقول إن الشعب لما سار بغريزته وحرّر من الزواجر الاجتماعية عاد الى دور الهمجيـة الأولى . ولا يزال رأى مسيو اولار المخالف لقواعد روح الجماعات مذهباً دينياً عند اليعاقبة فى الوقت الحاضر . فهؤلاء يسلكون فيما يكتبونه عن الثورة الفرنسية طرق المعتقدين وينتحلون فى المصنفات العلمية أدلة علماء اللاهوت .

٢ — نظرية القضاء والقدر في تفسير الثورة الفرنسية

أنصار الثورة الفرنسية وأعداؤها يرون فى الغالب أن الحوادث الثورية تقع قضاء وقدراً . قال إميل اوليفيه فى كتاب « الثورة الفرنسية » : « لا يقدر أحد أن يقاوم الثورات . فالانسان عاجز عن تبديل العناصر ومنع وقوع الحوادث الناشئة عن طبيعة الأحوال » . وقال تاين : « كان سير الأفكار والحوادث عند افتتاح مجلس النواب ، أى فى بدء الثورة الفرنسية أمراً مقدراً . فكل إنسان يحمل مستقبله وتاريخه من غير أن يعلم » وقال مسيو سوريل : « إن الثورة الفرنسية التى ظهرت لبعض الناس أنها هادمة وللبعض الآخر مجددة هى نظام طبيعى ضرورى لأوربة . فقد صدرت عن الماضى ، ولا يمكن إيضاحها إلا بنور العهد السابق » ، وقال غيزو : « لم تقف الثورة الانكليزية والثورة الفرنسية سير الحوادث الطبيعى فى أوربة ولم تقولا شيئاً لم يقل فى الماضى ولم تفعلا شيئاً لم يفعل مئة مرة قبل انفجارهما ، فاذا نظرنا الى أعمال تينك الثورتين ، أى إلى شكل الحكومة والقانون المدنى ونظام الأحوال الشخصية والحرية لم نجد شيئاً ابتدعتاه » .

فكل هذه الاقوال تذكرنا بالمبدإ المعروف القائل إن الحادثة نتيجة حادثة سابقة .

بيد أن ذلك المبدأ لا يدلنا على شيء كثير ، فلا يجوز إيضاح كثير من الحوادث بمبدإ القدر التاريخى الذى رضى به كثير من المؤرخين ، فالتاريخ وإن قصّ علينا أموراً وقعت بفعل الضرورة قصّ علينا أموراً أخرى وقعت عرضاً ، ومن ذلك أن نابليون بونابارت لم ينج من الموت عندما كان يغتسل فى أوكسون سنة ١٧٨٦ إلا بمصادفة كثيباً فلو مات نابليون بونابارت فى تلك الساعة وقلنا إن قائداً آخر كان يظهر ليقبض على زمام

الحكم المطلق فما عسى أن يكون مذكوراً فى القصيدة الامبراطورية الحماسية عوضاً عن ذلك العبقرى الذى قاد جيوش فرنسة ظافرة الى فتح عواصم أوربة ؟ .

نعم يجوز اعتبار الثورة الفرنسية حادثاً ضرورياً من بعض الوجوه ، ولكنها كانت على الخصوص صراعاً بين الخياليين وسنن الاقتصاد والاجتماع والسياسة المسيرة للبشر ، فلما جهل هؤلاء الخياليون تلك السنن حاولوا عبثاً أن يتغلبوا على سير الأمور ، ولما فشلت محاولتهم اضطهدوا الناس وأمروا متوعدين ، ولكن على غير جدوى ، أن يكون للورق النقدى الساقط قيمة الذهب ثم سنوا قانون القصاص الذى زاد الجرائم ،

على أن رجال الثورة الفرنسية اكتشفوا فى نهاية الأمر ، بعد أن كسروا الزواجر ، أن المجتمع لا يعيش بغير الزواجر ، وهم حينما أرادوا صنع زواجر جديدة رأوا أن أقوى ما يبتدعونه ، حتى المقصلة ، لا يقوم مقام الأخلاق التى غذّى الماضى بها النفوس شيئاً فشيئاً .

إذن لم تنشأ حوادث الثورة عن سنن ثابتة بل كانت نتيجة مبادىء اليعاقبة ، وقد أمكن أن تكون شيئاً آخر . أفلا يكون سير الثورة الفرنسية غير ما وقع لو دُعى لويس السادس عشر بالحكمة والموعظة الحسنة أو لو كان المجلس التأسيسى أقل جبناً مما كان عليه إزاء فتن الرعاع ؟

فيجب إظهار الشك فى فعل الأقدار سواء فى المباحث التاريخية أم فى المباحث العلمية. فقد توصل العلم بالتدريج الى تبديد كثير من أقدار الطبيعة ، ولا يفعل عظماء الرجال ، كما أشرت فى كتاب آخر ، سوى ذلك التبديد .

٣ — شكوك المؤرخين في تأثير الثورة الفرنسية

ظهر المؤرخون الذين أشرنا الى أفكارهم فى هذا الفصل بمظهر الجازم البات لحصر أنفسهم فى دائرة المعتقد وعدم نفوذهم دائرة العلم والمعرفة ، فالكاتب الملكى منهم شديد الحقد على الثورة الفرنسية والمتمذهب بمذهب الحرية كثير التشيع لها . واليوم نشاهد سعياً الى درس الثورة الفرنسية كإحدى الحوادث العلمية التى لا يكون لآراء المؤلف الخاصة ومعتقداته الشخصية فى درسها سوى تأثير قليل لا يشعر به القارىء .

لم يأت هذا الزمن بعد ، ولم نر سوى طلوع فجر الشك الذى يتقدم ذلك ، فقد أخذ كثير من الكتاب يجتنبون إبداء آراء قاطعة فى مؤلفاتهم .

سأل مسيو هانوتو ، بعد أن أثنى على الثورة الفرنسية ، عن نتائجها بالنسبة الى ثمنها الغالى فقال : « سيتردد التاريخ كثيراً قبل أن يحكم فى ذلك » ، وأبدى مسيو مادلن فى كتابه الذى بحث فيه عن الثورة الفرنسية تردداً مثل ذلك فقال : « لا أستطيع إعطاء حكم قاطع فى حادثة معقدة كالثورة الفرنسية ، فأرى أن عللها وأعمالها ونتائجها أمور تقتضى بحثاً كبيراً . »

ويظهر أيضاً نشوء الآراء فى الثورة الفرنسية من مطالعة ما كتبه فى الوقت الحاضر حماتها الرسميون ، فبعد أن كانوا يقولون إن ما حدث فيها من المظالم كان للدفاع أخذوا يدافعون عنها طالبين أحكاماً مخففة عليها . جاء فى كتاب تاريخ فرنسة الذى الفه اولار ودوبيدور حديثاً ليدرس فى المدارس : « نعم انهمرت الدماء فى الثورة الفرنسية واقترفت فيها مظالم وجرائم منكرة غير نافعة للدفاع الوطنى ، ولكنّ النفوس استولهت فى هذه الزوبعة فكان رجال الوطنية الذين حفت بهم الأخطار يقتلون الناس والسخط آخذ منهم كل مأخذ . »

وأما الأجانب فأحكامهم على الثورة الفرنسية شديدة . ولا عجب . فقد أذاقت اوربة ، ولا سيما المانية ، أنواع المحن . قال مسيو فاغيه يخبرنا برأى الألمان : « لنقل رابطى الجأش وطنيين ، ومن شروط الوطنية أن يبلغ الانسان أمته حقيقة الأمر ، إن المانية عدت فرنسة فى الماضى أمة اضطهدتها وازدرتها وأثخنت فيها ونهبتها مدة خمس عشرة سنة باسم الحرية والاخاء ، وهى تعتبر فرنسة فى الوقت الحاضر أمة تقيم بحجة هاتين الكلمتين ديموقراطية مستبدة ظالمة مزعجة مخربة غير صالحة ليقتدى بها أحد . هذا كل ما تنظر به المانية الى فرنسة وهذا كل ما تشير اليه جرائدها وكتبها . »

وسوف يعد كتاب المستقبل الثورة الفرنسية حادثاً مؤثراً ذا عبر مهما كانت قيمة الأحكام عليها . فحكومة أدى حبها لسفك الدماء الى قطع رؤوس شيوخ جاوزوا حد الثمانين ورؤوس كثير من الأطفال والفتيات ، وحكومة مع تخريبها فرنسة قدرت على دفع غارة أوربة المدججة بالسلاح ، وأميرة من بيت الملك فى النمسة قطع رأسها بعد أن كانت ملكة فرنسة ، وأميرة من اقربائها قامت فى مكانها بعد أن تزوجت بامبراطور كان ضابطاً كلها أمور لم يرو التاريخ مثلها ، ولعلماء النفس فى تلك القصة التى لم يقتلوها تمحيصاً

فوائد كثيرة . فبها يكتشفون أن علم النفس لا يتقدم الا إذا عدلوا عن النظريات الوهمية وأخذوا يبحثون فى الحوادث بحثاً حقيقياً .

٤ — انصاف المؤرخين .

عد الانصاف منذ القديم أمراً ضرورياً للمؤرخ ، وقد أدعى المؤرخون منذ زمن تاسيت أنهم من المنصفين ، والواقع أن المؤرخ يرى الحوادث كما يرى المصور المناظر ، أى ينظر اليها من خلال مزاجه وخلقه وروح أمته . فشأن المؤرخين شأن المصورين الكثيرين الذين يقفون أمام منظر واحد و يأتى كل واحد منهم بصورة ذات طابع خاص .

نعم قد يكتفى المؤرخ بنسخ الوثائق ، والى هذا يميل المؤرخون فى الوقت الحاضر غير أن وثائق الأدوار القريبة ، كدور الثورة الفرنسية ، من الكثرة بحيث لا تكفى حياة المؤرخ لنسخها ، ولذا يختار المؤرخ ما يروقه منها .

فالمؤرخ يختار من الوثائق، متعمداً أو غير متعمد ، ما يلائم أفكاره السياسية والدينية والأدبية ، ويؤلف من هذه الوثائق كتاب تاريخ بعيد من الانصاف . ويكون كتاب التاريخ ذا إنصاف إذا اقتصر مؤلفه على وضع قوائم تلخص كل حادثة فى سطر واحد منها ، ولا نأسف على عدم ظهور من هو منصف ، فالانصاف يؤدى الى وضع مثل هذه القوائم التافهة المملة التى يستحيل الوقوف بها على حقيقة أدوار التاريخ .

وهل يجب على المؤرخ أن يمتنع بحجة الانصاف عن تقدير الرجال أى مدحهم أو هجوهم ؟ لهذه المسئلة حلان عادلان يختلفان باختلاف الكاتب الذى قد يكون من علماء الأخلاق وقد يكون من علماء النفس .

ينظر علماء الأخلاق الى المصلحة الاجتماعية فقط ، ولا يقدرون الرجال الا من خلال هذه المصلحة ، وبيان ذلك أن المجتمع يحتاج لبقائه الى مقياس يقاس به الخير والشر وتميز به الفضيلة والرذيلة أى إن المجتمع يضطر الى وضع أمثلة يسعى اليها الناس ، ولا يبتعدون منها من غير أن يصيبه خطر ،

فعلى علماء الأخلاق أن يقدروا الرجال حسب هذه الأمثلة والقواعد المشتقة من مقتضيات الاجتماع ، وهم يمدحهم من أفاد وهجوهم من أضر يبرزون أمثلة أخلاقية ضرورية لسير الحضارة .

تلك هي وجهة علماء الأخلاق ، وأما وجهة علماء النفس فغير ذلك ، فالمجتمع و إن لم يحق له أن يتساهل فى أمر بقائه فانه يجب على علماء النفس أن لا يبالوا بذلك . فهم لما كان عليهم أن ينظروا الى الأعمال نظرة علمية اقتضى ان لا يهتموا بتقدير منافعها وأن لا يسعوا إلا الى تفسيرها ، أى أن يكون مثلهم كمثل الراصد أمام أى حادث . نعم يصعب على الانسان أن يقرأ ، وهو رابط الجأش ، أن كاريه كان يئد ضحاياه بعد أن يفقأ عيونهم ويذيقهم أشد العذاب ، ولكنه يجب لاكتناه مثل هذه الأعمال أن لا يستشيط العالم على مقترفيها وأن يكون شأنه كشأن علماء الطبيعة إزاء العنكبوت وهى تقتل ذبابة بالتدريج

ظهر مما تقدم أنه ليس للمؤرخين وعلماء النفس شأن واحد ، ولكنهم يطالبون جميعهم بتفسير الحوادث تفسيراً حسناً واكتشاف ما هو مستتر تحت الحقائق الظاهرة من القوى الخفية المسببة لها .

الفصل الثانى

مبادىء النظام السابق النفسية

١ — الملكية المطلقة ودعائم النظام السابق

٢ — مساوىء النظام السابق

٣ الحياة فى العهد السابق

٤ — تحول المشاعر الملكية أيام الثورة الفرنسية

١ — الملكية المطلقة ودعائم النظام السابق

يقول كثير من المؤرخين إن الثورة الفرنسية نشبت ضد الملكية المستبدة ، والواقع أن ملوك فرنسة عدلوا عن الاستبداد قبل انفجارها بزمن طويل ، نعم تجلى الملك العضوض أيام لويس الرابع عشر، ولكن الملوك الذين ظهروا قبله ، ومنهم فرنسوا الأول ، كانوا يقارعون الأمراء الاقطاعيين مرة والاكليروس والبرلمانات مرة أخرى ، وكثيراً ما غلبوا فى هذه المعارك ، حتى إن فرنسوا الأول لم يكن من القوة بحيث يقدر على كف الأذى عن أعز أصدقائه إزاء السوربون والبرلمان ، فلما كره السوربون مشيره وصديقه بيركان حبسه فأمر الملك بتخلية سبيله فرفض السوربون ذلك فاضطر الملك الى إرسال نبالة لاطلاقه ، ولم يجد الملك وسيلة لحمايته غير حراسته فى قصر اللوفر ، إلا أن السوربون اغتنم غياب الملك فسجن بيركان ثانية وبعد أن حكم البرلمان عليه بالموت حرق حياً غبّ ساعتين

قلنا إن الملك أصبح عضوضاً فى عهد لويس الرابع عشر ، الا أن الملك المطلق لم يلبث أن مال الى الزوال وصار من الخطأ نعت لويس السادس عشر بالمستبد . فقد كان هذا

الملك عبداً لبطانته ووزرائه والاكليروس والاشراف من كل وجه ولم يكن فرنسى أقل منه حرية.

ومع ذلك كان الملوك يستمدون قوتهم من الله ومن التقاليد التى كان يتألف من مجموعها عقد البلاد الاجتماعى ، فلما تكرر الجدل فى تلك التقاليد أصابها الوهن فلم يبق من يدافع عنها فانهار ذلك النظام من أساسه .

٢ — مساوىء النظام السابق

ترضى الأمة بالنظام القائم منذ عهد بعيد ، والعادة تستر مساوئه التى لا تبدو إلا عند إنعام النظر. وعندما يفكر الانسان فيه يسأل كيف اصطبر عليه فيعتقد أنه تعس ، وقد رسخ مثل هذا الاعتقاد أيام الثورة الفرنسية بتأثير بعض الكتاب فبدت عيوب النظام السابق لكل ذى عينين ، وسنكتفى ببيان بعض هذه العيوب .

كانت المملكة الفرنسية التى تألفت من ولايات مستقلة فى الماضى مختلفة بقوانينها وطبائعها وعاداتها ، وكانت المكوس الداخلية تفصلها بعضها عن بعض ، وما قام به الملوك من الجهود ، ومنهم لويس الرابع عشر ، لم يؤد الى وحدتها تماماً .

وعدا هذه الأقسام المادية كانت الأمة الفرنسية مؤلفة من ثلاث طبقات ، أى طبقة الأشراف وطبقة الاكليروس والطبقة الثالثة ، وقد تمسك النظام السابق بسياسة التفريق بين الطبقات لاعتباره ذلك سراً من أسرار قوته ، والاضطهاد الذى جاءت به الطبقات الوسطى الظافرة أيام الثورة الفرنسية ناشىء عن ميلها الى الانتقام من ماض طويل احتقرتها فيه طبقة الأشراف وطبقة الاكليروس ، وما اكثر ما عانته الطبقة الثالثة من جراح ، ففى اجتماع عقده مجلس النواب سنة ١٦١٤ وجثا فيه أعضاؤه مكشوفى الرؤوس قال أحد ممثلى الطبقة الثالثة إن الطبقات الثلاث كاخوة ثلاثة ، فاجابه خطيب طبقة الأشراف قائلا : « لا إخاء بين طبقة الأشراف والطبقة الثالثة ، فالاشراف لا يريدون أن يناديهم أبناء الأساكفة والخرازين إخوة لهم . »

وكان للاشراف والاكليروس امتيازات لم يوجد ما يسوغها منذ إقصاء السلطة لهم عن الوظائف لارتيابها بهم وإقامتها مقامهم من هو أكثر منهم أهلية وعلماً من أبناء الطبقة الوسطى وحصرها شأنهم الاجتماعى فى الأبهة . قال تاين :

« منذ خسر الأشراف سلطتهم وحصل عليها أبناء الطبقة الثالثة أصبح التفاوت الفاصل بين الطبقتين مؤلماً ، وقد عدل الضمير عن تقديس هذا التفاوت القائم على العادة فحق لأبناء الطبقة الثالثة أن يسخطوا على امتيازات لم يوجد ما يسوغها . »

نعم قد تنزل الأشراف فى ليلة تاريخية عن امتيازاتهم عندما أكرهتهم الحوادث على ذلك ، ولكن فعلتهم كانت متأخرة فظلت الثورة الفرنسية سائرة فى طريقها

وحقد أبناء الطبقة الوسطى على الطبقات الأخرى من جملة أسباب الثورة الفرنسية . ولا يدل مقت أبناء الطبقة الوسطى للاشراف على حقدهم على الملكية . فلم يمقت الشعب الملك لطيشه واستغاثته بالأجنبى الا بالتدريج . ولم يفكر المجلس الاشتراعى الأول فى إقامة الجمهورية . وكل ما كان يحلم به هو أن تحل ملكية دستورية فى مكان الملكية المطلقة

٣ — الحياة في العهد السابق

يصعب تصور الحياة فى العهد السابق — ولا سيما حياة الفلاحين الحقيقية — تصوراً حسناً ، فالكتاب يصورون ما كان عليه الفلاحون فى ذلك العهد من الكآبة تصويراً يجعل الانسان يسأل كيف لم يمت هؤلاء البائسون جوعاً . واليك صورة نشرت فى تاريخ الثورة الفرنسية الذى ألفه أحد أساتذة السوربون مسيو رامبو ، ففى هذه الصورة التى وضعت للدلالة على « بؤس الفلاحين أيام لويس الرابع عشر » يرى رجل يقاتل الكلاب ليخطف منها عظاماً معروقة ، وبجانبه بائس يشد أحشاءه من الجوع وامرأة ترعي عشباً ويرى أناس ألقوا الى الأرض وأصبحوا كالأموات ، ثم أورد المؤلف المذكور الكلمة الآتية وهى :

« كانت وظيفة الشرطى ، التى كانت تشرى فى الدور السابق بـ ٣٠٠ ليرة تدر لصاحبها ٤٠٠٠٠ ليرة ، وكان ثمن القبض على الشخص ١٢٠ ليرة ، وكان عدد ما أصدره لويس الرابع عشر من أوامر النفى والسجن ١٥٠٠٠٠ »

ان ابتعاد أكثر المؤلفات التى بحثت عن الثورة الفرنسية من الانصاف ، كالمؤلف المذكور ، يجعل الوقوف على ذلك الدور ناقصاً ، نعم ان وثائق تلك الثورة كثيرة ، ولكنها متناقضة . فتمكن معارضة وصف لابرويار بالوصف العجيب الذى أتى به السائح الانكليزى يانغ ليدل على سعادة الفلاحين الذين شاهدهم فى ذلك الزمن ، وهل صح قول بعضهم ان الفلاحين كانوا مثقلين من الضرائب فكانوا يؤدون أربعة أخماس محاصيلهم

ضريبة ؟ يتعذر علينا أن نأتى بجواب صحيح عن ذلك ، وانما نقول ان اشتراء الفلاحين ثلث الأطيان فى العهد السابق مما يدل على انهم لم يكونوا بائسين .

ومع ذلك نعلم أن الادارة المالية كانت جائرة مرتبكة وأن العجز كان يدب فى الميزانيات وأن الضرائب كان يجبيها ملتزمون ظالمون . وأنه نشأ عن هذه الأحوال استياء تجلى فى عرائض مجلس النواب .

ولم تحو هذه العرائض فكراً ثورياً ، وكل ما التمس فيها هو أن تجبى الضرائب بعد موافقة مجلس النواب عليها وأن تفرض على قاعدة المساواة وأن يوضع دستور تعين فيه سلطة الملك والأمة. فلو أجيزت هذه المطاليب لقامت مقام الملكية المطلقة ملكية دستورية ولاجتنبت الثورة على ما يحتمل .

٤ — تحول المشاعر الملكية أيام الثورة الفرنسية

تحولت مشاعر الشعب ومشاعر المجالس الثورية ازاء النظام الملكى تحولا سريعاً وان كانت المشاعر تتحول عادة شيئاً فشيئاً ، إذ لم يمر ، بين الوقت الذى فيه بجل أعضاء المجلس الثورى الأول لويس السادس عشر والوقت الذى قطع فيه رأسه، سوى بضع سنين

لم تكن تلك التحولات السطحية سوى تبديل موضعى لمشاعر واحدة ، فالحب الذى كان يظهره الناس للملك قد أظهروه للحكومة الجديدة الوارثة له ، وبيان ذلك ان استمداد الملك فى الدور السابق قوته من الله منحه قدرة عظيمة أقبل عليه الشعب من أجلها أيما إقبال . وقد ضعف ايمان الناس بقدرة الملك المطلقة عندما أثبتت التجارب أن هذه القدرة قائمة على الوهم فخسر الملك بذلك نفوذه وبحثت الجماعة التى لا تسمح للاله الساقط أن يموّه عليها ، عن معبود آخر

حقاً كشفت الحوادث المكررة منذ بدء الثورة الفرنسية للمؤمنين الأحامس أنه لم يبق للملكية شىء من الحول والقوة وأن هنالك قوى أخرى قادرة على مقاتلتها ولها سلطان أعظم من سلطانها وماذا يكون حال السلطة الملكية أمام الجماعات التى رأت تغلب مجلس النواب على الملك ورأت عجز الملك فى باريس عن دفع هجمات العصابات المسلحة عن حصنه ؟

وضح للعيان بذلك ضعف الملك فزادت قدرة مجلس النواب ومدته الجماعات بقوتها .

ومع ذلك دام الايمان الملكي بعد الاستيلاء على الباستيل وبعد فرار الملك واتفاقه مع الملوك الأجانب ، وظل هذا الايمان المتأصل من القوة بحيث لم تقدر الفتن الباريسية التي أدت الى قتل لويس السادس عشر على استئصاله [1] فبقي ثابتاً في جزء كبير من فرنسة أيام الثورة الفرنسية وكان سبباً لما وقع في المديريات من المؤامرات التي لم يخمدها مجلس العهد الا بعد عناء كبير .

ورسوخ المشاعر الملكية في النفوس جعل المقصلة عاجزة عن القضاء عليها فاستمرت الدعوة الملكية قائمة أيام الثورة الفرنسية في أنحاء فرنسة حاشا باريس وبعض المديريات التي تلاشى فيها الايمان الملكي لظهور ضعف الملك لسكانها بجلاء ووضوح . ففي عهد الديركتوار انتخبت ٤٩ مديرية نواباً ملكيين ، وقد ساعدت تلك المشاعر الملكية التي كبحت الثورة جماحها بعد ملاحم كثيرة على نجاح نابليون بونابرت الذي جاء ليستولي على عرش الملوك السابقين وليعيد جزءاً كبيراً من النظام السابق

---

(١) أورد ميشله الحادث الآتي الذي وقع في عهد لويس الخامس عشر دليلا على محبة الامة الوراثي لملوكها :

« علم الناس في باريس ليلا أن لويس الخامس عشر الذي ذهب ليلحق بالجيش مرض في ميتس فتركوا مضاجعهم وساروا في بلبلة الى حيث لا يعلمون ، ثم فتحت أبواب الكنائس في منتصف الليل وأخذ القوم يتجمعون في مفارق الطرق ويقترب بعضهم من بعض ويتساءلون عن النبأ من غير أن يتعارفوا ، وقد كان بكاء الكهنة يقطع ما كانوا يقرأونه من الادعية لشفاء الملك والجمهور يجيبهم بنحيبه وعويله ، ولما جاء الرسول الذي أتى بخبر إبلال الملك عانقه الناس وقبلوا حصانه وساروا به سيرهم بالغازي الظافر ودوت الشوارع من هتافهم « شفي الملك » .

الفصل الثالث

الفوضى النفسية أيام الثورة الفرنسية

وما نسب الى الفلاسفة من الشان

---

١ ـــ مصدر المبادىء الثورية وانتشارها

حياة الانسان الظاهرة عنوان حياة خفية نشأت عن التقاليد والمشاعر . فالحياة الخفية هى التى ترشد الانسان وتحدث فيه مبادىء مهيمنة ، وإذا أصاب هذه المبادىء وهن فان مبادىء أخرى تنبت فى مكانها .

والغاية من هذه الملاحظات هو تنبيه القارىء الى أن ما تأتى به الثورات من الحوادث الظاهرة هو نتيجة نشوء خفى وقع فى النفوس شيئاً فشيئاً والى أن البحث الدقيق فى إحدى الثورات يتطلب فحص البقعة النفسية التى نبتت فيها مبادىء هذه الثورات .

يظل نشوء المبادىء التدريجى خفياً مدة جيل واحد فى الغالب ، ولا يمكن إدراك اتساع دائرته إلا بقياس ما عند الطبقات الاجتماعية من الأحوال النفسية فى أول الجيل وآخره ، فيجب للاطلاع على الأفكار المختلفة التى كان ينظر بها العلماء الى الملكية فى عهد لويس الرابع عشر ولويس السادس عشر أن نقابل نظريات بوسويه بنظريات تورغو السياسية، إذ ذاك نرى أن بوسويه الذى كان يقول إن سلطة الحكومة مستمدة من الله الذى يحاسب الملوك وحده وإن الملوك غير مسؤولين امام الناس كان يعبر عن ايمان الناس

بالملكيـة المطلقة إيماناً دينيا . ونرى أن ما كتبـه الوزراء المصلحون ، كالوزير تورغو . كان مشبعاً من روح أخرى تعترف بحق الأمة دون حق الملوك الألهى .

والحوادث التى أوجبت هـذا التحول كثيرة ، منهـا الحروب والقحط والضرائب والبؤس العام الذى وقع فى آخر عهد لويس الخامس عشر ، فقد أقامت هذه الحوادث مقام احترام سلطة الملك التى تزعزعت بالتدريج ثورة فى النفوس مستعدة للظهور عند سنوح أول فرصة .

ومتى يبدأ المزاج النفسى فى الانحـلال لا يلبث أن يتم انحلاله ، بهـذا نفسر سرعة انتشار كثير من المبادىء بين الناس أيام الثورة الفرنسية . فهذه المبادىء التى لم تكن حديثة لم يظهر تأثيرها قبل حدوث تلك الثورة لعدم مصادفتها بيئة صالحة وبتعبير آخر إن المبادىء التى استهوت الناس أيام الثورة الفرنسية رددها البشر كثيراً فى الماضى . فهى التى أوحت الى الانكليز خطتهم السياسية فيما مضى ، وقد دافع علماء اليونان واللاتين منذ الفى سنة عن الحرية لاعنين المستبدين معلنين ماللسلطة الشعبية من الحقوق . ومع أن أبناء الطبقة الوسطى تعلموا جميع هـــذه المسائل كآبائهم فى الكتب المدرسية لم تحرك ساكنهم لبعد الوقت الذى تستطيع أن تهيجهم فيه ، وكيف تؤثر فى الأمة فى زمن تعودت فيه احترام المراتب ؟

وتأثير الفلاسفة فى حدوث الثورة الفرنسية غير ما يعزى اليهم ، فهم لم يكتشفوا شيئاً جديداً ، وإنما انموا روح الانتقاد التى لا تقاومها المعتقدات عندما تبدأ فى الانحلال، وقد نشأ عن نمو روح الانتقاد تدرج الناس الى ازدراء ما كان محترماً ، ومتى اضمحلت التقاليد والحرمات سقط البنيان الاجتماعى بغتة .

أثر الفلاسفة فى الطبقات المتعلمـة ، وعجزوا عن التأثير فى الشعب الذى يقتدى ولا يبتدع . فقد كان اكثر المصلحين حماسة فى ذلك الزمن من أصحاب الثروة ، وكان الأشراف ينشطون الى مباحث العقـد الاجتماعى وحقوق الانسـان ومساواة الوطنيين ويهتفون للروايات التمثيلية المنتقدة أصحاب الرتب العالية واستبدادهم وعدم أهليتهم .

ومتى يفقد الناس ثقتهم بأركان المجتمع يعمهم اضطراب فاستياء فتشعر طبقات المجتمع بزوال العوامل التى كانت تسيرها .

نعم لم تكف روح النقـد فى الكتاب والأشراف لزعزعة أثقال التقاليـد ، ولكن

تأثيرها دعم بمؤثرات قوية أخرى ، فقد قلنا آنفاً إن الحكومة الدينية والحكومة المدنية فى الدور السابق كانتا موصولتين إحداهما بالأخرى وصلا وثيقاً فكان صدم الأولى، يصيب الثانية بحكم الضرورة ، والآن نقول إن التقاليد الدينية عاقتها نفوس المتعلمين قبل أن يتزعزع المبدأ الملكى ، وذلك بسبب تقدم العلم الذى أوجب انتقال النفوس من عالم اللاهوت الى عالم العلم .

فالناظر ، بفعل هذا النشوء ، كان يشعر بأن التقاليد التى قادت الناس قروناً كثيرة ليست ذات قيمة وأن من الضرورى تبديلها ، ولكن أين كان يبحث عن عصا السحر القادرة على إقامة بنيان اجتماعى جديد مقام البنيان السابق ؟

وقع الاجماع على وصف العقل بالقدرة التى خسرتها الآلهة والتقاليد ، وهل كان يشك فى قدرته على تحويل المجتمعات وهو الذى كثرت اكتشافاته ؟ هكذا عظم شأن العقل فى النفوس وتضاءل شأن التقاليد .

والمبدأ الذى أسند تلك القدرة الى العقل وأوقد نار الثورة الفرنسية وسيرها من أولها إلى آخرها هو الذى استعان به الناس على تحطيم قيود الماضى وإقامة مجتمع جديد .

ويلخص ما هبط ببطوء إلى الشعب من نظريات الفلاسفة أن جميع ما عد فى الماضى محترماً أصبح غير جدير بالاحترام وأنه لم يبق محل لاطاعة السادة السابقين وعدم تعدى الحدود .

كانت مجاوزة الناس للحدود أول نتيجة لهذه النفسية الجديدة ، فقد ذكرت مدام فيجيلبران أن العوام كانوا يرتقون فى متنزه لونشان الى مراقى العربات قائلين : «ستكونون فى العام القادم خلفنا ونكون نحن فى العربات »

لم يكن أمر مجاوزة الحدود والاستياء خاصاً بالعوام بل كان شاملا للجميع قبيل الثورة الفرنسية ، قال تاين :

« كان صغار الاكليروس حاقدين على كبارهم وكان أشراف الولايات حاقدين على الأشراف المقربين ، وكان صغراء الامراء الاقطاعيين حاقدين على كبرائهم وكان سكان القرى حاقدين على سكان المدن . »

ثم استولت تلك الحال النفسية ، التى انتقلت من الأشراف والاكليروس الى الشعب ، على الجيش أيضاً . قال نيكر حين افتتاح مجلس النواب « لسنا واثقين بالجيوش » ، أما

الضباط فاصبحوا من أنصار المذهب الانسانى وأخذوا يشتغلون بالفلسفة ، وأما الجنود وإن لم يشتغلوا بالفلسفة ، فكانوا لا يطيعون ، وذلك لدلالة مبادىء المساواة فى مداركهم السخيفة على بطلان الرآسة والطاعة .

وبعد أن استولت الفوضى النفسية على طبقات المجتمع ، ومنها الجيش ، أوجبت زوال النظام السابق ، قال ريفارول :

« إن الذى قضى على الملكية هو تخلى الجيش عن الملك وانتحال الجيش مبادىء الطبقة الثالثة . »

٢ — تأثير فلاسفة القرن الثامن عشر فى تكوين الثورة الفرنسية، نفورهم من الديموقراطية .

يجب أن لا يعد الفلاسفة ، الذين ظن أنهم نفخوا فى الناس روح الثورة ، أشياعا للحكومة الشعبية ، وإن قاتلوا بعض الأوهام والعادات السيئة ، فقد كانوا يمقتون الديموقراطية التى بحثوا عن شأنها فى تاريخ اليونان لعلهم ما تجر وراءها من التخريب والاضطهاد ، وهى التى عرفت فى زمن اريسطو : « بانها حكومة تناط فيها القوانين وكل أمر بعوام يعتبرون أنفسهم من الجبابرة ويسيرون كما يريد بعض المشاغبين »

واليك ما قاله بطرس بيل ، وهو الذى يعتبر بحق سلفاً لفولتير ، عن الحكومة الشعبية فى أثينا :

« عندما يقرأ الانسان تاريخ مجالس اثينا وانقسام أحزابها وفتنها واضطهاد أشرافها وقتلهم ونفيهم ، كما كان يريد أحد الخطباء المشاغبين ، يحكم بان ذلك الشعب الفخور كان بالحقيقة عبداً لفئة من الثرثارين المحتالين الذين كانوا يقلبونه كأنه ريشة فى مهاب الريح ، ولو بحث عن تاريخ مكدونية الملكية ما وجدت فيه أمثلة ظلم واستبداد كما وجد فى اثينا . »

ولم يكن رأى مونتسكيو فى الديموقراطية أقل من ذلك ، فقد دل بعد أن وصف أشكال الحكومة الثلاثة — أى الجمهورية والملكية والمستبدة — على ما تؤول اليه الحكومة الشعبية بالكلمات الآتية وهى :

« كان الناس أحراراً فى ظل القوانين فصاروا يرون الحرية فى مخالفة القوانين ، وأصبحوا يسمون ما هو حكمة سخافة وما هو مبدأ عسراً ، وكان ما يدخل بيت المال من الأموال يجمع من الافراد فاصبح بيت المال ملكا للافراد ، فالجمهورية إذن ليست سوى جثة مستمدة قوتها من قوة بعض الناس .

« يظهر فى الحكومة الشعبيــة ، أى الجمهورية ، جبابرة صغار فيهم مافى الجبار الكبير من النقائص ، ومتى يصبح أمرهم لا يطاق يقبض على زمام الحكم جبار واحد فيخسر الشعب كل شىء .

لذلك وجب اجتناب ما تجر اليه الديمقراطيـــة من المغالاة فى المساواة المؤدية الى الحكم المطلق فالى غزو الأجنبى للبلاد . »

والحكومة الانكليزية الدستورية المانعة للملكية من التحول الى حكومة مستبدة هى مثل مونتسكيو الأعلى ، غير أن تأثير هذا الفيلسوف فى الثورة الفرنسية كان ضعيفاً جداً.

وأما واضعو دائرة المعارف فلم يمارسوا السياسة قط ، وربما استثنينا منهم أولباك الذى كان مثل فولتير وديدرو ملكياً متمذهباً بمذهب الحرية ، فهؤلاء الثلاثة الذين كانوا يدافعون ، على الخصوص ، عن الحرية الشخصية ويقاتلون الكنيسة عدوة الفلاسفة لم يكونوا اشتراكيين أو ديموقراطيين ولهذا السبب لم تنتفع الثورة الفرنســـية بشىء من مبادئهم .

كان فولتير قليل التشيع للديموقراطية ، فقد قال :

« أرى الديموقراطية لا تلائم إلا بلاداً صغيرة . فالبلاد الصغيرة التى تتمتع بالحكم الديموقراطى ، وإن وقع فيها كثير من الزلات ، كما فى أديار الرهبان ، لا تقع فيها ملاحم كملحمة سان بارتلمى ولا مذابح كمذابح ايرلندة وصقلية ومحكمة التفتيش ولا يحكم فيها بالاشغال الشاقة على من يغترف من البحر ماء لا يؤدى ثمنه . وتكون تلك الجمهورية غير ذلك إذا تألفت من الشياطين فى ناحية كبيرة من نواحى الجحيم »

إذن كانت أفكار هؤلاء الذين ظن أنهم هيأوا الثورة الفرنسية قليلة الهدم ومن الصعب أن يعزى اليهم تأثير كبير فى سيرها .

ويمكننا أن نشك فى ميول روسو الديموقراطية . فهو يرى أن خططه فى تجديد المجتمع على أساس السيادة الشعبية لا تلائم غير عدد قليل من البلدان ، وعندما طلب اليــه البولونيون أن يرسم لهم دستوراً ديموقراطياً نصحهم بأن ينتخبوا ملكا وراثياً .

واكثر نظريات روسو انتشاراً هى نظريته التى فصلها فى كتاب العقد الاجتماعى وادعى فيها مع كثير من رجال عصره أن الرجل الفطرى كان كاملا لم تفسده المجتمعات

وأنه إذا تغيرت المجتمعات بما يسن من القوانين عادت سعادة الأجيال الأولى وأن الناس كلهم متماثلونٌ فى كل زمان ومكان وأنه يجب أن تسن قوانين واحدة وأنظمة واحدة ، ويظهر أن اعتقاد الناس فى ذلك الحين كان كاعتقاد روسو، فاسمع ما قاله هلفيسيوس : « تشتق فضائل الأمة ونقائصها من قوانينها ، وهل يشك فى أن الفضيلة عند الأمم جميعها هى نتيجة حكمة القابضين على زمام الأمور ؟ »

٣ — مبادىء الطبقة الوسطى الفلسفية أيام الثورة الفرنسية

مع أنه يصعب تعيين مبادىء الطبقـــة الوسطى الفلسفية والاجتماعية أيام الثورة الفرنسية يمكن ردها الى بضع قواعد ملخصة فى بيان حقوق الانسان .

ويظهر أن فلاسفة القرن الثامن عشر لم يؤثروا فى أبناء الطبقة الوسطى كثيراً ، إذ لم يستشهد هؤلاء أيام الثورة الفرنسية بأولئك إلا قليلا . وإنما سحر خواطر اليونان والرومان لهم كان يدفعهم الى مطالعة كتب أفلاطون و بلوتارك ولهذا السبب كانوا يودون نشر دستور اسبارطة وعاداتها وتقشفها وقوانينها .

ولم يقل أبناء الطبقـة الوسطى الذين قاموا بالثورة الفرنسية ، وهم الذين عدهم الناس من المبتدعين الجاسرين السـائرين على نهج الحكماء ، إنهم ابتـدعوا شيئاً ، بل أعربوا عن رغبتهم فى الرجوع الى ماض بعيد ، ولم ينظر عقلاؤهم الى ما كان فى القرون الخالية بعين الجدّ . فقد فكروا فى انتحال نظام انكلترة الدستورى الذى امتدح مونتسيكو وفولتير منافعه ونسجت الأمم على منواله فى نهاية الأمر من غير ثورة . حقاً كان يطمع اولئك فى إصلاح النظـام الملكى لا فى هدمه . غير أن المناهج التى سلكت أيام الثورة اختلفت عما اقترحوه من الطرق والأساليب .

الفصل الرابع
الأوهام النفسية أيام الثورة الفرنسية

١ ــ الروح الشعبية وأوهام الناس فى الانسان الفطرى وفى الرجوع الى الحالة الفطرية .
٢ ــ أوهام الناس فى قوة القوانين وفى إمكان فصل الانسان عن ماضيه .
٣ ــ أوهام الناس فى قيمة المبادىء الثورية .

١ ــ الروح الشعبية وأوهام الناس في الانسان الفطرى وفي الرجوع الى الحالة الفطرية .

قلنا سابقا ، ونعود فنقول ، إن خطأ المذهب لما كان غير ضار بانتشاره فان تأثيره هو الذى يجب البحث فيه . وعلى الفيلسوف الذى يود أن يكتشف كيفية تأثيره فى الناس أن يبحث فى الأوهام المحيطة بهم ، وربما لم تكن الأوهام كثيرة كما كانت أيام الثورة الفرنسية .

ونعد من أشد الأوهام ظهوراً التصور الغريب الذى تصور به الناس طبيعة أجدادنا الأولين وطبيعة المجتمعات الأولى . فقد اعتقد الناس فى ذلك الحين ، كما جاء فى الاسرائيليات ، أن الله خلق الانسان كاملا وأن المجتمعات كانت مثلا عليا وأن الحضارة أفسدتها وأنه يجب العود اليها ، ولم يلبث مبدأ الرجوع الى الحالة الفطرية أن أصبح عاماً . قال روسو : « إن مبدأ الأخلاق الأساسى الذى بحثت عنه فى مؤلفاتى يدل على أن الانسان طيب بفطرته محب للعدل والنظام »

إلا أن العلم الحديث بحث عن طرق الحياة عند أجدادنا الأولين فأثبت فساد ذلك المذهب دالا على أن الرجل الفطرى كان وحشاً شرساً بعيداً من خلق الرفق والأدب والرحمة وأن اندفاعاته الغريزية كانت تسوده فكان يثب على فريسته عند الجوع وكان يقتل عدوه عندما يثيره الحقد .

ولا تعيد الحضارة الانسان الى الحالة الفطرية ، بل تساعده على الخروج منها ، فقد حوّل اليعاقبة المجتمع المتمدن الى قوم متوحشين عندما أرجعوهم ، بكسرهم زواجر المجتمع التى لا تقوم حضارة بدونها ، الى الحالة الفطرية .

ونعذر من أخطأ فى تصور الحال التى كان عليها أجدادنا الأولون . فقد كانت طرق حياتهم مجهولة قبل الاكتشافات الحديثة . ولكن لا نرى ما يسوغ جهل فلاسفة القرن الثامن عشر ومشترعى الثورة الفرنسية نفسية معاصريهم . فقد عاشوا بين معاصريهم من غير أن يدركوا حقيقة أمرهم أو أن تخطر الروح الشعبية ببالهم . فكانوا يظنون أن العامى رجل طيب ودود شاكر مستعد للاصغاء الى العقـــل ، وقد دلت خطب أعضاء المجلس التأسيسى على تمكن هذه الأوهام منهم ، فلما أخذ الفلاحون يحرقون القصور دهشوا من ذلك كثيراً فخاطبوهم بكلام رقيق سألوهم فيه أن يكفوا عن عملهم لكيلا يحزنوا مليكهم المحبوب وناشدوهم أن يشدهوه بفضائلهم .

٢ — أوهام الناس في قوة القوانين وفى إمكان فصل الانسان عن ماضيه .

نعد من المبادىء التى اتخذت أساساً لأنظمة الثورة الفرنسية مبدأ فصل الانسان عن ماضيه ومبدأ إمكان تجديد المجتمع بالأنظمة ، فقد اعتقد المشترعون فى ذلك الحين أن الماضى ، ماعدا القرون الخالية البعيدة ، مشبع من الخرافات والأضاليل فعزموا على قطع كل صلة به . ودوّنوا لاظهار مقصدهم تاريخاً جديداً وتقويماً جديداً مبدلين أسماء الشهور والفصول . وأوجب توهمهم أن الناس أكفاء ظنهم أنهم قادرون على الاشتراع للبشر كلهم . قال كوندرسى : « إن القانون الحسن نافع لكل الناس . »

وما علم مشترعو الثورة الفرنسية أن وراء ظواهر الأمور عوامل خفية تسيرها ، وأن الانسان مرتبط بماضيه كثيراً . وهم لجهلهم فعل الماضى أرادوا القضاء عليه فقضى عليهم .

كان ايمان المشترعين بقوة النظم والقوانين تاماً أيام الثورة الفرنسية . قال غريغوار فى المجلس التأسيسى : « إننا لقادرون على تغيير الدين ، ولكننا لا نريد ذلك » . والواقع أنهم أرادوا ذلك ، ولكن من غير توفيق . فهم لم يلبثوا أن انكشف عجزهم ، بعد كل ما أتوا به فى عشر سنين ، من اضطهاد وتخريب وحرق ومذابح ، فى سبيل الزام الناس بعض القوانين انكشافاً حوّل وجوه الناس عنهم فاضطر نابليون الى ترميم اكبر جانب مما هدموه .

وللتجربة العظيمة التى قام بها هؤلاء اليعاقبة فى سبيل تجديد المجتمع باسم العقل فائدة كبيرة ، قد لا تسمح الأحوال للانسان أن يعيدها مرة أخرى . ويظهر أنها ، على رغم قسوتها ، غير كافية لتحذير كثير من الناس ، فها نحن الآن نرى الاشتراكيين يقترحون تجديد المجتمع برمته حسب خططهم الوهمية .

٣ — أوهام الناس فى قيمة المبادىء الثورية

إن مبادىء الحقوق الأساسية التى قامت عليها الثورة الفرنسية مذكورة فى بيانات حقوق الانسان الثلاثة التى نشرت بالتتابع فى سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٣ ، وسنة ١٧٩٥ ، وقد صرحت كلها : « بأن السلطة للامة »

وهذه البيانات الثلاثة تختلف فى كثير من الأمور ولا سيما فى المساواة ، فقد جاء فى المادة الأولى من بيان سنة ١٧٨٩ : « أن الناس يولدون أحراراً ويعيشون أحراراً ، وهم متساوون حقوقاً » . وجاء فى المادة الثالثة من بيان سنة ١٧٩٣ : « أن الناس متساوون طبيعة » : وجاء فى المادة الثالثة من بيان سنة ١٧٩٥ ، وهو أكثر اعتدالا من سابقيه ، : « أن المساواة هى كون القانون واحداً للكل » ، وبعد أن تكلم واضعو هذا البيان الأخير عن الحقوق رأوا أن النص فيه على بعض الواجبات مفيد فشابه الانجيل فى مواعظه ، جاء فى المادة الثانية منه : « أن واجبات الانسان والوطنى كلها تنشأ عن مبدأين طبعتهما الطبيعة على القلوب وهما : « لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به وعاملهم بما تحب أن يعاملوك به » ، والذى بقى من تلك البيانات هو مبدأ المساواة ومبدأ السلطة الشعبية .

للشعار الجمهورى أى « الحرية والمساواة والاخاء » شأن كبير مع ضعف قيمته العقلية . ولهذا الشعار الساحر الذى نقش على جدُرنا قدرة عظيمة تعدل القدرة التى يعزوها السحرة الى بعض الألفاظ . وما القاه من الآمال فى القلوب سهل انتشاره ، وقد ضحى ألوف الناس بأنفسهم فى سبيله . والآن إذا اضطرمت ثورة فى العالم فان رجالها يستنجدون به .

حقاً إنهم يجيدون الاختيار . فالشعار المذكور من الأمثال المبهمة الساحرة للنفوس والتى يفسرها كل امرىء حسب ذوقه وحقده وخياله . ففى أمر الايمان لا شأن لمعنى الألفاظ الحقيقى ، وما سر قوة هذه الألفاظ إلا بما يعزى اليها من القدرة .

ومبدأ المساواة هو أكثر مبادىء الشعار الثورى دواماً . فسنرى فى مكان آخر أن هذا المبدأ وحده هو الذى ظلّ باقياً على وجه التقريب وأن نتائجه لم تزل بادية للعيان .

ولم تكن الثورة الفرنسية هى التى علمت العالم مبدأ المساواة ، ولا نحتاج لاثبات ذلك إلى التنقيب فى الجمهوريات اليونانية القديمة . فالنصرانية والاسلام قد أرشدا الناس الى هذا المبدإ ، وبيان ذلك أن الناس متساوون فى هاتين الديانتين . وهم عباد إله واحد ، ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى .

ولكن إعلان المبدإ لا يكفى لمحافظة الناس عليه . فالكنيسة النصرانية لم تلبث أن عدلت عن مبدإ المساواة النظرى . ولم يعبأ به زعماء الثورة الفرنسية إلا فى خطبهم .

ويختلف معنى المساواة باختلاف الناس . فمبدأ المساواة عند بعضهم يدل على رغبة الانسان فى أن لا يرى فوقه أحداً وأن يكون كل امرىء دونه . وهو عند يعاقبة الثورة الفرنسية ويعاقبة الوقت الحاضر ينم على مقت كل أفضلية والسعي إلى إبطال الافضليات بانكار التفاوت الطبيعى وتوحيد العادات والأوضاع والأزياء والمراتب .

وهذا لا يمنع من القول إنه كان ينطوى تحت تعطش زعماء الثورة الفرنسية الى المساواة رغبة فى التفاوت . وقد أدرك نابليون ذلك فأحدث ألقاب شرف وأوسمة لهم ، قال تاين :

« اكتشف نابليون تحت كلمة الحرية وكلمة المساواة اللتين كانت أفواههم تلوكهما ميلهم الى السيادة ورغبتهم فى الأمر والنهى والتفوق ، وقد رآى أن اكثرهم يطمع فى المال والترف وأنه لا فرق فى ذلك بين النائب فى لجنة السلامة العامة والوزير وبين الوالى ونائبه »

والرغبة فى مبدإ المساواة هى تراث الثورة الفرنسية الدائم . وأما مبدأ الحرية ومبدأ الاخاء اللذان اكتنفا مبدأ المساواة فى الشعار الجمهورى فتأثيرهما ضعيف ، ولم ينفعا أيام الثورة الفرنسية وفى العهد الامبراطورى إلا فى تزويق الخطب ، وما زاد تأثيرهما بعد ذلك قط ، فالامم لا عهد لها بمبدإ الاخاء فى زمن . ولم تبال بمبدإ الحرية إلا قليلا . وقد تركه العمال فى الوقت الحاضر لنقاباتهم . والخلاصة إن تأثير الشعار الجمهورى لم يكن فى غير الظاهر وأنه لم يبق من الثورة الفرنسية فى نفوس الشعب سوى تلك الألفاظ الثلاثة المشهورة المجملة لانجيلها . وقد نشرت هذه الألفاظ فى أنحاء اوربة بجيوشها كما هو معلوم .

الباب الثانى

تأثير العقل والعاطفة والتدين والاجتماع أيام الثورة الفرنسية

الفصل الأول

روح المجلس التاسيسى

---

١ — المؤثرات النفسية أيام الثورة الفرنسية .
٢ — انقضاء العهد السابق — اجتماع مجلس النواب .
٣ — المجلس التأسيسى .

---

١ — المؤثرات النفسية أيام الثورة الفرنسية

أثرت فى تكوين الثورة الفرنسية وفى دوامها عناصر نفسية وعاطفية ودينية واجتماعية تابع كل واحد منها لمنطق خاص ، ونشأ عن عدم التفريق بين هذه المؤثرات أن فسر كثير من المؤرخين ذلك الدور تفسيراً سيئاً .

كان عمل العقل الذى اتخذ للتفسير والايضاح ضعيفاً ، فهو وإن أعد الثورة الفرنسية لم يبد تأثيره إلا فى أوائلها .أى أيام كان أمرها فى قبضة أبناء الطبقة الوسطى الذين وضعوا لوائح إصلاح الضرائب والغاء امتيازات الأشراف الخ .

وعند ما تغلغلت الثورة المذكورة فى الشعب تقهقر عنصر العقل أمام عناصر العاطفة والاجتماع ، ودفع عنصر التدين الجيوش الى التعصب وأوجب انتشار المعتقد الجديد فى العـــالم .

وربما كان العامل الديني أهم تلك المؤثرات . فلا يمكن ادراك الثورة الفرنسية ، الا اذا اعتبرنا تكوينها مثل تكوين الثورات الدينية كثورة الأصلاح الديني مثلا .

حاول الفلاسفة زمناً طويلا إثبات ما للمعتقدات من القيمة العقليـة الضعيفة . والآن أخذوا يفسرون شأنها تفسيراً أتم واحسن . فاضطروا الى الاقرار بانها ذات تأثير كاف لتغيير عناصر الحضارة .

تسخر المعتقدات الناس غير مستعينة بالعقل . وعندها من القدرة ما يكفي لتحويل الأفكار والمشاعر نحو غرض واحـد . ولا تضاهي قوة العقل المطلق قوتها ، فليس هو الذي يلقى الحمية في قلوب الناس .

و يوضح لنا اللباس الديني الذي لبسته تلك الثورة قوة انتشارها ومالها من النفوذ في الحال والماضي . والمؤرخون الذين اعتبروا هـــذا الحادث العظيم ديناً جديداً قليلون . وأظن أن توكفيل هو أول من انتبه لذلك . فقد قال : « إن الثورة الفرنسية ثورة سياسية سارت على نمط الثورات الدينية و توغلت مثلها في البلاد بالدعوة والأرشاد . »

و إذا ثبت لدينا ما في الثورة الفرنسية من عنصر ديني سهل علينا إيضاح ما أوجبته من هياج وتخريب وعدوان وعدم تسامح وحروب وفنـاء . فقد أثبت التاريخ أن هذه الأمور من عادتها أن تنشأ عن المعتقدات .

وعنصر التدين هو دعامة المعتقـدات . ولا يلبث أن ينضم اليه ما ينشأ عن عنصر العاطفة من مشاعر وأهواء ومنافع . ثم يأتي العقـل فيكتنف ذلك كله ليسوغ حوادث لم تنشأ عنه قط .

فقد كان كل إنسـان أيام الثورة الفرنسية يلبس المعتقد الجـديد ثوباً عقلياً مختلفاً باختلاف رغائبه . فرأت الأمم فيها إلغاء ما كابدته من سلسلة مراتب واستبداد ديني وظلم سياسي . وظن الكتاب ، مثل غوتيه ، والفلاسفة ، مثل كانت ، انهم اكتشفوا فيها انتصار العقل . وأتى الأجانب ، مثل هومبولت بلاد فرنسة ليستنشقوا فيها نسيم الحرية و يشاهدوا جنازة الظلم والاستبداد .

غير أن هذه الأوهام لم تدم طويلا . فقـد انكشف الغطاء بسرعة عن حقيقـة تلك الرواية المحزنة .

٢ — انقضاء العهد السابق — اجتماع مجلس النواب

قبل أن تنشب الثورات تتكون فى عالم الفكر . والثورة الفرنسية التى أعدتها الأسباب المذكورة آنفاً بدأت تظهر فى أيام لويس السادس عشر حين كان ابناء الطبقة الوسطى يكثرون من طلب الأصلاح .

واطلع لويس السادس عشر على ما فى الاصلاح من فوائد . ولكنه عجز لضعفه عن إلزام الأشراف والاكليروس بالاصلاح كما أنه عجز عن تأييد وزرائه المصلحين كالزرب وتورغو .

أوجبت المجاعات شقاء الناس وزيادة الضرائب فدعى الأعيان ليعالجوا الأزمة المالية فرفضوا المساواة فى الضرائب ولم يسلموا الا باصلاح زهيد لم يرض بارلمان باريس أن يسجله فانفض ، وشاطرته برلمانات الولايات رأيه فانفضت أيضاً . إذ ذاك استصرخت هذه البرلمانات الرأى العام على مطالبة الحكومة بدعوة مجلس النواب الذى لم يجتمع منذ قرنين .

وافقت الحكومة الرأى العام على ذلك فانتخب الناخبون ، وعددهم خمسة ملايين منهم ١٠٠,٠٠٠ ناخب من الاكليروس و ١٥٠,٠٠٠ ناخب من الأشراف ، الفاً ومئتى ناخب . ومن هؤلاء النواب ٥٨٧ كانوا يمثلون الطبقة الثالثة . ومنهم ٣٠٠ كانوا يمثلون الاكليروس .

وقد بدت منذ الاجتماعات الأولى اختلافات روحية بين اولئك النواب . فلما ستر نواب الاشراف والاكليروس فى الاجتماع الأول رؤوسهم أمام الملك حسب امتيازاتهم وأراد نواب الطبقة الثالثة تقليدهم احتج اولئك على هؤلاء . ولما دعا نواب الطبقة الثالثة نواب الأشراف والاكليروس المجتمعين فى ردهتين بعيدتين الى اجتماع مشترك لكى يفحصوا وثائق النيابة رفض الاشراف ذلك . عندئذ اعتبر نواب الطبقة الثالثة أنفسهم ممثلين لـ ٩٥ فى المئة من مجموع الأمة بناء على اقتراح الشماس سيايس . وهكذا لاحت بوادر الفتنة .

٣ — المجلس التأسيسى

أخذ مجلس النواب منذ البداءة يقول ويفعل قول الآمر الناهى وفعله . ثم ادعى ان وضع الضرائب من خصائصه فاعتدى بذلك على حقوق الملك .

وقد كانت مقاومة لويس السادس عشر ضعيفة فاكتفى باغلاق ردهة مجلس النواب فاجتمع النواب فى ردهة (جودوبوم) حيث أقسموا أنهم لا يتفرقون قبل أن يسنوا دستوراً للمملكة . ثم انضم اليهم اكثر نواب الاكليروس . وقد نقض الملك قرار المجلس فامر النواب بالانصراف . وعندما دعا رئيس الحجاب المركيز (دو دروبريزى) النواب الى العمل بامر الملك صرح رئيس المجلس « بان الأمة وهى مجتمعة لا تتلقى أمراً من أحد » وخاطب ميرابو رسول الملك قائلا : « ان المجلس الذى اجتمع بامر الأمة لا تفضه إلا قوة الحراب » ، حينئذ أذعن الملك . وفى اليوم التاسع من يونيو سمى النواب مجلسهم المجلس التأسيسى وهكذا اعترف الملك بسلطة جديدة كانت مجهولة فى الماضى . أى بسلطة الأمة التى يمثلها نوابها . فطويت بذلك صحيفة الملكية المطلقة .

ولما أحس لويس السادس عشر انه فى خطر دائم أقام فى أطراف فرساى كتائب من مرتزقة الأجانب . فطلب اليه المجلس أن يسرحها فامتنع وعزل نيكر وأقام فى مكانه المرشال دو بروغلى المشتهر بحزمه وعند ذلك قام كاميل ديمولان وغيره من الخطباء يعظون الجماعة ويدعونها الى الدفاع عن الحرية ثم قرعوا النواقيس تهيجاً للناس ،وجندوا ١٢٫٠٠٠ جندى واستولوا على مستودع البندقيات والمدافع وساقوا عصابات مسلحة فى ١٤ يوليو الى الباستيل فسلم هذا الحصن بعد دفاع استمر بضع ساعات .

كان الباستيل الذى هو سجن كثير من ضحايا الظلم رمز الاستبداد الملكى ، ولكن لم يوجد ما يحمل الشعب الذى هدمه يتألم منه . إذ لم يعتقل فيه سوى الاشراف . واستمر تأثير الاستيلاء على قلعة الباستيل حتى اليوم . فاليك ما قاله المؤرخ الكبير مسيو رامبو .

« إن الاستيلاء على الباستيل حادث عظيم . لا فى تاريخ فرنسة وحدها بل فى تاريخ أوربة كلها . إذ إنه فتح دوراً جديداً فى تاريخ العالم . »

فى هذا القول البسيط شيء من المبالغة . فقيمة ذلك الحادث أنه أعطى الشعب أول مرة مثالا واضحاً على وهن سلطة الملك التى كانت مخيفة . ومتى تزلزل مبدأ السلطة انحل سريعاً ، وما هو الشيء الذى لا يطلب من الملك العاجز عن الدفاع عن حصنه الخاص إزاء حملات الشعب ؟ هكذا أصبح السيد ذو الحول والقوة فى الماضى ، لا يقدر على شيء .

وبعد الاستيلاء على الباستيل أخذت علامات التمرد تظهر على مرتزقة الاجانب فرضى

لويس السادس عشر بتسريحهم . ثم استدعى نيكر ثانية وذهب الى دار البلدية فاستصوب الأمور التى وقعت واستحسن الراية الجديدة ذات الألوان الثلاثة (الأزرق والأبيض والأحمر) التى أتى بها قائد الحرس الوطنى لا فايت والتى كانت تجمع بين راية الملك وراية مدينة باريس .

ويدلنا الاستيلاء على الباستيل على الوقت الذى شرع الشعب فيه يقبض على ناصية الحكم ، فقد أخذت مداخلة الشعب المسلح تظهر بعد ذلك الاستيلاء فى مذاكرات المجالس الثورية .

وقد عجب كثير من مؤرخى الثورة الفرنسية لهذه المداخلة وحدثوا عنها باحترام ، فلو بحث هؤلاء ، بحثاً سطحياً على الأقل ، عن روح الجماعات لرأوا أن الشعب لم يفعل غير ما أراده بعض الزعماء وأن من الخطأ قولهم: إن الشعب استولى على الباستيل وهجم على التويلرى واحتل مجلس العهد الخ . فالقول الحق هو : أن بعض الزعماء جمعوا بواسطة الأندية عصابات من الشعب ساقوها الى الباستيل والتويلرى الخ . وأن هذه الجماعات نفسها هى التى هجمت أيام الثورة الفرنسية على أشد الأحزاب اختلافاً ودافعت عنها حسب أهواء الزعماء ولم يكن للجماعات غير رأى رؤسائها .

وبفعل التلقين عقب الاستيلاء على الباستيل تخريب حصون أخرى . فاعتبر الفلاحون كثيراً من القصور باستيلات صغيرة وطفقوا يحرقونها مقتدين بسكان باريس وكان غضبهم يشتد كلما وجدوا فى تلك القصور صكوكاً إقطاعية .

والمجلس التأسيسى الذى أظهر غطرسة أمام الملك كان كثير الجبن ازاء الشعب . فقد وافق بالأجماع فى الليلة الرابعة من شهر اغسطس على اقتراح الشريف الكونت دونواى القائل بالغاء حقوق الأمراء الاقطاعيين راجياً بذلك ختام المشاغبة . وقد تمت هذه الموافقة الأجماعية التى ألغيت بها امتيازات الأشراف دفعة واحدة وأعضاء المجلس يتعانقون باكين من شدة الفرح . ويتضح لنا مثل هذا العارض الحماسى عند النظر الى فعل العدوى النفسية فى الجماعات ولا سيما فى المجالس التى استحوذ عليها الخوف .

ولو أقلع الأشراف عن امتيازاتهم قبل ذلك ببضع سنين لاجتنبت الثورة الفرنسية . ولكن ما العمل وقد وقع ذلك بعد أوانه ، ولا يفيد ترك الحقوق كرهاً غير زيادة رغائب من تركت لأجلهم . فيجب فى عالم السياسة كشف عواقب الأمور ومنح المطاليب طوعاً قبل أن يحل الوقت الذى تمنح فيه كرهاً .

تردد لويس السادس عشر مدة شهرين فى الموافقة على قرار المجلس التأسيسى الذى أصدره ليلة ٤ أغسطس ثم ذهب الى فرساى فساق اليه الزعماء عصابة لا تقل عن سبعة آلاف شخص فكسرت هذه العصابة حواجز القصر الملكى وقتلت بعض الحرس وجيء بالملك وأسرته الى باريس بين جماعة تصرخ وأناس يحملون على رؤوس حرابهم هامات قتلى الحرس .

عظمت شوكة الشعب وأصبح الملك فى قبضته . أى تحت رحمة الأندية وزعمائها ، ودامت هذه الشوكة الشعبية عشر سنين فكانت ركن الثورة الفرنسية الركين

وعلى رغم اعلان المجلس التأسيسى مبدأ سيادة الشعب جاوزت الفتن الشعبية حد ظنونه فرآى أنه بوضعه دستوراً يضمن للناس سعادة أبدية يعود الكل الى النظام .

كان سن القوانين ثم نقضها ثم تجديدها شغل المجالس أيام تلك الثورة، وكان ذلك ناشئاً عن اعتقاد أعضاء هذه المجالس أن القوانين قادرة على تحويل المجتمعات . ومن هذه القوانين البلاغ الذى نشره المجلس التأسيسى ولخص فيه مبادئه فى حقوق الانسان ريثما يضع دستور البلاد

ولم يؤثر الدستور والبلاغات والخطب فى الفتن الشعبية . وقد عانى المجلس التأسيسى الذى دب الشقاق فيه استبداد الحزب المتطرف المستند الى الأندية . فقد كان أصحاب النفوذ من الزعماء كدانتون وكاميل ديمولان ومارا وايبر يهيجون الرعاع بخطبهم وجرائدهم فيتسلطون بذلك على المجلس التأسيسى .

ولم تتحسن مالية البلاد فى أثناء هذه الفتن فأمر المجلس التأسيسى فى ٢ نوفمبر سنة ١٧٨٩ أن يعالجها بالاستيلاء على أملاك الكنيسة . وقدرت محاصيل هذه الأملاك والزكاة التى كانت تأخذها الكنيسة من المؤمنين بمبلغ مئتى مليون وقدر ثمنها بمبلغ ثلاثة مليارات . وكانت محاصيل هذه الأملاك توزع على بضع مئات من الأساقفة واكليروس البلاط فجعلت هذه الأملاك التى سميت فيما بعد الأملاك الوطنية . ضماناً للأوراق النقدية . وصدر فى المرة الأولى من هذه الأوراق اربعمئة مليون فأقبل عليها الجمهور فى البداءة ولكن مقدارها زيد فى دور العهد ودور الديركتوار فبلغ ٤٥ ملياراً فأصبحت ورقة الليرة لا تساوى سوى بضعة سنتيمات

ولويس السادس عشر الضعيف أغرته حاشيته فحاول عبثاً أن لا يوافق على قرارات

المجلس التأسيسى . وانتشرت الحركة الثورية بالعدوى النفسية مستقلة عن المجلس التأسيسى ، وتألفت فى المدن والقرى بلديات ثورية يخفرها حرس وطنى محلى وكانت المدن المجاورة تتفق على الدفاع عن نفسها عند الحاجة . وأرسلت هـذه المدن فى ١٤ يوليو سنة ١٧٩٠ ، حرساً وطنياً مؤلفاًمن ١٤٫٠٠٠ رجل الى حى شاندومارس فى باريس حيث أقسم الملك يمين الاخلاص للدستور الذى سنه المجلس الوطنى .

وعلى رغم هذه اليمين تعذر الائتلاف بين مبادىء الملكية الوراثية والمبادىء التى أعلنها المجلس ، فالتجأ الملك الى الفرار فقبض عليه فى فارين وسيق الى باريس أسيراً فأسكن قصر التويلرى ، ومنع من التصرف فى سلطته ، وأخـذ المجلس التأسيسى على عاتقه القيام بأمور الحكومة . وما وجد ملك فى موقف حرج كموقف لويس السادس عشر ، الذى تخلى عنه الجيش ، بعد فراره ، ولو كان له دهاء ريشليو ما كفاه لخروجه من ذلك المأزق .

لا شك فى أن اكثرية الأمة الفرنسية كانت ملكية أيام المجلس التأسيسى ، الذى هو ملكى أيضاً ، وكان من المحتمل أن يظل الملك قابضاً على زمام الحكم لو رضى بنظام ملكى دستورى . ولم يكن عليه إلا أن يأتى بعمل قليل ليتفاهم هو والمجلس ، ولكن هذا العمل كان يتعذر على رجل مثله . ولو رضى بتعديل النظام الملكى الذى انتقل اليه عن الآباء لانتصبت امامه أشباح أجداده وحالت دون ذلك . أضف إلى هذا أنه كان يستحيل عليه أن يتغلب على أسرته والاكليروس والأشراف والبطانة أى على الطبقات التى استند اليها النظام الملكى والتى كانت ذات قوة تضاهى قوة الملك تقريباً . والقوة هى التى كانت ترغم الملك على الاذعان ، واستغاثته بالأجنبى تدلنا على أن اليأس بلغ فيه منتهاه حينما رأى تداعى أركانه الطبيعية كلها .

ولما رأى زعماء الأندية أن المجلس التأسيسى ملكى من كل وجه سلطوا عليه الشعب الذى لم يلبث أن طلب منه أن يجمع مجلساً جديداً ليحاكم لويس السادس عشر ، وعزم المجلس التأسيسى على الدفاع إزاء ذلك فساق بقيادة لافايت كتيبة من الحرس الوطنى الى حىّ شاندومارس لتشتيت الجماعة المحتشدة هنالك .

إلا أن المجلس التأسيسى لم يصر على المقاومة طويلا ، فقد نشأ عن شدة جبنه أمام الشعب انتزاعه كل يوم شيئاً من امتيازات الملك وسلطته ، حتى صار الملك موظفاً بسيطاً .

نعم ظن المجلس التأسيسى أنه قادر على القيام بأعباء السلطة التى انتزعها من الملك . ولكن ذلك كان فوق طاقته . فالسلطة الكثيرة التجزئة لا عمل لها .

لم يلبث المجلس التأسيسى الذى ظنّ أنه قبض على مختلف السلطات وأنه يتصرف فيها على طريقة لويس الرابع عشر ، أن عجز عن العمل . وكلما ضعفت قدرته تفاقمت الفوضى . ولم يكف الزعماء طرفة عين عن تهييج الشعب فأصبحت الفتنة شاملة للبلاد كلها واستولى على المجلس كل يوم فئة من المشاغبين المتجبرين ، يملون عليه رغائبهم متوعدين منذرين .

وتلك الفتن الشعبية التى أطاعها المجلس على رغمه لم تكن غريزية بل كانت صادرة عن الأندية والجمعية الثورية ، وكان النادى اليعقوبى أقوى الأندية ، وسرعان ما أسس فى الولايات خمسمئة فرع له ، واستمر سلطانه أيام الثورة الفرنسية كلها وتسلط على فرنسة جميعها بعد تسلطه على المجلس التأسيسى ولم يزاحمه غير الجمعية الثورية التى انحصر نفوذها فى باريس ، ولما صار الشعب غير راضٍ عن المجلس التأسيسى لضعفه وعجزه أسرع هذا المجلس فى إتمام الدستور الجديد لينفضّ بعد ذلك ، وكان المجلس المذكور سخيفاً فى قراره الأخير الذى صرح فيه أنه لا حقّ لأعضاء المجلس التأسيسى أن يكونوا أعضاء فى المجلس الاشتراعى القادم ، إذ حرم بذلك أعضاء المجلس الاشتراعى تجربة سلفهم .

تم وضع الدستور فى ٣ سبتمبر سنة ١٧٩١ وفى ١٣ منه وافق عليه الملك الذى أعاد اليه المجلس سلطته ، وقد نص هذا الدستور على حكومة نيابية فعهد فى السلطة الاشتراعية الى نواب ينتخبهم الشعب وعهد فى السلطة التنفيذية الى ملك يحق له أن يرفض قرارات المجلس ، ثم قسم المملكة الى مديريات بدلا من تقسيمها السابق الى ولايات والغى الضرائب القديمة مقيما فى مكانها ما هو معمول به حتى الآن من ضرائب مقررة وغير مقررة .

وقد ظن المجلس التأسيسى الذى غير تقسيم المملكة وقلب نظامها الاجتماعى القديم أنه قادر على تحويل نظامها الدينى أيضاً ، فأراد أن يستولى على نفوذ البابا فى البلاد . وذلك بأن يجعل الشعب منتخباً لرجال الاكليروس ، وقد أدى هذا القانون المدنى الاكليروسى

الى اضطهادات دينية استمرت حتى العهد القنصلى ونشأ عنها امتناع ثلثى القساوسة عن حلف يمين الاخلاص .

أتت الثورة الفرنسية فى دور المجلس التأسيسى الذى استمر ثلاث سنوات بنتائج عظيمة . وربما كان أهمها نقل ثروة أصحاب الامتيازات الى أبناء الطبقة الثالثة ، فقد أدى ذلك الى ظهور أنصار ملتهبين حماسة للنظام الجديد . وبعد أن أدرك أبناء الطبقة الثالثة الذين حلوا محل الأشراف والفلاحون الذين اشتروا الأملاك الوطنية أن إعادة النظام السابق يحرمهم جميع تلك الفوائد دافعوا عن الثورة الفرنسية أشد دفاع . وبلغت قوتهم ، وهم الذين تغلبوا على كل معارضة ، مبلغاً أصبحوا به قادرين على الذود عن المثل الأعلى الجديد وعن منافعهم المادية . وسنرى أن تأثير هذين العاملين أعان على قيام الامبراطورية.

الفصل الثانى

روح المجلس الاشتراعى

١ ـ الحوادث السياسية أيام المجلس الاشتراعى
٢ ـ أحوال المجلس الاشتراعى النفسية

١ ـ الحوادث السياسية أيام المجلس الاشتراعى

لنلخص ما وقع أيام المجلس الاشتراعى الذى استمر حكمه سنة واحدة من الحوادث السياسية العظيمة .

لم يفكر المجلس الاشتراعى ، وهو ملكى كالمجلس التأسيسى السابق ، فى القضاء على الملكية ، بل كان ، مع ارتيابه من الملك ، راغباً فى المحافظة على الملكية . إلا أن لويس السادس عشر كان يطلب مداخلة الأجانب وكان يتردد بين عوامل متناقضة أيام إقامته فى قصر التويلرى . وكان كتاب الجرائد التى أمدها بالمال لتحول الرأى العام يجهلون صناعة التأثير فى روح الجماعات . فكانت طريقتهم الوحيدة فى الاقناع تهديد أنصار الثورة بالقتل وانذار الناس باستيلاء جيش أجنبى على البلاد لانقاذ الملك .

أصبح الملك يعتمد على ملوك الأجانب . وأضحى الأشراف يهجرون البلاد أفواجاً أفواجاً . وصارت بروسية والنمسة وروسية تتوعد فرنسة بالاستيلاء عليها ، وأخذ البلاط يروج دسائس هذه الدول . فاقترح النادى اليعقوبى أن يناهض تألب الملوك على فرنسة بعقد محالفة بين الشعوب ضد ملوكها ، وكان الجيروندبون واليعاقبة قابضين حينئذ على زمام الثورة فجهزوا جيشاً مؤلفاً من ٦٠٠,٠٠٠ متطوع فأكرهوا الملك على تأليف وزارة جيروندية ، وهـذه الوزارة جعلت لويس السادس عشر يقترح على المجلس شهر الحرب على النمسة فوافق المجلس على ذلك من فوره .

غير أن الملك لم يكن مخلصاً فى شهر الحرب ، فاطلعت النمسة ، عن طريق الملكة ، على خطط فرنسة الحربية وعلى أسرار مجلس الوزراء . وكانت فاتحة الحرب مشؤومة فتشتت فرق كثيرة حينما هوجمت بغتة وثار سكان الضواحى لاعتقادهم أن الملك والأجانب يأتمرون بالبلاد فساقهم زعماء اليعاقبة فى ٢٠ يونيو الى المجلس الاشتراعى حاملين عريضة يتوعدون فيها الملك بالخلع . ثم استولوا على قصر التويلرى وشتموا الملك .

كان القدر يسوق لويس السادس عشر الى نيل جزائه . فبينما كان وعيد اليعاقبة للملكية يغضب مديريات كثيرة علم الناس وصول جيش بروسى إلى حدود لورين . وقد ظنت ملكة فرنسة مارى انتوانيت أنها تقدر على تخويف سكان باريس وإرجاعهم إلى إمرة الملك بالوعيد والتهديد فأمرت فيرسان أن ينشر تصريح دوك برنسويك الذى هدد فيه باريس « بتخريبها إذا أصيبت أسرة الملك بسوء » . فكانت النتيجة غير ما توقعت ، إذ اعتقد الناس أن الملك شريك الاجنبى فسخطوا عليه وزادوا منه نفوراً .

ثم حرض دانتون زعماء الأندية ، فاقاموا فى دار البلدية جمعية ثورية ، وهذه الجمعية سجنت قائد الحرس الوطنى المخلص للملك ثم قرعت النواقيس إيقاظاً للناس . وأثارت الحرس الوطنى وساقته مع السوقة فى ١٠ اغسطس الى قصر التويلرى فتفرقت الكتائب التى استدعاها لويس السادس عشر ولم يبق للدفاع عنه غير بعض المرتزقة وبعض الأشراف . وقد قتل هؤلاء كلهم تقريباً . حينئذ التجأ الملك الى المجلس الاشتراعى فطلبت الجماعة خلعه فقرر المجلس الاشتراعى نزع السلطة منه تاركا أمر مصيره لمجلس العهد القادم.

٢ — أحوال المجلس الاشتراعى النفسية

فى البحث عن المجلس الاشتراعى المؤلف من أعضاء جدد فائدة نفسية ، فالمجالس التى تجلت فيها صفات الجماعات السياسية ، مثل ذلك المجلس ، قليلة العدد .

كان عدد نوابه سبعمئة وخمسين . وكانوا منقسمين الى ملكيين متطرفين وملكيين دستوريين وجمهوريين وجيرونديين ومونتانيار وكانت اكثريته من المحامين والأدباء ، وقد اشتمل أيضاً على قليل من الأساقفة الدستوريين وكبار الضباط والقسيسين والعلماء .

كانت مبادىء أعضاء هذا المجلس صبيانية . فكان اكثرهم مشبعاً من أفكار روسو فى العودة الى الفطرة الأولى ، وكانوا كلهم يميلون الى الاغريق والرومان الأقدمين ويستندون

إلى أفكار كاتون وبروتوس وغراكوس وبلوتارك ومارك اوريل وأفلاطون ، وكانوا عندما يريدون شتم لويس السادس عشر يسمونه كاليغولا

كانوا ثوريين لرغبتهم فى القضاء على التقاليد ، ولكنهم كانوا أيضاً رجعيين لطمعهم فى العودة الى ماض قديم ، غير أن النظريات لم تؤثر فى سيرهم إلا قليلا فكان العقل يظهر فى خطبهم دون أعمالهم ، وقد استولت وساوس العاطفة والدين عليهم .

كانت أحوال المجلس الاشتراعي النفسية مثل أحوال المجلس التاسيسي النفسية ، وهى تلخص فى أربع كلمات ، سرعة الانفعال وسرعة التقلب والجبن والضعف . ويستدل على سرعة تقلبه وسرعة انفعاله من تحولاته المستمرة . فكان أعضاؤه يوماً يتشاتمون ويتلاكزون ويوماً يتعانقون باكين . وقد هتفوا هتافاً شديداً للعريضة التى التمسوا فيها مجازاة من طلبوا خلع الملك . ثم حيوا الوفد الذى أتى فى اليوم نفسه ليطلب خلعه . ويستدل على ضعف المجلس الاشتراعى وجبنه بقراره نزع السلطة من الملك مع أنه ملكى وقبوله طلب الجمعية الثورية تسليم الملك وأسرته اليها لتسجنه فى برج تامبل . وهكذا كان حال المجلس الاشتراعى الذى عجز عن التصرف فى سلطته ففوض زمامه الى الجمعية الثورية والأندية التى كان يديرها زعماء نافذون كتاليان وإيبر ومارا وبوسينيول وروبسبير .

وقد ظلت تلك الجمعية الثورية مسيطرة على الحكومة حتى الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية (ترميدور ١٧٩٤) ، وكانت تسير كأن إدارة باريس فوضت اليها ، فهى التى طلبت سجن لويس السادس عشر فى برج تامبل مع أن المجلس الاشتراعى أراد اعتقاله فى قصر لكسنبرغ ، وهى التى ملأت السجون بالمتهمين ثم أمرت بذبحهم .

وأمر الوحشية التى أبادت بها عصابة مؤلفة من ١٥٠ عائثاً ما يقرب من ١٢٠٠ نفس فى أربعة أيام مشهور ، فقد دفعهم الى هذه المذابح المسماة مذابح سبتمبر بضعة أعضاء من الجمعية الثورية ، وكان بيتون رئيس بلدية باريس قد احتفى بهؤلاء القتلة فسقاهم خمراً ، فاحتج على ذلك بعض الجيروندويين دون اليعاقبة الذين التزموا جانب السكوت .

وتجاهل المجلس الاشتراعى تلك المذابح التى حث على اقترافها كثير من أعضائه كبيوفارين وكوتون . وهو ، لعجزه عن منع استمرار قتل الناس ، انفض بعد خمسة عشر يوماً من تاريخ وقوع ذلك الحادث فاسحاً المجال لمجلس العهد .

لا شك فى أنه كان مسيئاً بأعماله ، لا بنياته ، فمع كونه ملكياً أقلع عن الملكية ، ومع انتحاله مذهب الانسانية ، حدثت مذابح سبتمبر على مرأى منه ، ومع أنه كان مسالماً فقد زجّ بفرنسة فى حرب طاحنة ، فأثبت لنا بسيره أن الحكومة الضعيفة تؤدى إلى خراب الوطن على الدوام .

دلنا تاريخ المجلسين الثوريين الأولين (التأسيسى والاشتراعى) على تماسك الحوادث بعضها ببعض وأنها سلسلة ضرورات قد تتصرف فى حلقاتها الأولى ، وأما حلقاتها الأخرى فانها تتكيف مستقلة عن إرادتنا ، فقررات المجلس التأسيسى الأولى وإن صدرت عن العقل والارادة وقعت نتائجها مستقلة عن كل إرادة وعقل وتبصر ، ومن كان يجرؤ من رجال سنة ١٧٨٩ على طلب قتل لويس السادس عشر أو يستطيع أن يخبر بذلك القتل وبحروب فانده وبالهول الأكبر وبالمقصلة وبالفوضى ثم بالرجوع الى التقاليد والنظام على يد جندى حديدى ؟

وربما كان تأليف حكومة من الجماعات ونموُّها أظهر الحوادث التى نشأت عن أعمال المجالس الثورية الأولى ، ومن خلال الحوادث المذكورة سابقاً ، أى الاستيلاء على الباستيل وعلى قصر فرساى والهجوم على مستودعات التويلرى وقتل الحرس الملكى وخلع الملك واعتقاله ، تتبين سنن روح الجماعات وروح زعمائها

وسنرى أن سلطة الجماعات سادت البلاد شيئاً فشيئاً فاستعبدت السلطات كلها ثم حلت محلها فى نهاية الأمر .

الفصل الثالث
روح مجلس العهد

١ — قصة مجلس العهد
٢ — تأثير انتصار الديانة اليعقوبية
٣ — صفات مجلس العهد النفسية

١ — قصة مجلس العهد

وثائق تاريخ مجلس العهد النفسية كثيرة . وهي تثبت لنا أن شهود أحد الأدوار لا تكون أحكامهم صحيحة بما يشاهدونه من الحوادث والناس .

ولم تصدر أحكام بالثورة الفرنسية عليها مسحة من التدقيق الا بعد مضى قرن كامل على نشوبها . ولم تكن هذه الأحكام سديدة من كل وجه . فالوصول إلى ذلك يتطلب إخراج الوثائق من الخزائن القديمة وكشف غشاوة القصص التي حجبت الحقيقة مع الزمن

وربما كانت قصة أولئك الذين نعتهم الآباء بغيلان العهد أشد تلك القصص فعلا فى النفوس . ومحاربة رجال العهد لفرنسة الثائرة ولأوربة المدججة بالسلاح تركت فى الناس تأثيراً جعلهم يظنون أن أبطالها مخلوقون من طينة أسمى من طينة البشر .

يظل وصف أولئك الرجال بالغيلان سائغاً مادامت حوادث ذلك الدور تظهر كأنها حادثة واحدة . أى ما دامت أعمال الجيوش الجمهورية تختلط بأعمال جيوش العهد . فبهذا الاختلاط يدهش الناس من العز الذى نالته الجيوش الجمهورية فيغضون النظر عما اقترفته جيوش العهد من قسوة وقتل وتخريب . غير أن الحقيقة ظهرت بفضل النقد الحديث فحافظت الجمهورية على احترام الناس لها وخسر رجال العهد، الذين لم يبالوا بغير الحروب الأهلية، مقامهم الأدنى .

حقاً انه لم يهتم بأمر الجيوش فى ذلك الحين سوى عضوين أو ثلاثة أعضاء من لجان مجلس العهد . ولم يتم النصر لهذه الجيوش الا بفضل عددها ودهاء قوادها وما أدخله الايمان الجديد من الحماسة الى قلوبهم . وسوف نبين فى فصل آخر، نبحث فيه عن الجيوش الثورية ، كيف انتصرت تلك الجيوش على أوربة الشاكية السلاح وسارت مشبعة من مبادىء الحرية والمساواة التى هى انجيل ذلك الزمن فوصلت الى الحدود وأقامت فيها مدة طويلة متمسكة بنفسية خاصة تختلف عن نفسية الحكومة التى جهلت أمرها فى البداءة وازدرتها فى النهاية .

لم يبال رجال مجلس العهد بانتصار الجيوش . وانما اقتصروا على الاشتراع الفجّ حسب أهواء زعمائهم الذين أرادوا تجديد فرنسة بالمقصلة . فمن أجل تلك الجيوش المستبسلة صارت قصة العهد تاريخاً مبجلا . وهذا التبجيل أخذ يزول الآن . فالبحث المفصل عن نفسية غيلان العهد أثبت أنهم كانوا قليلى العقل والذكاء . وقد اعترف ، بذلك ، أشد الناس دفاعاً عنهم ، كمسيو أولار ، فاليك ماقاله هذا المؤلف فى كتابه الذى سماه (تاريخ الثورة الفرنسية) :

« من الوهم قول الناس إن الجيل الذى قام بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٩ بأعمال عظيمة هو من الغيلان أى أرفع من الجيل الذى جاء قبله والجيل الذى جاء بعده . فلم يكن مؤسسو الجمعيات البلدية والأحزاب اليعقوبية والوطنية التى قامت بالثورة الفرنسية أسمى ذكاء ونبوغاً من رجال فرنسة أيام لويس الخامس عشر أو لويس فيليب . وهل كان أولئك الذين حفظ التاريخ أسماءهم ، لظهورهم فى مسرح باريس ، أو لأنهم أخطب خطباء المجالس الثورية ذوى مزايا وطبائع نادرة ؟ نعم قد يستحق ميرابو أن يلقب بالخطيب العبقرىّ ، ولكن هل كان روبسبير ودانتون وفرنيو أفصح من خطبائنا فى الوقت الحاضر مثلا ؟ كلا . »

وإذا بحثنا عن رجال مجلس العهد وهم مجتمعون رأينا أنهم لم يتصفوا بشيء من الذكاء والفضيلة والشجاعة وأن الخوف لم يبد على جماعة كما بدا عليهم ، وأن عملهم انحصر فى الخطب

كان هذا المجلس المختال ، الذى كان يتوعد الملوك أجبن المجالس السياسية التى عرفها العالم وأشدها خضوعاً . فقد كان ينقاد كالعبد للاندية والجمعية الثورية ويرتجف فرقاً أمام الوفود الشعبية التى كانت تستولى عليه كل يوم ويعمل بوصايا مثيرى الفتن ، وقد سلم

اليهم أنبل أعضائه وعمـــل بوصاياهم فسن قوانين عقيمة اضطر إلى الغائها بعد أن تركوا ردهة الاجتماع .

والمجالس التى هى ضعيفة مثل ذلك المجلس قليلة . ومن يود أن يعلم الدرك الذى تهبط اليه الحكومات الشعبية فليذكر قصة مجلس العهد .

٢ — تأثير انتصار الديانة اليعقوبية

نعد الديانة الثورية من أهم الأسباب التى منحت دور العهد صبغته الخاصة . وقد كمل فى هذا الدور صوغ العقيدة التى كانت فى طور التكوين .

وتتألف هذه العقيدة من عناصر مختلفة . وهـــذه العناصر — أى الفطرة وحقوق الانسان والحرية والمساواة والعقد الاجتماعى والسلطة الشعبية — هى فصول انجيـــل لا يجادل المؤمنون فيه ، ولها رسل راسخو الايمان بسلطتهم . وقد حاولوا ، شأن المعتقدين فى كل جيل ، أن يسخروا العالم لهـا بالقوة غير مبالين بأحد .

والحقد على الخوارج هو، كما بينا فى بحثنا عن ثورة الاصلاح الدينى ، من صفات أتباع المعتقدات الكبيرة : وقد أثبتت لنا ثورة الاصلاح الدينى أن الصراع بين المعتقدات القريبة يكون عنيفاً . ولذلك لا يعجب من قتال اليعاقبة الشـــديد لمن خالفهم فى العقيـدة من الجمهوريين الآخرين .

والدعوة التى قام بها الرسل الجدد صارمة . فقد أرسلوا لوعظ سكان الولايات أنصاراً أشداء ترافقهم المقصلات . ولم يتساهل هؤلاء القضاة فى الخطأ وإن صغر ، وكانوا يفعلون حسب رأى روبسبير القائل « إن الجمهورية لا تقوم إلا بابادة مخالفيهـــا » ولم يبالوا بامتناع البلاد عن التجدد . فأرادوا تجديدها على رغم أنفها . قال كاريه « أجدر بفرنسة أن تصبح مقبرة من أن لا تتجدد على منهجنا . »

والسياسة اليعقوبية التى صـــدرت عن الايمان الجديد كانت بسيطة كالاشتراكية لمسوية التى يديرها سلطان مطلق غير متسامح . فلم تكن أفكار أنصارها الذين ساسـوا فرنسة ملائمة لمقتضيات الاقتصاد ولطبيعة الانسان ، بل كانت المقصـــلة والخطب ، ولوصيبانية ، كافية فى نظرهم لبلوغ الأرب ، قال تاين :

« كانت خطبهم مشبعة من الأقوال المجردة ومن الآراء المختـــلة فى الطبيعة والعقل والأمة والجبابرة والحـرية وغير ذلك من الأمور المشابهة لكرات منفوخة متصـادمة

ولولم يؤد جميعها الى نتائج عملية مخيفة لاعتقدنا أنها لهو منطقي وتمرينات مدرسية وأقوال وتراكيب خيالية . »

نشأ عن آراء اليعاقبة استبداد مطلق فكانوا يرون أن على الوطنيين الذين تساووا مقاماً ومالا أن يطيعوا الحكومة إطاعة عمياء . وكانت السلطة التى انتحلوها أعظم من سلطة الملوك السابقين . فقد سعروا السلع وادعوا أنه يحق لهم أن يتصرفوا فى حياة الوطنيين وأملاكهم ثم بلغت ثقتهم بفضيلة المعتقد الثورى مبلغاً جعلهم يشهرون الحرب على الآلهة بعد أن شهروها على الملوك فوضعوا تقويماً حذفوا منه أسماء القديسين وأوجدوا آلهة للعقل وصاروا يعبدونها فى كنيسة نوتردام بطقوس تعدل طقوس المذهب الكاثوليكى، وقد استمرت هذه الديانة حتى أقام روبسبير فى مكانها ديانة شخصية جاعلا نفسه حبرها الاعظم.

واليعاقبة وأنصارهم الذين لم تكن الأكثرية بجانبهم بعد ما سادوا فرنسة خربوها . ولا يسهل تعيين عددهم ، ولكنه كان قليلا ، على كل حال ، وقد قدره تاين بخمسة آلاف فى باريس التى كان يسكنها سبعمئة الف نفس وبثلاثمئة فى بيزانسون التى كان يسكنها ثلاثون الف نفس وبثلاثمئة الف فى فرنسة جميعها .

ولسيادة اليعاقبة فرنسة على رغم عددهم القليل أسباب كثيرة منها منح الايمان إياهم قوة عظيمة . ومنها قبضهم على زمام الحكومة بعد أن تعوّد الفرنسيون منذ قرون كثيرة إطاعة أولياء الأمور . ومنها اعتقاد الناس أن إسقاطهم يؤدى الى رجوع العهد السابق الذى كان يخافه مشترو الأملاك الوطنية . ولولم يشتد استبدادهم ما أقدمت مديريات كثيرة على العصيان .

والسبب الأول عظيم الأهمية . فالنصر فى الصراع بين المعتقدات القوية والمعتقدات الضعيفة لا يكون فى جانب المعتقدات الضعيفة . وأما علة اندثار اليعاقبة فى نهاية الأمر فهي أن شدة اضطهاداتهم أدت إلى تجمع ألوف العزائم الضعيفة تجمعاً تغلبت به على عزمهم القوى . وإن قلت إن الجيرونديين الذين طاردهم اليعاقبة كانوا ذوى عقائد راسخة فاعلم أنه اعترضهم فى الصراع الذى حدث مالم يعترض خصومهم من تربية واحترام لبعض التقاليد والحقوق ، قال إميل أوليفيه :

« إن أكثر مشاعر الجيرونديين رقيقة كريمة وأكثر مشاعر اليعاقبة قاسية شرسة

طاغية . فلو قابلنا فرنيو بمارا لرأينا البون بينهما شاسعاً ولم يكن ما يدنى أحدهما من الآخر . »

لم يلبث الجيروندبون الذين تغلبوا فى البداءة بأهليتهم وفصاحتهم على مجلس العهد ان استحوذ عليهم المونتانيار الهائجون العاطلون من كل رأى صائب والذين كانوا لا يعرفون غير إثارة عواطف السوقة .

٣ — صفات مجلس العهد النفسية

للمجالس ، عدا صفاتها العامة ، صفات تحدث بتأثير البيئة والأحوال ، وتمنح كل اجتماع شكل خاصاً . وما عزوناه إلى المجلس التأسيسى والمجلس الاشتراعى ، من هذه الصفات شوهد أشد منه فى مجلس العهد

اشتمل مجلس العهد على سبعمئة وخمسين نائباً وكان ثلث هؤلاء النواب أعضاء فى المجلس التأسيسى والمجلس الاشتراعى . وقدنجح اليعاقبة ، بما أتوابه من ضروب الارهاب ، فى انتخاباته التى قاطعها ثلاثة أرباع الناخبين . وإذا بحثنا عن مهن نواب مجلس العهد رأينا أن أكثريتهم العظمى كانت من رجال القانون أى مؤلفة من المحامين وكتاب العدل والقضاة .

لم تكن نفسية هذا المجلس متجانسة . ولما كان المجلس الذى يتألف من رجال ذوى صفات مختلفة معرضاً لسرعة الانقسام إلى عدة أحزاب لم يلبث مجلس العهد ان ظهر فيه ثلاثة أحزاب أى حزب الجيروندبين وحزب المونتانيار (الجبليين) وحزب البلين (السهليين) وكان ينتسب الى كل من حزب الجيروندبين وحزب المونتانيار مئة عضو ، وكان فى حزب المونتانيار أشد الأعضاء تطرفاً . نذكر منهم كوتون وايرول دسيشل ودانتون وكاميل ديمولان ومارا وكولوديربو وبيوفارين وباراس وسان جوست وفوشيه وتاليان وكاريه وروبسبير . ونذكر من أعضاء حزب الجيروندبين بريسو وبيسيون وكوندرسيه وفيرنيو . ومن الأعضاء الباقين أى من أكثرية المجلس العظمى تألف ما يسمونه حزب البلين (السهليين) ، وكان هذا الحزب متردداً صامتاً مذبذباً خائفاً يتبع كل ناعق ويتقلب مع الزمن وينضم الى أقوى الحزبين المذكورين ، فبعد أن أطاع الجيروندبين اتبع المونتانيار عندما تغلبوا على خصومهم . وهذه هى نتيجة السنة القاضية على العزائم الضعيفة بالخضوع للعزائم القوية .

وفى مجلس العهد تجلى تأثير النواب النافذين تجلياً ساطعاً . فقد سيرته أقلية ضعيفة الذكاء اكسبتها عقائدها الراسخة قوة عظيمة .

وأقلية متصفة بالشجاعة والاقدام تقود اكثرية خائفة مذبذبة وبهذا نوضح سر تطرف المجالس الثورية .

انتقل رجال العهد بالتدريج من طور الاعتدال الى طور القهر والاستبداد . ثم أخذوا يقتتلون . ومن مئة وثمانين جيرونديا كانوا يديرون فى البداءة مجلس العهد قتل وهرب مئة وأربعون . وفى آخر الأمر ساد روبسبير الذى كان أشد رجال الهول تعصباً فريق النواب الذى استحوذ عليه الخوف فرضى بالذل والاستكانة .

كان الأذكياء فى المجلس المذكور من حزب البلين (السهليين) أى من خمسمئة العضو المترددين المذبذبين . وقد تألفت اللجان الفنية التى تعزى اليها أعمال مجلس العهد النافعة من ذلك الحزب . ولم يبال أعضاء الحزب المذكور بالسياسية . فقد أوجب انهماكهم بأمور اللجان عدم ملازمتهم مجلس العهد . فكانت جلسات هذا المجلس لاتحتوى اكثر من ثلث النواب . ومن دواعى الأسف عدم اتصاف هؤلاء الأذكياء الصالحين بخلق الثبات والحزم ، شأن من هو مثلهم فى الغالب . فالخوف دفعهم الى استصواب ما كان يمليه عليهم الزعماء المتغلبون من الأوامر السيئة .

استصوب حزب البلين (السهليين) كل ما أمر به . فاستحسن احداث محكمة ثورية ونظام الهول . وبمعونته محق المونتانيار الجيرونديين وأباد روبسبير الايبريين والدانتونيين . وساعد جبن أعضائه على اقتراف مظالم العهد الهائلة .

وكان الخوف الشديد صفة مجلس العهد الظاهرة . فالخوف هو الذى دفع كل فريق الى ضرب رقاب الفريق الآخر كيلا يسبقه هذا الفريق فيضرب رقابه . ويسهل إدراك هذا الخوف : فقد كان اولئك الأعضاء المناكيد يتشاورون بين ضجيج الحضور . وكثيراً ما كان يستولى على مجلس العهد وحوش مسلحة بالحراب فكانوا يجعلون اكثر أعضائه يفرون من الجلسات . وهؤلاء الأعضاء وان كانوا يحضرون الجلسات اتفاقاً كانوا يستصوبون صامتين ما يأمرهم به المونتانيار الذين كانوا أقلية صغيرة فى مجلس العهد .

والخوف الذى استولى على المونتانيار كان كذلك عظيما . فليس التعصب وحده هو الذى كان يدفعهم الى إبادة خصومهم ، بل إن اعتقادهم وجود خطر محدق بهم كان

يدعوهم الى اقتراف ذلك أيضاً . ولم يكن قضاة المحكمة الثورية أقل فرقاً . فقـــد حكموا مكرهين على دانتون وأرملة كاميل ديمولان وآخرين بالموت . وما استولى طيف الخوف على مجلس العهد فى وقت استيلاءه عليه حينما أصبح روبسبير سيد البلاد الأوحد ، فقد كانت نظرة منه تشنج زملاءه فزعاً . فيقرأ على وجوههم « شحوب القلق واليأس » .

وكان روبسبير يخاف الجميع والجميع يخافون روبسبير ، فقد ضرب الرقاب خوفاً من الائتمار به . والخوف هو الذى دفع الناس الى تسليمه رقابهم .

ويدلنا ما تركه رجال العهد لنا من الخواطر على شدة فظائع ذلك الدور القاتم . قال تاين:

« عندما سئل بارير بعد عشرين سنة عن غاية لجنة السلامة العامة وسريرتها أجاب : (كان همنا الوحيد أن نحفظ حياتنا التى كان كل واحد منا يعتقد أنها فى خطر . فكان كل واحد منا يقطع رأس جاره خوفاً من أن يسبقه جاره فيقطع رأسه) . »

والخلاصة : إن تاريخ مجلس العهد من أظهر الأمثلة التى يستدل بها على شأن الزعماء والخوف فى المجالس .

الفصل الرابع

حكومة مجلس العهد

١ ـ شأن الأندية والجمعية الثورية أيام مجلس العهد
٢ ـ الحكومة أيام مجلس العهد
٣ ـ نهاية مجلس العهد ، منشأ حكومة الديركتوار

١ ـ شأن الاندية والجمعية الثورية أيام مجلس العهد

بينا آنفاً تأثير زعماء الأندية والجمعية الثورية فى المجلس التأسيسى والمجلس الاشتراعى ، وقد عظم أمر هذا التأثير فى مجلس العهد . فلم يكن تاريخ مجلس العهد بالحقيقة سوى تاريخ الأندية والجمعية الثورية التى تغلبت عليه ، ولم تستعبد الأندية مجلس العهد وحده . بل استعبدت فرنسة جميعها . فكانت أندية المديريات التى كان يسوسها نادى العاصمة تراقب القضاة الموظفين وتنفذ الأوامر الثورية .

وعندما كانت الأندية أو الجمعية الثورية تستصوب بعض الأمور كانت ترسلها الى مجلس العهد ليوافق عليها ، فاذا خالفها المجلس ساقت اليه وفودها . أى تسلطت عليه عصابات مسلحة من الرعاع حاملة أوامر لا مناص من إجازتها . وقد بلغ شعور الجمعية الثورية بقوتها مبلغاً دفعها غير مرة الى مطالبة مجلس العهد بطرد من كانت تمقته من النواب .

وكان أعضاء مجلس العهد من المثقفين . واكثر أعضاء الجمعية الثورية والأندية من صغار التجار والمحترفين والعمال وغيرهم من الذين كانوا يمتثلون أمر الزعماء كدانتون وكاميل ديمولان وروبسبير . وكان تأثير الجمعية الثورية فى باريس أشد من تأثير الأندية، فقد جمعت لنفسها جيشاً ثورياً وكانت تقود ثمانى وأربعين لجنة من الحرس الوطنى لا تطلب غير القتل والتخريب والنهب . والنظام الذى به أذلت هذه الجمعية الثورية باريس

كان هائلا . ومنه تفويضها الى السكاف شالاندون أن يراقب جزءاً من العاصمة ويبعث الى المحكمة الثورية أى الى المقصلة كل من يرتاب منه .

نعم ناهض مجلس العهد الجمعية الثورية قليلا . ولكنه لم يقاومها زمناً طويلا . وبلغ الصراع بينهما غايتـه عندما بعث إيبر ، الذى هو روح الجمعيـة الثورية ، الى مجلس العهـد الذى أراد أن يسجنه عصابات قوية لتطلب طرد من طلب سجنه من الجيرونديين . وقد أبى مجلس العهد ذلك . فحاصرته الجمعية الثورية فى ٢ يونيو سـنة ١٧٩٣ بجيشها الثورى الذى قاده أنريو فارتعد هذا المجلس فرقاً فسلم اليــــه سبعة عشر عضواً . عندئذ أرسلت الجمعية الثورية اليه وفداً ليشكره هازئاً .

وبعد سقوط الجيرونديين خضع مجلس العهد للجمعية الثورية القوية خضوعاً تاماً . فقد اكرهته هذه الجمعية على جمع جيش ثورى يجوب البلاد ويقتل الناس بالشبهات ، ولم يتخلص مجلس العهد من ربقة الجمعية الثورية والنـادى اليعقوبى الا فى أواخر أيامه أى بعد سقوط روبسبير . فأغلق النادى المذكور وقصل رقاب أعضائه النافذين .

ومع ما فى هذا العقـاب من شدة قد استمر الزعماء على تحريض السوقة ضـد مجلس العهـد . وتكـرر حصاره فى شهر جرمينـال وشهر بريريال (أى الشهر التاسع والشهر السابع من السنة الجمهورية) فأكرهه العصاة على استصواب إعادة الجمعية الثورية ودعوة مجلس جديد . ولكنه الغى هذين القرارين بعد خروج العصاة من ردهة المجلس . ولما خجل مجلس العهد من جبنه خصص كتائب لنزع السـلاح من الضواحى فسجنت هذه الكتائب عشرة آلاف شخص . ثم قصل رقاب ستة وعشرين زعيما من زعماء الفتنةوستة نواب تواطأوا عليها .

والواقع أن مجلس العهد لم يكن راغباً فى المقاومة . فكان حين لا تســيره الأندية والجمعية الثورية يخضع للجنة السلامة العامة ويوافق على اقتراحاتها من غير جدال . قال ويلم :

« إن مجلس العهد الذى كان يهـدد امراء اوربة وملوكها بالحكم عليهم من قبله كان أسيراً لعصابة من المرتزقة . »

٢ — الحكومة أيام مجلس العهد

فى سبتمبر سنة ١٧٩٢ الغى مجلس العهد الملكية وأعلن الجمهورية مع تردد فريق كبير

من أعضائه العالمين أن الولايات ملكية . وهو لاعتقاده أن هذا الاعلان يحول العالم المتمدن وضع تقويماً جديداً ظاناً أن السنة الأولى من تاريخه تكون فجراً لعالم يسوده العقل ، وكانت محاكمة لويس السادس عشر التي أوحت بها الجمعية الثورية فاتحة تلك السنة .

ساد الجيرونديون الذين كانوا على شيء من الاعتدال ، إذا قيسوا بغيرهم ، مجلس العهد فى البداءة فانتخب رئيسه وكتابه منهم . ولم يكن لروبسبير ، الذى صار بعدئذ سيد مجلس العهد المطلق ، سوى نفوذ ضئيل فى ذلك الحين . فلم ينل سوى ستة أصوات فى انتخاب الرآسة مع أن بيسون انتخب رئيساً بمئتين وخمسة وثلاثين صوتاً .

ولم تلبث سلطة المونتانيار الصغيرة فى البداءة أن عظمت فلم يبق للمعتدلين مكان فى مجلس العهد . فقد جعل المونتانيار مجلس العهد الذى هم أقلية فيه يتهم لويس السادس عشر فتم لهم بذلك انتصار على الجيرونديين وقضاء على الملكية وفصل بين النظام الجديد والنظام القديم .

وقد برعوا فى تدبير تلك التهمة ، إذ جعلوا المديريات تمطر مجلس العهد عرائض طالبة فيها محاكمة الملك . وأرسلوا اليه بعثة من الجمعية الثورية الباريسية لهذا الغرض . وأذعن مجلس العهد . فاتهم الملك من غير مقاومة سائراً على سنة المجالس الثورية التى تخضع أمام الإنذار والوعيد فتفعل خلاف ما تريد .

دفع الخوف الجيرونديين ، الذين لم يريدوا قتل الملك وهم منفردون ، الى الحكم عليه بالقتل وهم مجتمعون . وقد وافق دوك دورليان ، خال لويس السادس عشر ، على ذلك طمعاً بنجاة نفسه . ولو كان عند لويس السادس عشر قدرة يكشف بها المستقبل كالقدرة التى نعزوها الى الآلهة لرآى وهو صاعد فى المقصلة أن نصيب اكثر الجيرونديين ، الذين لم يستطيعوا لضعفهم أن يدافعوا عنه ، سيكون مثل نصيبه .

ولو نظرنا الى قتل الملك من حيث فائدته لرأينا أنه عمل جنونى قامت به الثورة الفرنسية . فقد أحدث حرباً أهلية وأقام أروبة ضدنا وأوجب فى مجلس العهد منازعات أدّت الى انتصار المونتانيار وطرد الجيرونديين .

وبلغت مظالم المونتانيار مبلغاً أوجب عصيان ستين مديرية فى الغرب والجنوب . وقد كاد هذا العصيان ، الذى كان يقوده كثير من النواب المطرودين ، ينجح لو لم ينشأ عن اشتراك الملكيين فيه خوف الناس من رجوع العهد السابق . ودام هذا العصيان دوام

الثورة الفرنسية وكان غاية فى التوحش . فكان الشيوخ والنساء والأطفال يقتلون وكانت القرى والمزروعات تحرق . وقد قتل فى أثنائه فى فانده وحدها ما يزيد عن نصف مليون نفس .

وعقب الحرب الأهلية محاربة الاجنبى . وظن اليعاقبة أنهم يدرأون هذه الأضرار بوضعهم دستوراً جديداً فسن مجلس العهد دستورين أحدهما سنة ١٧٩٣ والثانى سنة ١٧٩٥ ، ولا غرو . فمن تقاليد المجالس الثورية أن تعتقد سحر المراسيم غير معتبرة بفشل التجارب الماضية . قال أحد أكابر المعجبين بالثورة الفرنسية مسيو رامبو :

« اعتقد ذوو الايمان القويم من أعضاء مجلس العهد أنهم بصوغهم مبادىء الثورة الفرنسية فى قالب قانون يدهشون خصومهم فيهدونهم ويخمدون ثائرهم . »

وكان مجلس العهد يحتوى عدداً غير يسير من الفقهاء وأرباب الأعمال . وقد أدرك هؤلاء أنه يستحيل على مجلس كثير العدد كمجلس العهد أن يدير حكومة فقسموه الى لجان مستقلة كلجنة الأشغال العامة ولجنة الاشتراع واللجنة المالية واللجنة الزراعية واللجنة الفنية الخ . ثم أخذت هذه اللجان تهيء لوائح قانونية ليوافق عليها المجلس فى جلساته العامة . والفضل يرجع الى هذه اللجان فى جعل أعمال المجلس غير هادمة تماما . فقد أتت أموراً كثيرة النفع كانشاء المدارس العالية والمقياس المترى . وكان أكثر أعضاء مجلس العهد يفرون الى هذه اللجان ليجتنبوا المخاصمات السياسية التى قد تؤدى الى هلاكهم

وكان على رأس لجان الأشغال المذكورة لجنة السلامة العامة التى أسست فى شهر ابريل سنة ١٧٩٣ فكان عدد أعضائها تسعة . وقد أدارها فى بادىء الأمر دانتون ثم انتقلت إدارتها فى شهر يوليو من تلك السنة الى روبسبير . وتدرجت الى ابتلاع جميع السلطات فأدار فيها كارنو أمور الحربية وكامبون أمور المالية وسان جوست وكالوديربوا دفة السياسة .

وكانت القوانين ، التى وافق عليها مجلس العهد ، بتأثير الوفود التى كانت تستولى عليه ، ظاهرة الخطل خلافاً للقوانين السديدة التى اقترحتها اللجنة الفنية . ونذكر من تلك القوانين المختلة قانون الكمية الكبرى الذى وافق عليه مجلس العهد فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٣ ، فلم ينشأ عن هذا القانون الذى أمر بتسعير الأقوات سوى قحط دائم وهدم قبور الملوك فى دير سان دنى ومحاكمة الملكة وحرق مقاطعة فانده وتأليف المحكمة الثورية الخ .

وبينما كان مجلس العهد يفكك عرى فرنسة ويخربها كانت جيوشنا تحرز نصراً مبينا فقد استولت على الضفة اليسرى من نهر الرين وعلى بلجيكة وهولندة. ثم اقرت معاهدة بال هذه الفتوحات. وقد قلت سابقاً، وساعود الى هذا القول قريباً، إنه يجب الفرق التام بين أعمال جيوش الجمهورية وأعمال مجلس العهد. وليس هذا على المعاصرين بالأمر العسير.

ومجلس العهد الذى كان لعبة تعبث بها الأهواء لم يفلح فى تهدئة الفتنة فى فرنسة التى قذفها فى بحار الفوضى. ولذلك كان مجلس العهد محطاً للاحتقار حينما غاب عن الوجود فى ٢٦ اكتوبرسنة ١٧٩٧. أى بعد قبضه على زمام الأمور ثلاث سنوات، قال المفوض الأسوجى البارون درينكمن فى إحدى رسائله:

« أرجو أن لا تتحكم فى أمة جماعة من الفجرة السفهاء كالتى تحكمت فى فرنسة منذ بدء انقلابها الحديث »

٣ — نهاية مجلس العهد — منشأ حكومة الديركتوار.

وضع مجلس العهد، الذى لم يغير إيمانه بتأثير القوانين دستوراً جديداً فى أواخر أيامه ليحل محل دستور سنة ١٧٩٣ الذى لم يعمل به قط. وجاء فى هذا الدستور الجديد أنه يقوم بالسلطة الاشتراعية مجلسان: مجلس شيوخ مؤلف من مئتين وخمسين عضواً ومجلس شبان مؤلف من خمسمئة عضو وأنه يعهد فى السلطة التنفيذية الى جماعة (الديركتوار) المؤلفة من خمسة أعضاء يرشحهم مجلس الخمس مئة ويعينهم مجلس الشيوخ، وقد قضى مجلس العهد أن يكون ثلثا أعضاء المجلس الجديد من أعضائه، إلا أن هذا القرار لم ينفذ. إذ لم يوال اليعاقبة سوى عشر مديريات. وحكم مجلس العهد على جميع المهاجرين إلى البلاد الأجنبية بالنفى المؤبد. وذلك ليقصى الملكيين عن الانتخابات

لم يؤثر إعلان هذا الدستور فى الجمهورية خلافاً لما كان ينتظر، فهو لم يقلل شيئا من الفتن الشعبية. ومن أهمها الفتنة التى توعدت فى ١٥ اكتوبر سنة ١٧٩٥ مجلس العهد. فقد ساق الزعماء جيشاً اليه فعزم على الدفاع إزاءه فاستحضر كتائب وسلم قيادتها الى باراس وعهد إلى بونابارت الذى أخذ يظهر من عالم الخفاء فى أمر تشتيته. وقد تم ذلك التشتيت على يده بسرعة. فلما أطلق الرصاص على العصاة بالقرب من كنيسة سان روك فروا تاركين بضع مئات من القتلى. وهذا العمل الحازم الذى لم يكن لمجلس العهد عهد

بمثله صدر عن سرعة حركات الجيش ، وكان قمع تلك الفتنة آخر أعمال مجلس العهد المهمة . إذ صرّح هذا المجلس فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٧٩٥ أن نيابته انتهت ، مسلماً الأمور إلى حكومة الديركتوار.

أظهرنا كثيراً من الدروس النفسية المستنبطة من أعمال حكومة العهد . وأهمها عجز الضغط والظلم عن التغلب على النفوس طويلا . فلم يكن عند حكومة من وسائل القهر والاستبداد مثل ما كان عند حكومة العهد ، ولكن مجلس العهد على رغم المقصلة الدائمة والمفوضين المرسلين إلى الولايات مع الجلاد والقوانين الصارمة ، كان يضطر الى مكافحة الفتن والمؤامرات على الدوام . وكانت المدن والمديريات وضواحى باريس تتمرد من غير انقطاع على رغم قصل ألوف من الرؤوس

حارب مجلس العهد ، الذى ظن أنه الآمر الناهى ، قوىً خفية رسخت فى النفوس رسوخاً لم تؤثر فيه جحافل الضغط والاكراه . وسبب ذلك أنه لم يدرك شيئاً من أمر تلك القوى التى تم لها النصر فى نهاية الأمر.

الفصل الخامس
مظالم الثورة الفرنسية

١ — الاسباب النفسية لمظالم الثورة الفرنسية

بينا فى الفصول السابقة أنه ينشأ عن المبادىء الثورية إيمان جديد ، وهذه المبادىء التى قوامها العاطفة ، وإن كانت تمجد الحرية والاخاء ، نرى بينها و بين الافعال تناقضاً تاماً ، شأن اكثر الأديان التى لم تسمح للناس أن يتمتعوا بالحرية والتى أقامت مذابح فظيعة مقام الاخاء . وينشأ التباين بين المبادىء والعمل عن عدم تسامح المعتقدات . نعم قد يأمر الدين بالرأفة والحلم . ولكن أمره يؤول الى اقتراف المظالم لرغبة أنصاره فى اكراه الناس عليه . بهذا نفسر مظالم الثورة الفرنسية ، فلم يكن الهول الاكبر الذى قام أيام هذه الثورة إلا من نوع محكمة التفتيش والحروب الدينية ومذبحة سان بارتلمى والغاء مرسوم نانت واضطهاد البروتستان فى جنوب فرنسة واضطهاد أنصار جانسينيوس، فهذه أمور صدرت كلها عن منبع نفسى واحد .

ولم يكن لويس الرابع عشر ملكا ظالماً ، غير أن إيمانه هو الذى دفعه الى طرد مئات الألوف من البروتستان من فرنسة بعد أن قتل وسجن فريقاً كبيراً منهم ، ولا تنشأ وسائل الوعظ القاهرة التى يتذرع بها المعتقدون عن خوف يلقيه الخوارج فى قلوبهم ، فقد كان البروتستان وأنصار جانسينيوس قليلى الخطر فى عهد لويس الرابع عشر ، وإنما تصدر تلك الوسائل عن غضب حاكم ، يزعم أنه متمسك بالحق ، على أناس يعتقد إنكارهم إياه عن عناد ، وكيف يصبر ذلك الرجل على ضلالهم وهو قادر على إزالته ؟

هكذا تعلل المعتقدون فى كل زمن . وهكذا تعلل لويس الرابع عشر ورجال الهول الاكبر، فقد اعتقد هؤلاء جميعهم أنهم على الحق وأن نصرهم هذا الحق يجدد البشر . وهل كانوا يستطيعون أن يتساهلوا مع خصومهم اكثر من تساهل الكنيسة والملوك مع الخوارج ؟

عدّ المعتقدون فى كل جيل طريقة الهول أمراً ضرورياً . فعلها قامت الأديان كلها . وهذه الأديان قد أنذرت الناس بعذاب أبدى فى الجحيم ليحافظوا على أوامرها ويجتنبوا نواهيها .

وعلى ذلك يكون رسل المعتقد اليعقوبى قد ساروا على طريقة آبائهم ، واستعانوا بمثل وسائلهم ، ولو تم النصر اليوم لمعتقد جديد ، كالاشتراكية ، لاتخذ طرقاً فى الدعاية تشابه طرق محكمة التفتيش ومحكمة الهول الاكبر .

وإذا اعتبرنا الهول اليعقوبى ناشئاً عن فتنة دينية فقط كان اطلاعنا عليه ناقصاً ، ويتم هذا الاطلاع عند إدراكنا أنه انضم الى هذا المعتقد المنصور منافع ذاتية كثيرة مستقلة عنه . نعم أدار الهول الاكبر قليل من الرسل المتعصبين ولكنه كان بجانب هؤلاء ، الذين رأوا بعقلهم الضيق أن يجددوا العالم ، كثير من الرجال الذين عدوا المعتقد المذكور وسيلة إثراء . وهذا هو السبب الذى جعلهم يتبعون القائد الأول الظافر حينما تركهم يتمتعون بما اغتصبوه . قال البير سوريل :

« أقبل رجال الثورة الفرنسية على الهول لأنهم ظلوا به قابضين على زمام السلطة ولاعتقادهم أنهم لا يستطيعون حفظ مناصبهم بغيره . وهم على رغم قولهم انهم لم يفعلوا شيئاً إلا لسلامة الدولة لم ينظروا بالحقيقة الا الى سلامة أنفسهم . فالهول كان وسيلة قبل أن يصير نظاماً حكومياً ، وما ابتدع النظام إلا ليبرر الوسيلة . »

وقال إميل اوليفيه فى معرض بحثه فى الثورة الفرنسية :

« كان الهول الاكبر مفرقاً بين الناس مؤدياً الى سلب الأموال . ولم تأت بمثله عصابة من اللصوص . »

٢ — محاكم الثورة الفرنسية

كانت محاكم الثورة الفرنسية أيام الهول الاكبر واسطة قهر وإكراه . وقد أقيمت

فى فرنسة ، عدا محكمة باريس الثورية التى سعى لانشائها دانتون ، محاكم ثورية كثيرة .
قال تاين :

« أقيمت فى فرنسة ١٨٧ محكمة ثورية منها ٤٠ محكمة كانت تحكم بالقتل وكانت تنفذ أحكامها فى مكان الحكم حالا . وقد حكمت محكمة باريس على ٢٦٢٥ نفساً بالموت . ولم يكن قضاة المديريات أقل نشاطاً فى الحكم من قضاة باريس . فقد قصلوا فى مدينة اورانج الصغيرة رأس ٣٣١ نفساً . وقصلوا فى مدينة آراس رأس ٢٢٣ رجلا ورأس ٩٣ امرأة . وقصلوا فى مدينة ليون رأس ١٦٨٤ نفساً . وبلغ مجموع الذين قصلت رؤوسهم ١٧٫٠٠٠ نفس منهم ١٢٠٠ امرأة . وكثيرات منهن كن مجاوزات سن الثمانين . »

ولا يخفى أن هنالك جمعاً كبيراً من المتهمين قتلوا من غير محاكمة فى شهر سبتمبر أى قبل إنشاء محكمة باريس الثورية التى قصلت رؤوس ٢٦٢٥ نفساً ، وكانت محكمة باريس الثورية تقتصر ، كما أشار فوكيه تنفيل فى أثناء محاكمته ، على تنفيذ الاوامر التى كانت تتلقاها من لجنة السلامة العامة . وهى وإن سارت فى البداءة حسب القانون ظاهراً لم تلبث أن أهملت ذلك فألغت الدفاع وسماع الشهود ومناقشتهم وصارت تحكم على الناس بالشبهات . ثم اقترح فوكيه تنفيل أن تنصب المقصلة فى دائرة المحكمة كى تنفذ الأحكام فوراً

كانت تلك المحكمة ترسل المتهمين ، الذين وقفوا لما بين الأحزاب من حقـــد ، الى المقصلة على السواء . وسرعان ما صارت هذه المحكمة آلة ظلم فى قبضة روبسبير السفاك ، وعند ما حكمت على دانتون ، احد مؤسسيها ، بالقتل سأل الله والناس العفو قبل أن يصعد فى المقصلة لمعاونته على انشائها ، وهى لم تصفح عن أحد سواء كان الداهية لافوازيه أم الحكيم لوسيل ديمولان أم النبيل الفاضل مالزيرب . قال بنيامين كنستان مشيراً اليها :

« تم قتل كثير من أصحاب القرائح السامية على يد أدنى الناس وأشدهم غباوة »

ويجب لتسويغ ما اقترفتــه المحاكم الثورية من المظالم أن نذكر النفسية الدينيــة التى كانت عند اليعاقبة الذين أسسوها وأداروها . فقد ظن روبسبير وسان جوست وكوتون وغيرهم ممن قاموا بها أنهم يحسنون الى الجنس البشرى بقضائهم عن طريقها على الخوارج وعلى أعداء معتقدهم الذى كانوا يزعمون أنه يجدد العالم .

ولم يكن الذين قتلوا أيام الهول الاكبر من الأشراف والاكليروس فقط ، بل قصلت رؤوس أربعـــة آلاف من الفلاحين وثلاثة آلاف من العمال . واذا اعتبرنا ما ينشأ

عن إعدام رجل واحد من الأثر فى النفوس اعتقدنا أن قتل كثير من الناس يؤثر فيها تأثير عظيما. غير أن العـادة أرهقت الحواس فلم ينتبه الناس كثيراً الى ما كان يقع ، وكانت الأمهـات يقدن أولادهن ليشاهدوا فصل الرؤوس كما يقدنهم اليوم الى دور الألعـاب ، وقد أوجبت مناظر القتل الكثيرة عدم اكتراث الناس للموت ، فصعدوا كلهم فى المقصلة رابطى الجأش وعلا الجيروندیون درجاتها وهم ينشدون نشيد المرسلياز .

نشأ هذا التسليم عن ناموس العادة المسكن لانفعالات النفس . ودليلنا على أن منظر المقصلة لم يرهب أحداً ما وقع من الفتن الملكية الكثيرة . فكانت هذه الفتن تحدث كأن الهول لم يخف إنساناً ، ولا يصير الهول طريقة نفسـية مؤثرة إلا إذا قصر دوامه . فالهول الحقيقى يكون بالوعيد والانذار أكثر مما بالتنفيذ .

٣ — الهـول فى الولايات

لم يكن قطع الرقاب الذى نشأ عن أحكام محاكم الثورة كل ماحدث أيام الهول الاكبر فقد كان يجول فى فرنسـة جيوش ثورية مؤلفة من قطاع الطرق واللصوص ناهبـة قاتلة . قال تاين :

« عندما قطع أناس مجهولون فى بيدوان ، التى كان يسكنها الفا نفس شجرة الحرية هدم فيها ٤٣٣ بيتاً وقطعت رؤوس ١٦ شخصاً من سكانهـا بالمقصلة وقتل منهم ٤٦ شخصاً رمياً بالرصاص . وطرد من بقى منهم فاضطروا كى يعيشوا إلى قطع السبل فى الجبال و إلى نحت الكهوف لتكون لهم بيوتاً . »

ولم يكن نصيب من أرسلوا الى محاكم الثورة خيراً من ذلك فلما أصبحت محاكم الثورة طليقة من قيود القوانين أغرق كاريه وقتل رمياً بالرصاص فى نانت وحدها ما يقرب من خمسة آلاف شخص من الذكور والأناث والولدان .

وقد وردت تفاصيل هذه المذابح فى جريدة المونيتور . فقـد قال توما فى شهادته التى نشرت فى عدد هذه الجريدة الصادر فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٩٤ :

« شاهدت بعـــد الاستيلاء على نوار موتيار رجالا ونساء وشيوخاً يحرقون أحياء وشاهدت نساء وبنات يقـل عمرهن عن خمس عشرة سنة يقتلن بعـد انتهاك أعراضهن وشاهدت أولاداً يبقرون بالحراب ويطرحون على الألواح بجانب أمهاتهم : »

وقد نشرت فى العدد المذكور شهادة لجوليان ذكر فيها كيف كان كاريه يكره ضحاياه

على حفر قبورهم ليدفنهم فيها أحياء ، وجاء فى عدد ١٥ اكتوبر سنة ١٧٩٤ من الجريدة المذكورة تقرير لميرلان دوتيونفيل أثبت فيه أن ربان سفينة ديستان تلقى أمراً ليحمل عليها إحدى وأربعين ضحية ، منها ضرير بلغ الثامنة والسبعين من عمره واثنتا عشرة امرأة واثنتا عشرة بنتاً وخمسة عشر صبياً وخمسة أطفال ويغرقهم » . وورد فى عدد ٣٠ سبتمبر أن محاكمة كاريه أثبتت « أنه أمر بقتل النساء والولدان إغراقاً ورمياً بالرصاص وأنه أوصى القائد هوكس بابادة سكان فانده وحرق مساكنهم . »

وكان كاريه يشعر بلذة عظيمة عندما كان يشاهد ضحاياه يتوجعون ، فقد نشرت جريدة المونيتور فى عددها الصادر فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٤ قول كاريه : « إننى لم أضحك فى المديريات التى طارت فيها رؤوس رجال الاكليروس ضحكى حينما كنت أرى تقبض وجوه هؤلاء عند موتهم . »

أقيمت الدعوى على كاريه إرضاء للردة التى حدثت فى شهر ترميدور (الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية) ولكن ما وقع فى نانت من المذابح وقع مثله فى مدن كثيرة فقد أوجب فوشيه قتل الفى نفس فى مدينة ليون ، وبلغ القتل فى مدينة طولون مبلغاً أصبح به عدد سكانها سبعة آلاف فى بضعة أشهر بعد ان كان تسعة وعشرين الفاً .

ولجنة السلامة العامة هى التى كانت تحرض كاريه وفيرون وفوشيه وغيرهم على اقتراف المظالم ، قال كاريه فى قضيته :

« أعترف أنه كان يقتل كل يوم نحو مئتى سجين رمياً بالرصاص ، ولكن لجنة السلامة العامة هى التى كانت تأمر بذلك ، وحينما كنت أخبر مجلس العهد بأن العصاة الموقوفين يقتلون بالمئات كانت قاعته تدوى تصفيقاً فيأمر بنشر الخبر فى الجريدة الرسمية . وماذا كان يفعل هؤلاء النواب الذين يتحاملون عليّ الآن ؟ كانوا يصفقون لى ، ولماذا كانوا يتركون لى وظيفتى ؟ لأننى كنت منقذ الوطن ، وأما الآن فأنا رجل سفاك ! . . . »

ومما تقدم يظهر أن كاريه كان يجهل أن الذين سيروا مجلس العهد لم يزيدوا عن ثمانية أشخاص ، نعم ان كاريه استحق القتل ، ولكن أعضاء مجلس العهد كانوا يستحقون القتل أيضاً لاستحسانهم ما وقع من المذابح ، ويثبت لنا دفاع كاريه الذى استند فيه إلى رسائل لجنة السلامة العامة أن ما حدث أيام الهول من ضروب الاضطهاد نشأ عن خطة مدبرة لا عن مساع شخصية .

ولم تقض حاجة التخريب أيام الهول بقتل النفوس فقط ، بل تناولت معاول الهدم

الأشياء أيضاً . ولم يكن فى اعتداء زعماء الثورة الفرنسية على المبانى والآثار الفنية ، التى عدوها بقايا ماض ممقوت ، مايقضى بالعجب ، فتى يقبض المؤمن الحقيقى على زمام السلطة يقض على أعداء إيمانه وعلى التماثيل والمعابد والشعائر الدالة على المعتقد المنكوس ، ومن الأمور المعلومة أن الامبراطور تيودوز الذى انتحل النصرانية أمر بهدم أكثر المعابد التى أقيمت على ضفتى النيل منذ ستة آلاف سنة .

كسرت التماثيل والنقوش البارزة وزجاج النوافذ والتحف الفاخرة . وعندما أرسلت حكومة العهد فوشيه ، الذى نال أيام نابليون لقب دوك وصار وزيراً فى عهد لويس الثامن عشر ، لينوب عنها فى نيافر ، أمر بهدم أبراج قصورها ونواقيس كنائسها . وقد تناولت يد الهدم القبور أيضاً . فقد جاء فى تقرير باريز لمجلس العهد أن قبور الملوك الفخمة فى سان دنى ، ومنها قبر هنرى الثانى العجيب الذى صنعه جرمن بيلون ، هدمت . وفرغت النواويس وأرسلت جثة تورين الى المتحف كشىء نادر بعدأن اقتلع أحد الحراس أسنانها ليبيعها . وقد نتف شارب هنرى الرابع ولحيته .

إن رضى أرباب العقول النيرة عن تخريب ميراث فرنسة الفنى أمر محزن . ولكننا إذا ذكرنا أن أسوأ المظالم ينشأ عن المعتقدات القوية وأن رجال الفتن كانوا يهجمون كل يوم على مجلس العهد فيكرهونه على الخضوع رأينا فى ذلك معذرة . ولا تدلنا قصة هذا التخريب على ما للتعصب من القوة فقط ، بل تدلنا أيضاً على ما يؤول اليه أمر المطلقين من الزواجر الاجتماعية وأمر الأمة التى يقبض هؤلاء على زمامها .

الفصل السادس

جيوش الثورة الفرنسية

١ ــ مجالس الثورة والجيوش .
٢ ــ مكافحة أوربة للثورة الفرنسية
٣ ــ العوامل النفسية والعوامل الحربية التى أوجبت انتصار جيوش الثورة الفرنسية

١ ــ مجالس الثورة والجيوش

لو اقتصر ما نعلمه عن مجالس الثورة ، ولا سيما مجلس العهد ، على ما يقع فيها من الانشقاق وعلى ضعفها وعلى ماتأتى به من الاضطهاد لـكانت ذكراها سيئة . غير أن لذلك الدور نفوذاً مؤثراً ناشئاً عن انتصار الجيوش التى فتحت بلاد بلجيكا والبلاد الواقعة على ضفة الرين اليسرى حينما ترك مجلس العهد مقاليد الحكم .

فاذا نظرنا الى حكم العهد فى مجموعه أصبح من العدل أن يعزى اليه ما نالته جيوش فرنسة من النصر . وأما إذا فرقنا بين أقسامه ظهرلنا أنه لم يكن لمجلس العهدسوى نصيب صغير فى الوقائع الحربية وأن الجيوش المرابطة فى الثغور والمجالس الثورية كانتا قسمين مستقلين أثر أحدهما فى الآخر تأثيراً قليلا ونظر كل منهما الى الأمور نظراً متبايناً .

وقد اتضح لنا أن مجلس العهد كان ضعيفاً وأن كان يبدل رأيه حسب تحريضات الشعب . فكيف استطاع أن يسيطر على الجيوش وقد كان منقاداً لا قائداً ؟

أوجب انهماك مجلس العهد فى المنازعات ترك أمور الحرب الى لجنة كان يسيرها كارنو وحده . وأهم ما قامت به هذه اللجنة هو أنها أمدت الجيوش بالميرة والعتاد ، وقد نشأ فضل كارنو عن قيادته ٧٥٢٠٠٠ جندى كانوا مرابطين فى المراكز الحربية وعن إيعازه الى القواد بالهجوم وعن توطيد دعائم النظام فى الجيوش .

ولم يفعل مجلس العهد فى الدفاع عن البلاد غير أمره بالنفير العام ، ولا تستطيع حكومة أن تفعل غير ذلك إزاء أعداء فرنسة الكثيرين . فمداخلة هذا المجلس فى أمر الجيوش كانت يسيرة الى الغاية ، وقد خرجت هذه الجيوش وحدها ظافرة بفضل عددها وحماستها وخطط رسمها لها قواد شباب مستقلون عن مجلس العهد

٢ - مكافحة أوربة للثورة الفرنسية

نرى ، قبل بيان العوامل النفسية التى ساعدت على نجاح جيوش الثورة ، أن الالماع الى روح المقاتلة التى تأصلت فى أوربة واستفحلت ضد الثورة الفرنسية لا يخلو من فائدة :

نظر ملوك الأجانب فى أوائل الثورة الفرنسية الى المصاعب التى كانت تلقاها الملكية الفرنسية المزاحمة لهم بعين الرضى ، لانه لما ظن ملك بروسية أن فرنسة ضعفت فكر فى توسيع ملكه على حسابها فاقترح على أمبراطور النمسة أن يساعدا لويس السادس عشر بأمل الحصول على ولاية فلاندر وألزاس . فعقدا فى فبراير سنة ١٧٩٢ معاهدة ضد فرنسة ، إلا أن الفرنسيين سبقوا فى الهجوم فشهروا الحرب بتأثير الحزب الجيروندى

ومع أنه لم يقتل فى المعركة سوى ثلاثمائة فرنسى ومئتا بروسى فانها كانت ذات نتائج عظيمة ، لأن رد جيش اشتهر باستحالة قهره أورث قلوب الكتائب الثورية الفتية شجاعة كبيرة فأخذت هذه الكتائب تهاجم العدو على طول الجبهة ولم تمض بضعة أسابيع حتى طرد جنود فالى النمسويين من بلجيكة فاستقبلهم الناس فيها كمنقذين .

وقد اتسع نطاق الحرب كثيراً أيام مجلس العهد . ونشأ عن ضم مجلس العهد سنة ١٧٩٣ بلاد بلجيكة الى فرنسة حرب مع انكلترة استمرت اثنتين وعشرين سنة .

اجتمع مندوبو انكلترة وبروسية والنمسة فى أنفرس وتعاهدوا على تقسيم فرنسة على أن تنال بروسية مقاطعة ألزاس ومقاطعة لورين وأن تنال النمسة مقاطعة فلاندر ومقاطعة أرتوا وأن تنال انكلترة مرفأ دنكرك . وقد اقترح سفير النمسة أن تقمع الثورة الفرنسية بالارهاب « وباستئصال شأفة قادة الأمة الفرنسية » . وهذا ما اضطر فرنسة الى أن تحارب من سنة ١٧٩٣ الى سنة ١٧٩٧ على طول ثغورها . أى من جبال البيرنه حتى الشمال .

وقد أضاعت فرنسة فى البداءة فتوحاتها السابقة وحلت بها نوازل كثيرة . فاستولى الاسبان على مدينة بيربنيان ومدينة بايون . واستولى الانكليز على مدينة طولون . واستولى

النمسويون على مدينة فلنسيان فاضطر مجلس العهد سنة ١٧٩٣ الى الأمر بتجنيد كل فرنسي تتراوح سنه بين الثامنة عشرة والأربعين. وساق الى الحدود تسعة جيوش مؤلفة من ٧٥٠٫٠٠٠ جندي تقريباً، وقد مزجت كتائب الجيش الملكي السابقة بكتائب المتطوعين وكتائب المجندين.

انكسر الحلفاء ورفع الحصار عن موبوج بعد انتصار المرشال جوردان في فاتيني، ثم أنقذ أوش مقاطعة لورين فأخذت فرنسة تهاجم فاستردت بلجيكا وضفة الرين اليسرى ثم كسر المارشال جوردان النمسويين في فلوروس ورماهم خلف الرين مستولياً على كلونيا وكوبلنز، واحتل هولندة فاضطر ملوك الحلفاء الى طلب الصلح معترفين لفرنسة بفتوحاتها.

ومن دواعي انتصار فرنسة أن أعداءنا لم يعيروا قضيتنا ما تستحقه من الاهتمام. فكانوا منهمكين في تقسيم بولونية منذ سنة ١٧٩٣ حتى سنة ١٧٩٥، فكان كل منهم يريد أن يحضر القسمة لينال أكثر من غيره، وهكذا استفدنا كثيراً من تردد الحلفاء وسوء ظن بعضهم ببعض، فلو زحف النمسويون في صيف سنة ١٧٩٣ على باريس لكنا كما قال القائد تيابول: «خسرنا مئة وربحنا واحداً. فهم الذين أنقذونا بمنحهم إيانا وقتا كافياً لجمع الجنود واختيار الضباط والقواد».

وبعد معاهدة بال لم يبق لنا عدو ذو شأن في أوربة سوى النمسة فساقت حكومة الديركتوار جيشاً الى مقاطعة ميلانه الايطالية التابعة للنمسة وفوضت الى بونابارت أن يهاجمها. وقد أكره بونابارت دولة النمسة على طلب الصلح من فرنسة. وذلك بعد وقائع دامت حولا كاملا أي من شهر ابريل سنة ١٧٩٦ إلى شهر ابريل سنة ١٧٩٧.

٣ — العوامل النفسية والعوامل الحربية التي أوجبت انتصار جيوش الثورة الفرنسية

يجب لادراك السبب في انتصار جيوش الثورة الفرنسية أن نذكر مقدار ما كان عند جنودها الحفاة العُراة من الحماسة الشديدة ومن الصبر على المكاره ومن إنكار النفس، فهم لما أشبعوا من المبادىء الثورية شعروا بأنهم رسل دين جديد أوحى به لتجديد العالم، وقد منحهم إيمانهم بطولة وبسالة لم تزعزعهما قارعة، فانقذوا الوطن من العدو وصاروا يحاربونه حرب استيلاء يوم حلت محل مجلس العهد حكومة الديركتوار ولم يبق في فرنسة جمهوريون سوى الجنود. ويذكرنا تاريخهم بتاريخ قبائل جزيرة العرب التي

آمنت بما جاء به محمد (صلعم) فتحولت الى جيوش مخيفة فتحت جزءاً كبيراً من العالم الرومانى القديم بأسرع ما يمكن.

استقبل كثير من البلاد المحتلة غزاة فرنسة كمحررين لها، فقد هرع سكان سافوا الى رؤية الجنود الفرنسيين واستقبل الناس فى مايانس هؤلاء الجنود بحماسة وغرسوا أشجار الحرية وأسسوا مجلس عهد شبيه بمجلس باريس.

وكلما كانت جيوش الثورة الفرنسية تصطدم بأمم أذلها الملوك المستبدون ولم يكن لها خيال تذب عنه كان النصر يحالفها، ولكن النصر كان يتعذر عليها عند اصطدامها بأناس أولى خيال وثيق كخيالها. فخيال الحرية والمساواة القادر على استمالة الشعوب العاطلة من العقائد المتينة والرازحة تحت استبداد امرائها لا يؤثر بحكم الطبيعة فى أناس ذوى خيال قوى رسخ فى نفوسهم منذ عهد طويل، فبهذا ندرك سر محاربة سكان بريتانيه وفانده الذين كانوا ذوى مشاعر دينية وملكية متأصلة فيهم جيوش الجمهورية وانتصارهم عليها سنوات كثيرة. وقد عمت فتن هاتين المقاطعتين عشر مديريات فجمعتا ٨٠٠٠٠ مقاتل.

وبما أنه لا محل للرحمة فى تنازع الخيالات المتباينة أى المعتقدات التى لا شأن للعقل فيها لم يلبث الصراع الذى وقع فى فانده أن اتصف بقسوة لا تحدث الا فى الحروب الدينية وقد استمر هذا الصراع حتى أواخر سنة ١٧٩٥ حين وطد اوش دعائم السلام فى فانده، ولم تخمد الفتنة فيها الا بابادة عصاتها، قال مولنيارى:

« أصبحت فانده بعد حرب أهلية استمرت سنتين قاعاً صفصفاً، فقد هلك فيها ٩٠٠٠٠٠ نفس تقريباً. ولم يبق للذين ظلوا أحياء فيها بعد تلك المذابح طعام ولا مأوى»

واذا صرفنا النظر عما عند جيوش الثورة الفرنسية من الايمان الذى يتعذر معه قهرهم رأينا أنهم فاقوا غيرهم بقادتهم النوابغ الذين أنجبتهم ساحات القتال، فلما هاجر اكثر قادة الجيش الذين هم من طبقة الأشراف الى البلاد الأجنبية سنحت لأصحاب الأهلية الحربية فرصة أبدوا فيها مواهبهم فتدرجوا فى بضعة أشهر الى جميع المراتب. ومن هؤلاء اوش الذى كان فى سنة ١٧٨٩ عريفاً فصار قائد فرقة ثم قائد جيش فى الخامسة والعشرين من عمره، وقد كانت بسالة هؤلاء القواد تمنحهم روحاً هجومية لا عهد لجيوش الاعداء بها، وهم لعدم تقيدهم بالتقاليد وعدم تطبعهم بالعادات أبدعوا فناً حربياً ملائماً لمقتضيات الزمن.

ولا تقدر الجنود غير المجربة على الحركة إزاء كتائب اتخذت الجندية مهنة لها

وتدربت على الطرق المستعملة منذ حرب السنوات السبع ، إلا أن قيام جموع كثيرة بالهجمات ذلل ذلك ، فالعدد الكبير هو الذى كان يمكن القواد من القيادة ، وهو الذى كان يسد الفراغ الناشىء عن طريقة الهجوم المذكورة المؤثرة مع ما فيها من قسوة .

كانت الجموع الكثيفة عند هجومها على العدو بالحراب تهزم كتائبه المتعودة طرقاً تدارى بها حياة الجند . وبطوء إطلاق الرصاص فى ذلك الوقت جعل فن فرنسة الحربى أسهل استعمالا ، فبه تم النصر لها . غير أنه أهلك كثيراً من أبنائها ، فمنذ سنة ١٧٩٢ حتى سنة ١٨٠٠ قتل فى ساحة الحرب ما يقرب من ثلثهم (أى ٧٠٠٠٠٠ من مليونى مقاتل)

ولنثابر على استخراج النتائج من الحوادث التى بحثنا عنها فى هذا الكتاب بحثاً نفسياً :

دلنا البحث عن الجماعات الثورية فى باريس وفى الجيوش على ما لهذه الجماعات من مختلف الأطوار . ويسهل شرح هذه الأطوار . فقد أثبتنا أن الجماعات لما كانت عاجزة عن التعقل فانها تسير كما تحرَّض . ورأينا أيضا أنها ذات بسالة متناهية وأن مزية محبة الغير تكون نامية عندها فى الغالب وأنه يسهل علينا أن نجد فيها ألوفاً من الرجال مستعدين للتضحية بأنفسهم فى سبيل أحد المعتقدات .

فصفات نفسية مثل هذه تؤدى الى أعمال متباينة حسب الأحوال ، والدليل على ذلك ما ورد فى قصة مجلس العهد وجيوشه . فقد أثبتت هذه القصة أن جماعات مؤلفة من عناصر متقاربة سارت فى باريس وفى الثغور سيراً مختلفاً اختلافاً يجعل الانسان يظن أنها لم تكن من شعب واحد .

فكانت الجماعات فى باريس مضطربة قاسية سفاكة للدماء متقلبة فى رغائبها تقلباً يستحيل معه أن يستقيم أمر أية حكومة ، وكانت الجماعات فى الجيوش خلاف ذلك ، فلما اختلطت هذه الجماعات بالجنود أى بفريق الأمة الذى شب على حب النظام من فلاحين وعمال ، وتم ترويضها بالتعليم الحربى واجتذابها بالحماسة السارية أوجب ذلك كله صبرها على ضنك العيش واستخفافها بالمهالك وساعد على تأليف فئة عجيبة انتصرت على أشد جيوش اوربة سطوة .

نستدل بمثل هذه الأمور على تأثير النظام . فهو يحول الرجال . ولا تلبث الأمم التى تتحرر منه أن تصبح قبائل بربرية . ولا تزال هذه الحقيقة تغيب عن بال أولياء الأمور . ويؤدى جهلهم سنن الجماعات الى العمل بما تضعه هذه الجماعات من الخطط بدلا من قيادتها .

الفصل السابع
روح زعماء الثورة الفرنسية

١ ــ نفسية رجال الثورة الفرنسية ، شأن الأخلاق القوية والأخلاق الضعيفة .
٢ ــ نفسية النواب أيام بعثتهم
٣ ــ دانتون وروبسبير
٤ ــ فوكيه تنفيل ــ دوما ــ بيوفارين ــ مارا
٥ ــ مصير رجال العهد الذين ظلوا أحياء بعد انتهاء الثورة الفرنسية

١ ــ نفسية رجال الثورة الفرنسية ، شأن الاخلاق القوية والاخلاق الضعيفة

لما كان الانسان يميز بذكائه ويسير بخلقه وجب لإدراك أمره أن يفرق بين الذكاء والخلق . وللخلق المقام الأول فى الأدوار العظيمة . والحركات الثورية معدودة من تلك الأدوار بحكم الطبيعة .

وقد وصفنا فى كثير من الفصول السابقة ما يسود الفتن من مختلف النفسيات فلا نعود اليه الآن ، وهذه النفسيات تغير شخصية الانسان الموروثة والمكتسبة

وقد رأينا ما لخلق التدين من شأن فى النفسية اليعقوبية وما أدخله هذا الخلق الى قلوب أتباع الايمان الجديد من تعصب شديد . ورأينا أيضاً أن أعضاء المجالس ليسوا كلهم متعصبين وأن المتعصبين كانوا أقلية فيها وأن اكثرية الاعضاء فى مجالس الثورة الفرنسية كانوا مطبوعين على الحياء والاعتـــدال والحياد وأن الخوف هو الذى كان يدفعهم الى السير مع القساة المتطرفين .

وأصحاب الأخلاق الهينة المحايدة الذين يتبعون فى كل دور اكثر المحرضات تناقضاً هم الأكثر عدداً فى كل زمن . ولا فرق بينهم وبين القســاة من حيث الخطر . فقوة هؤلاء تعتمد على ضعف اولئك .

وقد شوهد فى الثورات كلها ، ولا سيما فى الثورة الفرنسية، أقلية حازمة مع ضيق عقل متغلبة على اكثرية كبيرة متصفة بسمو المدارك وفقدان الخلق . وبجانب الدعاة المتعصبين وضعيفى الأخلاق يظهر أيام الثورات أناس لا يهمهم سوى الاستفادة منها . وما اكثر من ظهر أيام الثورة الفرنسيــة من رجال هذا الفريق الذين لا غاية لهم سوى الانتفاع من الأحوال ليغتنوا . ونعد منهم باراس وتاليان وفوشه و بار ير الذين انحصرت سياستهم فى خدمة القوى ضد الضعيف .

والواقع أن عدد هؤلاء الطامعين فى أوائل الثورة الفرنسية كان عظيما . وهذا ما جعل كاميل ديمولان يقول سـنة ١٧٩٢ : « إن مصدر الثورة الفرنسية هو ما كان عند كل واحد من خلق الأثرة وخلق العجب . »

ويتألف من الملاحظات السابقة ومما ذكرناه فى فصل آخر عن الأطوار النفسية أيام الانقلابات السياسية فكر عام فى خلق رجال الثورة الفرنسية . و بنـاء عليه نذكر شيئا عن أشهر زعماء تلك الثورة .

٢ — نفسية النواب أيام بعثتهم

إن المســـير لأعضاء مجلس العهد فى باريس والزاجر والمحرض لهم هو تأثير رفقائهم وتأثير البيئة ، ويجب ، للحكم فى شأنهم ، أن نبحث عنهم وحبلهم على غاربهم أى وهم أحرار لا رقيب عليهم .

بعث مجلس العهد بعض أعضائه الى المديريات . وألزم الموظفين والقضاة إطاعتهم فكان هؤلاء الأعضاء مطلقين بعيدين من كل مراقبة . وكان الواحد منهم أيام بعثتـــه « يسخر النـاس فى المقاطعـة التى ولى أمرها ويسجنهم ويضبط أموالهم كما يريد » . وكان يخرج الى النـاس « فى عربة يجرها ستة أحصنة والحرس يحيط بهـا من كل جانب ، ويجلس حول موائد فاخرة ، ذات ثلاثين « طبقا » ، مع موكب من المهرجين والخفراء ، وقد « شابهت أبهة كولوديربوا فى ليون أبهة سلاطين الترك . فكان لا يقابله أحد إلا بعد ثلاث طلبـات ، وكان يتقدم قاعة استقباله حاجز لئلا يمثل امامه أحد على بعد يقل عن خمس عشرة خطوة » ، وليس من الصعب تصور زهو اولئك النواب عند دخولهم المدن والحرس محيط بهم ، اولئك النواب الذين كانت إشارة منهم تكفى لقطع الرؤوس .

لم يلبث الحامون العاطلون من العمل والأطباء المبتذلون والكهنة المعتزلون والأغنياء الخاملون وغيرهم ممن لم يبتسم لهم ثغر الدهر أن صاروا مساوين لأكبر من عرفهم التاريخ من الجبابرة وكانوا بضربهم الرقاب وإغراقهم الأحياء وقتلهم الناس بالرصاص يشعرون بارتقائهم من مستوى وضيع الى درجة أعاظم الملوك . »

لم يسبق نيرون وهليوغابال فى الظلم والاستبداد نواب العهد قط ، فلم يكن هنالك ما يردع اولئك النواب من قوانين وتقاليد . قال تاين :

« نظر فوشه من نافذته والنظارة فى يده الى ذبح ٢١٠ من سكان ليون ، وكان كولود ولابورت وفوشه يقصفون أيام القتل بالرصاص وقد نهضوا عند سماعهم إطلاق الرصاص هاتفين فرحاً محركين قلانسهم . »

ونذكر من نواب البعثة السفاكين الكاهن لوبون الذى ضرب أراس وكامبرى عندما أصبح ذا سلطة قوية . فمثله ومثل كاريه يثبتان ما يؤول اليه أمر الانسان عندما يتخلص من التقاليد والقوانين . وقد بلغ حبه سفك الدماء واقتراف المظالم مبلغاً أدى إلى نصبه المقصلة قريبة من نوافذ بيته ليتمتع هو و زوجته وأعوانه بمنظر الذبح . وقد أقام على قائمة المقصلة مقصفاً ليشرب منه الثائرون . وكان الجلاد يركم فى الطريق أجساد القتلى عارية على أوضاع مضحكة ليضحك منها الثائرون . وانحصر دفاع ذلك الكاهن فى قوله: لم أفعل ما فعلته إلا لتنفيذ ما أمرت به .

أشرت آنفاً الى خيلاء هؤلاء النواب الذين أصبحوا لجأة ذوى سلطة فاقت سلطان أشد المستبدين . ولكن الاشارة الى ذلك لا تكفى لايضاح قسوتهم . فلهذه القسوة أسباب مختلفة : منها أنهم لما كانوا رسل إيمان قوى لم يرحموا ضحاياهم ، وبتخلصهم من زواجر التقاليد والقوانين أطلقوا الأعنة لما تركته الهمجية الأولى فيهم من غرائز وحشية .

نعم إن الحضارة تقيد هذه الغرائز ، ولكنها لا تميتها أبداً ، والحاجة الى القتل فى نفوس الصيادين دليل على ذلك ، قال مسيو كونيسى كارنو :

« إن حب القتل للقتل نفسه خلق عام ، وهذا الخلق هو علة الكلف بالصيد ، فنحن لا نزال نأتى أعمالا كانت ضرورة العيش تكره أجدادنا الهمج على إتيانها . ونعجز عن كسر سلاسل العبودية المقيدة لنا منذ القديم وعديم التلذذ بقتل الحيوانات التى لا نرق

لها حينما يستولى علينا حب الصيد . فنقتل بالرصاص أو بالحبائل أودعها وأجملها ومنها الطيور المشنفة الآذان بتغاريدها من غير أن نشعر بشفقة تكدر صفاء لذتنا بمشاهدتها مضرجة بالدماء راقصة من الألم محاولة الفرار على أرجلها المكسورة أو محركة أجنحتها المهيضة . وسبب ذلك هو الخلق الموروث الذى لا يقدر على مقاومته أفضل الناس »

وحذراً من بطش القوانين لا نسلط هذا الخلق الموروث إلا على الحيوانات فى الأوقات العادية ، فمتى بطل عمل هذه القوانين لم نلبث أن نسلطه على الانسان أيضاً . وبهذا ندرك علة تلذذ رجال الهول بذبح الناس . وما قاله كاريه عن فرحه عند مشاهدته وجوه ضحاياه ساعة هلاكهم ذو معنى . فالوحشية عند كثير من أهل الحضر غريزة مزجورة غير مندثرة .

٣ — دانتون وروبسبير

كان دانتون و روبسبير أكثر رجال الثورة الفرنسية نفوذاً . وكان دانتون خطيب أندية محرضاً ذا صولة مهيجاً للشعب . وكانت نتائج خطبه القاسية تحزنه فى الغالب . وكانت درجته رفيعة أيام كان روبسبير ، خصمه فى المستقبل ، فى الصف الأخير . نعم جاء وقت اصبح دانتون فيه روح الثورة الفرنسية ولكنه لما كان عاطلا من خلق العناد والثبات تغلب تعصب روبسبير المستمر على جهوده المتقطعة فساقه الى المقصلة .

ولا يزال امر روبسبير غامضاً . فمن الصعب اكتناه نفوذه الذى ملك به حق الحياة وحق الموت .

لا جرم ان امر روبسبير لا يكتنه بقول تاين إنه معجب بنفسه غارق فى بحار المجردات او بقول ميشله إن مبادئه علة نجاحه او بقول معاصره ويلم « إن سر قبضه على زمام الحكم هو لاعتماده على اهل النقائص ومقترفى الجرائم »

ويستحيل ان يكون نجاحه قد نشأ عن فصاحته . فقد كان يقرأ بصعوبة خطبه التى لم تكن غير كلمات مجردة باردة مبهمة . وكان فى مجلس العهد خطباء يفوقونه بلاغة كدانتون والجيرونديين الذين أبادهم جميعاً .

إذن ليس عندنا إيضاح كاشف لسلطة هذا الحاكم المطلق الذى لم يكن له نفوذ فى المجلس الوطنى فأصبح بالتدريج سيد اليعاقبة ومجلس العهد وأهم رجال فرنسة ، ولا شك

فى إعانة الأحوال له كثيراً ، فقد عده الناس سيداً لا غنية لهم عنه. وهذا هو . بب ارتقائه السريع ، واظنه كان ذا سحر شخصى لا عهد لنا به اليوم ، وبهذا يمكن إيضاح ما ناله من النجاح عند النساء . فكان المجلس أيام القائه خطبه ، يكتظ بالنساء وكان عدد اللواتى كنّ يجلسن على مقاعد الاستماع لا يقل عن سبعمئة وكنّ يصفقن له هائجات النفس وعندما كان يخاطب اليعاقبة كان شهيق الحنو والهتاف يسمع من كلْ جانب وكان الضوضاء يهز أركان ردهة الاجتماع ،

وقد أرسلت اليه أرملة دوشالابر الفتاة التى كان دخلها السنوى أربعين الف فرنك رسائل غرام دعته فيها الى الزواج .

ولم يكن خلق روبسبير سبب ميل الناس اليه . فقد كان سوداوى المزاج ضعيف الذكاء عاجزاً عن فهم الحقائق غائصاً فى بحر من المجردات ماكراً مداجياً معجباً بنفسه إعجاباً لم يفارقه طول حياته معتقداً أن الله أرسله ليوطد دعائم الفضيلة وأنه هو المسيح الذى أرسله الله لاصلاح كل شىء .

وكان يزعم أنه من أرباب البيان ، فكان ينقح خطبه طويلا ، وقد أدى حسده الخطباء والأدباء إلى قتلهم ، وكان يستخف بزملائه ، فلما خلا باراس اليه ساعة تزينه بصق نحوه كأنه لم يكن حاضراً ولم يجبه عن أسئلته تكبراً ، ولم يكن ازدراؤه أبناء الطبقة الوسطى والنواب أقل من ذلك ، والجمهور وحده هو الذى كان صاحب الحظوة عنده ، قال : « لا مناص من الخضوع للجمهور عندما يتصرف فى أمور السلطة ، فكل ما يفعله الجمهور فضيلة وحقيقة ، وليس فيه ما يعد ظلماً أو ضلالا أو جرماً . »

وكان روبسبير مولعاً بالاضطهاد ، ولم يكن قيامه بأمر الرسالة علة قطعه كثيراً من الرؤوس ، بل كان ذلك ينشأ أيضاً عن اعتقاده أنه محاط بالأعداء والمؤتمرين ، قال مسيو سوريل : « كان خوفه من زملائه أشد كثيراً من خوفهم منه »

ونعد حكمه المطلق الذى استمر خمسة أشهر مثالا واضحاً لسلطان بعض الزعماء ، فاذا أهلك جبار قابض على زمام جيش أياً شاء فليس فى ذلك ما يعسر فهمه ، وأما إذا استطاع رجل وحده أن يرسل عدداً كبيراً من أقرانه الى المقصلة فهذا أمر لا يسهل إيضاحه ، وعلى نسبة إرسال روبسبير أشهر النواب ككاميل ديمولان وايبرت ودانتون وغيرهم إلى

المحكمة الثورية ومنها الى المقصلة كانت قدرته تعظم . وقد سقط أكثر الجيرونديين ميتاً أمامه ثم اختلف والجمعية الثورية ففصل رقاب رؤسائها وأقام مقامها جمعية ثورية جديدة منقادة لأوامره .

وأراد روبسبير أن يتخلص بسرعة ممن لا يروقونه لجعل المجلس يوافق على قانون شهر بريريال (الشهر التاسع من السنة الجمهورية) الذى يسمح بقتل الناس لمجرد الشبهات وبفضله قطع روبسبير فى باريس وحدها ١٣٧٣ رأسا فى تسعة وأربعين يوما ، وكف زملاؤه عن النوم فى بيوتهم فرقاً منه . وصار عدد من يحضر الجلسات من النواب لا يزيد عن المئة .

وزيادة اعتماده على نفسه وعلى جبن أعضاء مجلس العهد أوجبت هلاكه . فلما أراد أن يحملهم على سنّ قانون يجوّز سوق النواب إلى المحكمة الثورية ومنها إلى المقصلة من غير أن يأذن المجلس فى ذلك ائتمر كثير من اعضاء حزب المونتانيار وحزب البلين به ليسقطوه . فاتهمه تاليان ، الذى أحس دنو أجله وأنه ليس لديه مايخسره ، بالبغى والطغيان فأراد روبسبير أن يدافع عن نفسه فخنق صراخ المؤتمرين صوته فكفى لانتكاسه تكرير كثير من الأعضاء الحاضرين ، بتأثير العدوى النفسية ، كلمة « ليسقط الظالم » ، وأمر المجلس باتهامه حالا .

ورأت الجمعية الثورية إنقاذه . ولكن مجلس العهد صرح أنه لا يستحق حماية القانون ، قال ويلم :

« كان تأثير كلمة « عدم استحقاق حماية القانون » فى الرجل الفرنسى كتأثير كلمة الوباء ، فالذى كانت تقال فيه تلك الكلمة كان يحرم مدنياً ويعده الناس نجساً . »

قطع رأس روبسبير فى اليوم العاشر من شهر ترميدور (الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية) ، وقطع معه رؤوس عصابته البالغ عددها ٢١ رجلا ومنهم سان جوست رئيس المحكمة الثورية ورئيس البلدية ، وقطع فى غد ذلك اليوم رؤوس سبعين يعقوبياً وبعد يومين رؤوس ١٣ يعقوبياً فانقضى بذلك دور الهول الذى دام عشرة أشهر .

وانهيار البنيان اليعقوبي فى ذلك الشهر من الحوادث النفسية الغريبة التى وقعت

أيام الثورة الفرنسية . ولم يخطر على قلب أحد من المونتانيار الذين أسقطوا روبسبير أن دور الهول سينتهي بسقوطه . نعم قضى تاليان وباراس وفوشه وغيرهم على روبسبير كما قضوا سابقاً على إيبرت ودانتون والجيرونديين وغيرهم . ولكنهم لما علموا أن الجماعة أرادت بهتافها لقتل روبسبير زوال دور الهول ساروا كأنهم يريدون ذلك . ثم إن حزب البلين المؤلف من أكثرية المجلس والذى قتل روبسبير كثيراً من أعضائه ثار على الدور المذكور الذى هتف له زمناً طويلا على رغم مقته إياه . ولا أشد هولا ممن زال الخوف عنهم بعد استيلائه عليهم . فقد اضطهد حزب البلين حزب المونتانيار وألقى فى قلوب أعضائه الرعب انتقاماً .

ولم يصدر تذلل زملاء روبسبير فى مجلس العهد عن ميلهم اليه ، ولكن هذا الحاكم المطلق أخافهم كثيراً فكانوا يخفون حقداً شديداً خلف ما كانوا يظهرونه نحوه من الاعجاب والحماسه . ويظهر ذلك من مطالعة التقارير التى نشرها بعد قتله كثير من النواب فى أعداد جريدة المونيتور الصادرة فى ١١ و١٥ و٢٩ اغسطس سنة ١٧٩٤ ، فلم يشتم عبد سيده بعد سقوطه مثلما شتم روبسبير وعصابته فى تلك التقارير . وقد جاء فيها : «أن اولئك الغيلان جددوا عهد مذابح ماريوس وسيللا» . وقد وصف فيها روبسبير بالعاتى الذى كان يبحث عن سلامة نفسه فى قتل الناس بالشبهات والذى كان لا يحجم عن أن يأمر . مثل كاليغولا ، الشعب الفرنسى بأن يعبد حصانه لو وجد الى ذلك سبيلا .

إلا أنه فات هذه التقارير أن تذكر أن سلطة روبسبير لم تستند الى جيش قوى كسلطة ماريوس وسيللا التى أشير اليها بل الى سكوت مجلس العهد عنه فلولا جبن أعضاء هذا المجلس ما استمرت سلطة روبسبير يوماً واحداً .

حقاً إن روبسبير من جبابرة التاريخ . ولكنه كان جباراً بلا جنود . ويمكن تلخيص مبادئه فى أنه كان مشبعاً ، أكثر من كل إنسان ، من العقيدة اليعقوبية على رغم منطقها الضيق وتصوفها الشديد . ولا نزال نرى مادحين له . فقد نعته مسيو هاميل بالشهيد واقترح أن يقام له تمثال . وإنى لأشترك فى ثمنه مختاراً . لأننى أعد الآثار الدالة على عمى الجماعات وعلى تذلل المجالس أمام زعيم يعرف كيف يقودها لا تخلو من فائدة . فسوف يذكرنا تمثال روبسبير بهتاف الاعجاب والحماسة الذى أتاه مجلس العهد نحو التدابير التى كان يهدده بها .

٤ — فوكيه تنفيل — دوما — بيوفارين — مارا .

إن ذكرى فوكيه تنفيل . النائب العام فى المحكمة الثورية . من أشـــد الذكريات شؤماً ، وقد أوردت غير مرة ذكر هذا النائب الذى اشتهر فى بدء الأمر بحلمه ثم أصبح سفاكا تشمئز منه النفوس لأبين ما يطرأ على بعض الأخلاق من التحولات أيام الثورة فقد كان فوكيه تنفيل أيام سقوط الملكية فقيراً منتظراً كل شىء من نشوب ثورة اجتماعية ليس عنده ما يخسره فيها . فلما جاء مجلس العهد قلده مقاليد أموره فأصبح فى يده مصير الفى متهم ، منهم الملكة مارى انتوانيت والجيرونديون ودانتون وايبرت وغيرهم . وكان يفصل رقاب جميع المتهمين المرفوعة أسماؤهم اليه . وعنـــدما تزول سلطة أحد حماته السابقين ككاميل ديمولان أو دانتون أو غيرهما يطلب قتلهم من غير تردد .

ولم يكن شأن فوكيه تنفيل فى الأوقات العادية أكبر من شـــأن قاض هادىء مجهول أمره . فمن حسنات المجتمع المنظم تقييده لأمثاله الذين لا يردعهم سوى الزواجر الاجتماعية .

قطع رأس فوكيه تنفيل وهو لا يعلم علة عقابه لانه لم يكن ما يسوغه من الوجهة الثورية . وهل فعل سوى تنفيذ أوامر رؤسائه بنشـاط ؟ لا يجوز تشبيهه بأولئك النواب الذين أرسلوا الى الولايات ولم تكن مراقبتهم فى الامكان . فقـد فحص مفوضو مجلس العهد جميع أعماله واستصوبوها حتى اليوم الأخير . ولو لم يشجعه رؤساؤه على قسوته وعلى طريقته السريعة فى الحكم على السجناء ما استمرت سلطته . وبقضاء مجلس العهد على فوكيه تنفيل قضى على دوره الرهيب

وبجانب فوكيه تنفيل نذكر دوما الذى أظهر قسوة عظيمة كانت تصدر عن خوفه الشديد ، فقد كان دوما لا يخرج إلا مسلحاً ويمتنع عن مواجهة الناس ولا يكلم الزائرين إلا من كوة وكان يسيء الظن بالناس ، ومنهم زوجته التى دفعه سوء ظنه بها الى سجنها ثم الى قتلها .

ومن الذين ظهروا فى دور العهد واشتهروا بهمجيتهم نذكر بيوفارين الذى هو عنوان الوحشية الحيوانية .

فقـــد كان يظل فى ساعات الغضب والضيق هادئاً قائماً بعمله الرهيب وكان يحضر

رسمياً مذابح سجن الأبيئى و يهنىء الجزارين و يجزل لهم الأجر ثم يدخل بيته كأنه راجع من النزهة . وكان ، وهو رئيس النادى اليعقوبى و رئيس مجلس العهد وعضو فى لجنة السلامة العامة ، يجر الجيروندبين والملكة وسيده السابق دانتون الى المقصلة ، وقد استصوب ضرب مدينة ليون بالمدافع و إغراق مدينة نانت . وهو الذى رتب لجنة اورانج الظالمة وكان يحرض فوكيه تنفيل على أعماله . وكثيراً ماكان يجيء اسمه على رأس مراسيم أحكام الموت التى كان يمضيها قبل زملائه غير راحم أو متأثر أو هائج ، وكان يسير فى طريقه عندما كان هؤلاء يترددون أو يتمهلون متفوهاً بكلمات ضخمة هازاً ذؤابته كالأسد ، ولما أحدق الخطر برو بسبير وسان جوست وكوتون تركهم وانضم الى الحزب المعارض ليضرب رقابهم ، ولكن لماذا ؟ إن المرء ليحار فى الجواب ، وهو الذى لم يطمع بشىء ولم يبتغ مالا ولا سلطاناً . »

أظن أن الجواب ليس صعباً ، فالعطش الى القتل عند بعض المجرمين يوضح لنا سر سلوك بيوفارين . وأكثر المجرمين يقترفون القتل للقتل نفسه . وهم كالصيادين ، يصمون الصيد قضاء لما فى نفوسهم من شهوة الاتلاف الغريزية . والخوف من الشرطي والمقصلة يردعهم . وهم المفطورون على تلك الغرائز السفاكة . عن اقتراف الجرائم فى الأزمنة العادية . ولكنهم عندما يحين الوقت الذى يطلقون فيه أعنتهم لايتأخرون عن الاجرام .

وأما نفسية مارا فأكثر غموضاً . لا لأنه كان فيه . عدا ميله الى القتل ، عوامل أخرى كعزة نفسه المكلومة وطمعه وعقائده الخ ، بل لأنه كان ولوعاً بالمراتب السنية ولعاً بلغ حد الجنون وكان متعصباً لبعض المبادىء تعصباً جاوز حد الجمود .

كان مارا ذا مزاعم علمية فى الدور السابق . وكان يحلم فيه بالمناصب والمعالى ، ولكن لم يعر أحد ترهاته أذناً صاغية ، ولم ينل سوى وظيفة حقيرة عند أحد الأمراء الاقطاعيين . فلما اشتعلت الثورة الفرنسية أراد الانتقام من المجتمع السابق الذى كان يجحد فضائله فأصبح على رأس أشد الطغاة ، وقد أنشأ ، بعد أن مجد مذابح سبتمبر جهراً، جريدة وشى فيها بأناس كثيرين طالباً قتلهم ، وهو لو لم تقتله شارلوت كورداى بخنجرها ما تفلت من ساطور المقصلة حتما .

٥ — مصير رجال العهد الذين ظلوا أحياء بعد انتهاء الثورة الفرنسية

وجد بجانب رجال العهـــد الذين كانت لهم نفسية خاصة رجال آخرون، كباراس وفوشيه وتاليان وميرلان دوتيونفيل، لم يكونوا من ذوى المعتقدات أو المبادىء، ولم يبالوا بغير الاثراء.

استطاع هؤلاء أن يستفيدوا من البؤس العام فجمعوا أموالا عظيمة، ولو فعلوا ذلك فى الأزمنة العادية، لا فى أيام الثورة التى لا يفرق فيها بين الفضيلة والرذيلة، لعدوا من اللصوص المجرمين، نعم ظل القليل من اليعاقبة متعصباً لمذهبه، وأما اكثرهم فقد تركوه بعد أن اغتنوا وأصبحوا من بطانة نابليون، ونذكر منهم كنباسيرس الذى كان يلقب لويس السادس عشر، وهو فى السجن، بـ (لويس كابى) فصار يطالب أيام نابليون من جلسائه أن يلقبوه بـ (صاحب السمو) وأن يخاطبوه بـ (سيدنا)، وأمر مثل هذا يدلنا على مقدار الحسد الذى كان ينطوى تحت ميل كثير من اليعاقبة الى المساواة. قال مسيو مادلن:

« اغتنى اكثر اليعاقبـة (مثل شابو وبازير ومرلن وباراس وبورسـول وتاليـان وبارير) فصاروا أصحاب قصور وأطيان. ومن لم يغتن منهم فى البداءة أثرى فى النهـاية. وقد وجد فى لجنة السنة الثالثة وحدها رجال أصبح أحدهم فى المستقبل أميراً. وصـار ثلاثة عشر رجلا منهم من الكونتات وخمسة رجال منهم من البارونات وسبعة رجال منهم أعضـاء فى مجلس الشيوخ الامبراطورى وستة رجال منهم أعضاء فى مجلس الشورى. ونعد بجانبهم خمسين ديموقراطياً كانوا أعضاء فى مجلس العهد فصاروا فى أقل من خمس عشر سنة أرباب مخازن وعربات وأوقاف وفنادق وقصور، ومن هؤلاء الخمسين نذكر الدوك اورتان والكونت رينول، ولما مات فوشه كان ميراثه خمسة عشر مليوناً. »

وهكذا أعيدت امتيازات العهد السابق التى انتهكت حرمتها، ولـكن لم يتم الوصول الى هذه النتيجة إلا بتخريب فرنسة واحراق ولايات برمتها وقتل نفوس كثيرة وإيقـاع كثير من الأسر فى الغم الشديد وإقلاق اوربة وموت مئات الألوف من الناس فى ميادين الحرب.

نختم هذا الفصل الذى بحثنا فيه عن نفسية كثير من زعماء الثورة الفرنسية بما يأتى:

إذا كان علم الأخلاق، وهو الباحث فى القواعد التى يجب على المجتمعات أن تحترمها لتعيش، يقضى على علمائه أن يكونوا أشداء فى أحكامهم على بعض الأشخاص فانه ليس فى علم النفس ما يجعـــل علماءه أشداء مثلهم، فغاية علم النفس هى إدراك الأسباب، وسرعان ما يزول النقد إزاء هذا الادراك .

والروح البشرية آلة سريعة الانكسار، ولذلك قلما تستطيع الحوادث التى تمثل على مسرح التاريخ أن تقاوم القوى المحركة لها . ولما كانت هذه القوى المهيمنة مؤلفة من الوراثة والبيئة والأحوال فانه لا يستطيع أحد أن يقول متيقناً ماذا يصبح سيره لو كان فى مكان من يحاول أن يفسر أعمالهم من الرجال .

الباب الثالث

النزاع بين المؤثرات الوراثية
والمبادىء الثورية

الفصل الأول

تقلص الفوضى ـ حكومة الديركتوار

---

١ ــ نفسية الديركتوار

كانت حكومة الديركتوار تتألف من ثلاثة مجالس . منها مجلسان اشتملا على كثير من النواب . وأما المجلس الثالث فقد كان صغيراً مؤلفاً من خمسة مديرين ، وكان المجلسان الكبيران يشبهان مجلس العهد بضعفهما . نعم إنهما لم يسيرا مثله مع الفتن الشعبية التي قاومها مجلس المديرين بيد حديدية ، ولكنهما كانا يذعنان لأوامر هؤلاء المديرين المطلقة إذعاناً تاماً .

ولما أعيا الاستبداد اليعقوبي جميع الناس رأى ذانك المجلسان الكبيران أن يعمرا فرنسة التي عمها الخراب وأن يقيما حكومة دستورية غير مستبدة ، غير أن الأقدار الثورية التي كانت فوق عزيمة الرجال جعلت أعضاءهما ، مع ما فيهم من صدق نية ، يفعلون

خلاف ما يريدون ، فقد رجوا أن يكونوا معتدلين فظهروا بمظهر الأشداء ، ورغبوا أن يقضوا على نفوذ اليعاقبة فاقتدوا بهم . وحلموا أن يصلحوا ما خرب فزادوه ضغثاً على إبالة . وتمنوا أن يعم السلم الدينى فاضطهدوا الكهنة وأعملوا السيف فى رقابهم بأشد مما وقع أيام الهول .

وبعكس ذلك كانت نفسية المجلس الصغير المؤلف من خمسة مديرين ، فقد كانت مواجهته للمصاعب اليومية تدفعه الى حلها مع أن ذينك المجلسين النيابيين اقتصرا على إبداء الرغائب لبعدهما من الحقائق .

وكان المديرون ، وهم الذين لم يكترثوا للمبادىء ، يحبون أن يبقوا سادة . وكانوا يأتون ، لهذا الغرض ، أقسى الأعمال وأكثرها مخالفة للقانون ، ولكنهم وإن استطاعوا بظلمهم أن يتسلطوا على البلاد لم يحسنوا سياستها . وحسن السياسة هو أشد ما كانت تحتاج اليه .

اشتهرت حكومة العهد فى التاريخ بشدتها وحكومة الديركتوار بضعفها مع أن من الثابت أن الثانية كانت أقوى من الأولى . ويتضح ما بين حكومة الديركتور وحكومة المجالس السابقة من الفروق بما يأتى :

من الممكن أن تشتد الحماسة فى مجلس يضم ستمئة أو سبعمئة عضو ، كما حدث فى ليلة ٤ اغسطس . وأن تدفعه شدة العزيمة الى شهر الحرب على الملوك كلهم ، ولكن هذه الاندفاعات لا تكون قوية لعدم استمرارها . وأما المجلس المؤلف من خمسة أعضاء والمتغلب عليه أحد أعضائه فيكون ذا عزيمة مستمرة أى ذا ثبات فى سيره . ومن هذا النوع مجلس المديرين الخمسة الذى كان ذا إرادة قوية فلم يبال بالقانون ولا بأبناء الوطن ولا بالمصلحة العامة والذى أثقل كاهل فرنسة باستبداد لم تأت مثله حكومة ظهرت منذ بدء الثورة الفرنسية .

وحكومة الديركتوار ، كحكومة العهد ، لم تستطع أن تكون سيدة فرنسة مع ما التجأت اليه من أساليب استبدادية . وهذا الأمر ، الذى أشرنا اليه سابقاً ، يثبت لنا ما فى الضغط المادى من العجز عن قهر القوى الأدبية الموروثة عن الأجداد . ويصعب أن يقال إننا عاطلون من مثل هذه القوى التى هى قوام المجتمع . فالمجتمع لا يقوم إلا

بعض الروادع أى بالقوانين والعادات والتقاليد الوازعة لغرائز الانسان الهمجية التى لا تزول منه زوالا تاما .

٢ — حكومة الديركتوار المستبدة — مظالمها

استأنف المديرون حروب الفتح لتحويل الأنظار وإلهاء الجند ونهب الأموال من البلدان المجاورة ، فاستغرقت هذه الحروب أيامهم كلها ، وقد رجعت الجيوش منها،ولاسيما من ايطالية ، ظافرة ذات مغانم كثيرة .

وظهر بعض سكان البلاد المفتتحة بمظهر الساذج البسيط فظنوا أن فرنسة لم تقم بالفتح الا لمنفعتهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن رأوا أن الفتح أعقبته ضرائب ثقيلة ونهب للكنائس وسلب لبيوت المال . وأدت هذه السياسة الى تحالف دولى جديد ضد فرنسة دام حتى سنة ١٨٠١ .

قضى المديرون ، الذين لم يبالوا بأمر البلاد ولم يكونوا أهلا لتنظيمها ، أوقاتهم فى مكافحة المؤامرات واتخاذ الطرق التى بها يظلون قابضين على زمام السلطة ، ولما اشتدت الفوضى وصار الناس يتطلبون يداً قوية قادرة على توطيد أركان النظام أحست الأمة ، ومنها المديرون أنفسهم ، أن النظام الجمهورى قرب أجله .

ورأى بعض الناس إعادة الملكية ورأى غيرهم إعادة نظام الهول ورأى آخرون تفويض الأمر الى قائد . ولم يخش تبديل النظام سوى المستولين على الأموال الوطنية .

أخذ استياء الشعب من حكومة الديركتوار يزيد ، ولما جدد انتخاب ثلث المجلس النيابى فى شهر مارس سنة ١٧٩٧ خرج اكثر النواب الجدد من المعارضين لها ، فأقلق ذلك المديرين فأبطلوا انتخابات تسع واربعين مديرية وطردوا من النواب الجدد بعد نقض انتخابهم ١٥٤ نائبا وحكموا على ٥٣ منهم بالنفى ، ومن بين هؤلاء المنفيين أشهر رجال الثورة الفرنسية كبورتاليس وكارنو وترونسون وبودراى .

وحكمت بعض المجالس الحربية ، من غير روية ، على مئة وستين رجلا بالقتل ونفت ٣٣٠ رجلا الى الكويان فمات نصفهم فى وقت قصير ولم تلبث أن طردت المهاجرين والكهنة الذين عادوا الى فرنسة ، ولم يكتف المديرون بهذا الاستبداد الذى دهش منه المعتدلون بل أتوا بعده عملا آخر وهو أنهم لما رأوا زيادة عدد نواب اليعاقبة فى الانتخابات الجديدة نقضوا انتخاب ستين عضواً يعقوبيا .

وما تقدم يدلنا على مزاج أعضاء حكومة الديركتوار الاستبدادى ، و يظهر هذا لمزاج بأجلى من ذلك عند الاطلاع على تفاصيل تدابيرهم :

لم يكن هؤلاء السادة فى حبهم سفك الدماء أقل من وحوش دور الهول . فهم وان لم ينصبوا مثلهم للمقصلة نصبا مستمراً استعاضوا عنها نفيا قل أن يبقى من يكون عرضة له على قيد الحياة . فكان المنفيون يساقون الى روشفور فى أقفاص من حديد معرضين لتقلبات الجو ثم يكدسون فى السفن .

ولما اطلع المديرون على النهضة الكاثوليكية وخيل اليهم أن الكهنة يأتمرون بهم نفوا فى سنة واحدة ١٫٤٤٨ قسيسا وقتلوا عدداً كبيراً منهم رميا بالرصاص ، فأحيوا بذلك دور الهول .

وقد أصاب ظلم حكومة الديركتوار فروع الادارة ولا سيما المالية . فلما احتاجت هذه الحكومة الى ستمئة مليون فرنك حملت النواب على الموافقة على ضريبة زائدة لم ترجع عليها إلا باثنى عشر مليون فرنك . ثم أعادت الكرة فأمرت بعقد قرض اجبارى قدره مئة مليون فرنك فنشأ عن ذلك إغلاق المصانع ووقف الأشغال وتسريح الأجراء ، ولم تنل من هذا القرض الذى أثقل كاهل الناس ، سوى أربعين مليون فرنك ، ثم جعلت المجلس يوافق على قانون الرهائن الذى يأمر باعتبار بعض الرجال فى كل كورة مسؤولين عما يقع فيها من الأجرام .

ولا يخفى ما ينشأ عن مثل ذلك النظام من الغيظ والأحقاد ، ففى سنة ١٧٩٩ رفعت أربع عشرة مديرية راية العصيان واستعدت ست وأربعون مديرية للتمرد ، ولو طال عمر حكومة الديركتوار لانفرط عقد المجتمع الفرنسى انفراطا تاما .

وهكذا تدرجت فرنسة الى الانحلال فتداعت فيها أركان الادارة والمالية وأصبحت واردات بيت مالها تافهة وصار ضباطها ودائنوها لا يصلون الى حقوقهم .

وقد كان منظر فرنسة عند السائحين فى ذلك الحين ، منظر بلاد خربتها الحرب وهجرها سكانها ، وكان الجولان فيها متعذراً لكثرة ما انهار من جسورها وأبنيتها ، وأصبح اللصوص يقطعون طرقها المقفرة فصار جوب مديرياتها لا يخلو من خطر إلا باشتراء تذاكر السلامة من رؤسائهم ، وقد عم الخراب الصناعة والتجارة أيضا فأغلقت فى ليون وحدها أبواب ١٣٫٠٠٠ مصنع من ١٥٫٠٠٠ مصنع ، وأضحت ليل وهافر وبوردو ومرسيليا مدنا مقفرة ، ولم يخل مكان فى فرنسة من البؤس والجوع .

ولم يكن فساد الأخلاق فى فرنسة أقل من ذلك . فكان حب النفائس والترف والولائم والزينة والرياش سمة المجتمع الفرنسى الجديد المؤلف من الفلاحين وملتزمى الميرة والماليين الذين اغتنوا من النهب والسلب وخدعت مظاهر الترف فى باريس كثيراً من المؤرخين فنسوا أن البؤس والترف سارا فى ذلك الدور معاً .

توضح لنا قصة الديركتوار قلة ما فى كتب التاريخ من الصحة ، وها هى دار التمثيل تحيى ذكرى ذلك العهد الذى لا يزال الناس يقلدون أزياءه لاعتقادهم أن الحياة رجعت فيه الى كل شىء بعد أن انتزعت فى دور الهول . والواقع أن نظام الديركتوار لم يكن أصلح من نظام الهول ، فكلاهما أديا الى سفك الدماء وكانت عاقبة نظام الديركتوار أن ألقى فى النفوس غيظا ساق المديرين الى البحث عن سيد مطلق قادر على الحلول فى مكانهم وعلى حمايتهم .

٣ — ارتقاء بونابارت

ظهر مما تقدم أن أمر الفوضى والانحلال فى آخر عهد الديركتوار استفحل حتى صار الناس ينتظرون ظهور رجل قادر على إعادة النظام . وفكر كثير من النواب منذ سنة ١٧٩٥ فى إعادة الملكية . إلا أن تصريح لويس الثامن عشر الذى قال فيه إنه سيعيد النظام القديم برمته وسيرد الأملاك الى أصحابها السابقين وسيجازى أنصار الثورة الفرنسية حول الأنظار عنه .

وبعد أن تعذر إرجاع الملكية بحث الناس عن قائد فوجدوا بونابارت . وقد اشتهر بونابارت فى معارك ايطالية . فبعد أن جاز جبال الألب ودخل ميلان والبندقية ظافراً وجمع غنائم عظيمة زحف على فينا ولما أصبح على بعد خمسة وعشرين فرسخاً منها طلب امبراطور النمسة اليه الصلح .

ولم يكتف هذا القائد الشاب بما ناله من شهرة فطمع فى زيادته . فأقنع حكومة الديركتوار بأن الاستيلاء على مصر يخضد شوكة انكلترة فابحر من طولون الى مصر فى شهر مايو سنة ١٧٩٨ ، ولم تطل إقامة بونابارت فى مصر ، فقد رجع الى فرنسة حين استدعاه أصدقاؤه . وعم الابتهاج أنحاء فرنسة عندما بلغ الناس عودته .

وقد ساعدته فرنسة على إتمام المؤامرة التى دبرها ساييس ومديران وبعض الوزراء لاسقاط مجلس النواب ، ونشأ فرح كبير عن تخلص فرنسة من ربقة العصابات

المشؤومة التى قهرت البلاد منذ زمن بعيد ، نعم عانت فرنسة بعد ذلك نظاماً استبداديا ، ولكنه لم يكن شديد الوطأة كالنظام السابق .

ويؤيد تاريخ اسقاط مجلس النواب المذكور ما قلنـــاه فى مكان آخر عن صعوبة الحكم الصحيح فى الحوادث المعلومة التى شاهد وقوعها أناس كثيرون . فقد كان الناس منذ ثلاثين سنة يعدون ذلك الاسقاط جناية أوجب اقترافها طمع رجل يعضده الجيش، مع أن الواقع أن الجماعة التى طردت من عاند من النواب لم تكن من الجند بل من حرس المجلس الذى فعل ما أمرته به الحكومة المستعينة بفرنسة .

٤ — علل استمرار الثورة الفرنسية طويلا .

لو اقتصر دوام الثورة الفرنسيـة على الوقت اللازم لنيل ما سعت اليه من المبادىء كالمساواة أمام القانون والسلطة الشعبية ومراقبة النفقات ، لم يزد وقتها عن بضعة أشهر لان هذا حصل سنة ١٧٨٩ ولم يضف اليـه مبدأ آخر ، والواقع أن الثورة الفرنسية استمرت طويلا ، فاذا نظرنا الى المدة التى عينها المؤرخون الرسميون رأينـا أنها انتهت يوم ارتقاء بونابارت أى بعد انقضاء عشر سنين .

ولماذا دام دور الهرج والاضطهاد اكثر من الزمن الضرورى لاقامة المبادىء الجديدة؟ يجب أن لا يبحث عن ذلك فى الحروب مع الدول الاجنبية ، وقد كانت هذه الحروب تنتهى بسرعة لانقسام الحلفاء وانتصار فرنسة عليها . كما أنه يجب أن لا يبحث عنها فى محبة أبناء فرنسة للحكومة الثورية . ولم يوجد نظام مقته الناس وكرهوه مثـل نظام المجالس ، وأعرب فريق كبير من الأمة عن سخطه عليه بما قام به من العصيان وأتى به من انتخابات كثيرة مخالفة له .

أوضح المتأخرون من المؤرخين كره فرنسـة للنظام الثورى بعد أن ظل أمر هـذا الكره مجهولا زمنا طويلا ، وقد لخصت آراؤهم فى العبارة الآتية التى نقتطفها من مؤلف جديد لمسيو مادلن بحث فيه عن الثورة الفرنسية :

« قبضت على زمام فرنسة والجمهورية فئة قليلة مكروهة فصارت ثلاثة أرباع البلاد ترجو أن تنتهى الثورة أو أن تنقذ من أيدى هذه الفئة المكروهة التى بقيت مدة طويلة على رأس الأمة التعسة بما تذرعت به من ألوف الحيل والوسائل، ولما أصبح بقاؤها حاكمة

لا يتم الا بالارهاب أخذت تقضى على من كانت تظن أنه مخالف لها ولو كان من أشد خدم الثورة الفرنسية إخلاصا . »

واليعاقبة هم الذين قاموا بالحكم حتى أواخر عهد الديركتوار ، وقد كانت غايتهم فى نهاية الأمر ان يحافظوا ، مع السلطة ، على ما جمعوه من المال عن طريق النهب وسفك الدماء ، والذى جعلهم يفاوضون نابليون على إسقاط مجلس النواب هو اقراره إياهم على تلك الغاية التى لم يعترف لويس الثامن عشر لهم بها .

ولكن كيف استطاعت حكومة شديدة الاستبداد ثقيلة الوطأة ، مثل تلك الحكومة أن تبقى سنوات كثيرة ؟ لم يتم لها هذا البقاء بتأثير الديانة الثورية فى النفوس و الزام الناس ذلك الحكم ظلما وعدوانا فقط ، بل تم لها البقاء ايضا لانتفاع جزء غير يسير من الشعب بذلك الاستمرار ، فبعد ان جردت تلك الثورة الملك والأشراف والاكليروس من سلطتهم منحت ابناء الطبقة الوسطى والفلاحين ما كانت الطبقات الممتازة السابقة مستولية عليه من الوظائف والأموال وجعلتهم بذلك من اعظم انصارها ، وصار هؤلاء يخشون استرجاعها منهم إذا اعيدت الملكية .

لهذه الأسباب استطاعت تلك الحكومة ان تدوم الى ان ظهر قائد قادر على ارجاع النظام وعدها باقرار ما نشأ عن الثورة الفرنسية من المكاسب الأدبية والمادية

استقبل بونابارت الذى حقق هذه الأمانى بحماسة ، واقر تلك المكاسب المادية والأدبية فى نظم وقوانين ،ولذلك اخطأ من قال إن الثورة الفرنسية انتهت بارتقاء بونابارت فهو لم يقض عليها بل وطد امرها .

الفصل الثانى

اعادة النظام - الجمهورية القنصلية

١ — كيف أقرت القنصلية أمر الثورة الفرنسية

أثبت لنا تاريخ القنصلية أن عمل الفرد القوى أفضل من عمل الجماعات ، فقد أحل بونابارت النظام محل الفوضى الدامية التى سادت الجمهورية منذ عشر سنين وأنجز وحده فى وقت قصير ما لم تستطع إنجازه مجالس الثورة الفرنسية الأربعة مع ما أتت به من استبداد واضطهاد .

ولم يلبث بونابارت أن قضى بعزمه على الفتن الباريسية وعلى كل تدبير يؤدى إلى إعادة الملكية ، فأرجع الى فرنسة التى فرقتها الأحقاد والضغائن وحدتها الأدبية . وأقام استبداداً فردياً منظما مقام استبداد الجماعات المشوش . وكانت وطأة هذا الاستبداد الفردى أخف من وطأة الاستبداد السابق فربح الناس من ذلك واستوجب عطفهم .

ولا نجارى المؤرخين السابقين فى القول إن بونابارت قوّض أركان الجمهورية . فقد أبقى بونابارت منها ما يمكن بقاؤه وقرر فى الأنظمة والقوانين أهم المبادىء الثورية كالغاء الامتيازات والمساواة أمام القانون .

ويحتمل أنه لولا القنصلية لقامت مقام حكومة الديركتوار حكومة ملكية ومحت اكثر مبادىء الثورة الفرنسية . فلنفرض أن بونابارت لم يمثل دوراً تاريخياً فان مؤامرة ملكية كانت تقلب حكومة الديركتوار التى كان يمقتها الناس ، فاسحة المجال للويس

الثامن عشر . نعم جلس لويس الثامن عشر على العرش بعد ست عشرة سنة من هذا التاريخ ، ولكن نابوليون كان قد منح فى تلك الأثناء المبادىء الثورية قوة عظيمة جعلت ذلك الملك العائد لا يجرؤ على مسها ولا على ارجاع أموال المهاجرين .

ولو كان لويس الثامن عشر قد قبض على زمام الدولة عند سقوط حكومة الديركتوار لكان الأمر عكس ذلك ، إذ كان يعيد معه استبداد العهد السابق ويجعل الناس يقومون بثورات جديدة للقضاء عليه ، وليس إسقاط شارل العاشر لسعيه لإعادة النظام السابق بأمر مجهول .

ومن البساطة أن يغضب المرء من استبداد بونابارت ، فقد تحمل الناس أنواع الاستبداد فى العهد الذى جاء قبل عهده وفرضت حكومة الديركتوار عليهم استبداداً أشد وأقسى ، ولم يكن الاستبداد وقتئذ سوى أمر عادى لا يحتج عليه إلا إذا قام مع الفوضى ، فلما عمت الفوضى أنحاء البلاد بحث الناس عن سيد قادر على إخمادها ، وكان بونابارت ذلك السيد .

٣ — تنظيم فرنسة في العهد القنصلي

كان كل شيء محتاجاً الى الاصلاح والتجديد حينما قبض بونابارت على زمام الدولة ، فقد سن بعد سقوط مجلس النواب دستوراً يخوله سلطة كافية لتنظيم البلاد والوظائف ، وظل هذا الدستور ، الذى اسمه دستور السنة الثامنة ، معمولا به حتى آخر أيام نابليون ، ونص على إقامة سلطة تنفيذية يقوم بأمورها ثلاثة قناصل على أن يكون رأى اثنين منهم استشارياً ورأى القنصل الأول ، أى بونابارت ، نافذاً ، ومنح هذا الدستور بونابارت حق تعيين الوزراء وأعضاء مجلس الشورى والسفراء والقضاة والموظفين وحق البت فى أمر الحرب والسلم وأناط به السلطة الإشتراعية لحصره فى يده أمر اقتراح القوانين أمام المجالس الثلاثة أى مجلس الشورى ومجلس التريبونا والمجلس الاشتراعى ولم يمنح مجلس الشيوخ سوى واجب المحافظة على الدستور .

وكان بونابارت ، مع استبداده ، يستشير قبل أن يجزم فى الأمر ولا يمضى مرسوماً قبل أن يباحث فيه مجلس الشورى الذى هو رئيسه ، وكان هذا المجلس المؤلف من العلماء يهيىء القوانين ثم يعرضها على المجلس الاشتراعى ليبدى رأيه فيها بحرية تامة ، وقد

وثق نابليون بهذا المجلس وثوقاً تاماً لاشتماله على فقهاء أفاضل لا ينطقون بشيء إلا عن علم

وأراد بونابارت أن يحكم الأمة من غير أن يستعين بها . ولذلك لم يجعل لها نصيباً فى الحكم إلا مرة واحدة ، أى حين عرض عليها الدستور الجديد ليستفتيها فيه . ولم يرجع إلى الانتخاب العام إلا فى أحوال نادرة .

ونظم القنصل الأول ، فى أثناء سن الدستور الذى عزز فيه مركزه ، أمور الادارة والمالية والقضاء فربط جميع سلطات الدولة بباريس ثم جعل على رأس كل ولاية والياً ومجلساً عاماً مساعداً لهذا الوالى وعلى رأس كل لواء مديراً ومجلساً ادارياً مساعداً لهذا المدير ، وعلى رأس كل كورة معتمداً ومجلساً بلدياً إدارياً مساعداً لهذا المعتمد ، وجعل أمر تعيينهم كلهم من حقوق وزرائه لا من حقوق الشعب .

ولا يزال هذا النظام المركزى باقياً ، فالمركزية ، مع ما فيها من محاذير ، هى الطريقة الوحيدة التى يجتنب بها الاستبداد المحلى فى بلاد منقسمة كفرنسة ، وأوجب ذلك النظام الصادر عن اطلاع تام على النفسية الفرنسيه راحة وطمأنينة لم يكن للبلاد عهد بهما منذ زمن طويل .

وألغيت أحكام الموت وأعيدت الكنائس الى المؤمنين ثم شرع بونابارت فى وضع قانون مدنى مستنبط اكثره من عادات العهد السابق . فوفق فيه ، كما قيل ، بين الشرع الحديث والشرع القديم .

وما أتى به القنصل الأول من العمل الجليل فى وقت قصير يدلنا على سر سعيه فى بدء الأمر الى وضع دستور يخوله سلطاناً مطلقا ، ولو عهد فى إنجاز ما أصلح به بونابارت فرنسة من الأعمال الى مجالس مؤلفة من المحامين ما تخلصت من الفوضى .

٣ — العوامل النفسية التى أوجبت نجاح القنصلية .

لا تلبث العوامل الخارجية المؤثرة فى الانسان ، كالعوامل الاقتصادية والتاريخية والجغرافية ، أن تتحول الى عوامل نفسية ، ومن يرغب فى الحكم فعليه أن يعلمها ، وقد جهلتها المجالس الثورية واطلع عليها بونابارت .

كانت المجالس ، ولا سيما مجلس العهد ، مؤلفة من احزاب متطاحنة فادرك نابليون أن تغلبه عليها يتطلب أن لا ينتسب الى أحد منها،وهو لعلمه أن قيمة الأمة بما فى احزابها

من ذوى العقول السامية سعي فى الانتفاع بها كلها . فعين الوزراء والولاة والقضاة من حزب الأحرار والحزب الملكى والحزب اليعقوبى ناظراً الى أهليتهم وحدها .

ومع أنه لم يرفض مساعدة رجال الدور السابق كان يعرب عن ميله الى المحافظة على مبادىء الثورة الفرنسية . وهذا لم يمنع الملكيين من الانضمام الى نظامه الجديد .

وإعادة السلم الدينى من أهم الأعمال التى قامت بها القنصلية . فقد كان انقسام فرنسة من أجل الدين أشد من انقسامها السياسى . وقد شعر بونابارت بأن أمر طمأنينة النفوس فى يد البابا فلم يتأخر ساعة عن مفاوضته.ونعد المعاهدة التى عقدها بونابارت مع البابا من الأعمال النفسية العظيمة الشأن . فالقوى الأدبية لا تقاتل بالعنف وتؤدى مكافحتها إلى أخطار كبيرة . وقد علم نابليون بمداراته الكهنة كيف يملكهم . وهو بجعله أمر تعيينهم وعزلهم من حقوقه ظل سيدهم .

وما لقيه القنصل الأول بونابارت من المصاعب فى العهد القنصلى كان أشد مما لقيه بعد تتويجه . فكان عليه أن يطارد اللصوص الذين ظلوا مثابرين على قطع الطرق . وأن يقضى على العصابات التى كانت تخرب فرنسة الجنوبية ، وأن يدارى تاليران وفوشه وقواداً آخرين كانوا يحسبون أنفسهم من أمثاله . وقد ذلل نابليون هذه العقبات قبل جلوسه على العرش .

مضى العهد الذى سخط فيه المؤرخون العمى والشعراء على إسقاط مجلس النواب . وقد بينا أن الحكومة لم تأتمر بهذا المجلس وحدها ، بل ائتمرت به فرنسة التى حررها ذلك الاسقاط من الفوضى . وهنا نسأل لماذا أتى أذكياء العلماء أحكاماً غير صحيحة فى دور تاريخى واضح مثل ذلك الدور ؟ لا ريب فى أن علة ذلك هو نظرهم الى الحوادث من خلال عقائدهم . وإذ إن الحقيقة تتبدل فى نفوس المعتقدين فان اكثر الأمور وضوحاً غابت عنهم ، ولم يكن تاريخ الحوادث سوى ما أملاه الخيال عليهم .

ولا يستطيع العالم النفسى أن يطلع على سر ذلك الدور الذى وصفناه بايجاز إلا إذا تحرر من قيود العواطف الحزبية . وحينئذ لا يلوم ماضياً نشأ عن مقتضيات الزمن المهيمنة. وهذا لا يمنعنا من القول إن نابليون حمل فرنسة عبأ ثقيلا لانتهاء قصته بغارتين أغارهما الأجنبى عليها ولغارة ثالثة نشأت عن ارتقاء وارث اسمه الى العرش ولا نزال نقاسى نتائجها.

لتلك الحوادث ارتباط بمصادرها . وهى تدل على ما ينشأ عن تبديل مثل الأمة الأعلى من النتائج،فالانسان لا يقدر على الانفصال بغتة عن ماضيه إلا بتخريب مجرى تاريخه تخريباً تاماً.

الفصل الثالث

النتائج السياسية التي نشأت في قرن واحد عن تصادم التقاليد والمبادىء الثورية

١ ـــ الأسباب النفسية التي أدت الى استمرار الحركات الثورية في فرنسة .

سنرى فى بحثنا الآتى عن نشوء المبادىء الثورية منذ قرن أن هذه المبادىء انتشرت بين طبقات الأمة شيئاً فشيئاً فى خمسين سنة ، وقد رفضت اكثرية الشعب والطبقة الوسطى هذه المبادىء طول تلك المدة ولم يقم بأمر إذاعتها غير عدد قليل من الدعاة ، إلا أن ما لها من نفوذ وما ارتكبته الحكومات من الأغلاط كفى لايقاد ثورات كثيرة سوف نلخصها بعد أن نبحث عن عللها النفسية .

يثبت تاريخ ما وقع منذ قرن من الانقلابات السياسية أن الناس محكومون بنفسيتهم اكثر مما بالأنظمة التي تفرض عليهم . فالثورات الكثيرة التي حدثت فى فرنسة هى نتيجة نزاع بين حزبى الأمة ذوى النفسيتين المتباينتين اللتين إحداهما دينية ملكية تابعة لمؤثرات وراثية ، والثانية ذات صبغة ثورية تابعة لهذه المؤثرات أيضا ، وقد ظهر النزاع منذ بدء الثورة الفرنسية بين تينك النفسيتين المتباينتين ظهوراً واضحا واستمرت الفتن والمؤامرات حتى نهاية دور الديركتوار على رغم ما أتى من الاضطهاد كما بينا سابقا فثارت ستون مديرية على النظام الجديد ولم تخمد جذوة الثورة إلا بمذابح كبيرة

والتوفيق بين النظام السابق والمبادىء الجديدة هو أشد ما عانى بونابارت حله من

المشاكل . فكان يبحث عن أنظمة ملائمة للنفسيتين الفاصلتين لفرنسة ، وقد نجح بذلك لالتزامه جانب التوفيق ولتسميته أموراً قديمة بأسماء جديدة .

ويعد دور نابليون من أدوارنا التاريخية النادرة التي كملت فيها وحدة فرنسة النفسية ، ولكن هذه الوحدة لم تستمر بعد سقوطه ، فالأحزاب السابقة لم تلبث أن ظهرت ثانية ولا تزال باقية حتى اليوم وبعضها متمسك بأهداب التقاليد والبعض الآخر رافض لها .

ولو وقع ذلك الصراع بين معتقدين وأخلياء لم يدم طويلا لتسامح الأخلياء . ولكن حدوثه بين معتقدات متباينة أوجب استمراره . فالكنيسة الزمنية لم تلبث أن لبست ثوبا دينيا وأصبح مذهبها العقلي نوعا من الكهنوتية الضيقة ، وقد حققنا أن التوفيق بين المعتقدات المتباينة أمر مستحيل . فلم يظهر الكهنة يوم كان الحكم في يدهم بمظهر التسامح مع الأحرار كما أن هؤلاء لم يبدوا أقل تساهل مع اولئك بعد أن قبضوا على زمام الأمور .

وظن كثير من ذوي النفوس البسيطة أن السنة الأولى للجمهورية هي مبدأ تاريخ فرنسة الحديثة . غير أن هذا الفكر الصبياني أخذ يتضاءل في هذه الأيام فأشد الثوريين تمسكا يعدلون عنه في الوقت الحاضر معترفين بأن تأثير الماضي هو خلاف تأثير ذلك الدور الهمجي المظلم الذي استحوذت عليه الأباطيل .

وقد سهل تباغض المعتقدين في كل حزب قلب الحكومات والوزارات عندنا . ولا تأبى أحزابنا التي تبقى أقلية في مجلس النواب أن تتحالف ضد الحزب الغالب . فمن الأمور المعلومة أن عدداً كبيراً من الاشتراكيين الثوريين في مجلس نوابنا الحاضر لم ينتخبوا إلا بمعونة الملكيين الذين ليسوا بأوسع حيلة من الملكيين أيام الثورة الفرنسية الكبرى .

ولم تكن اختلافاتنا الدينية والسياسية وحدها سبب ما هو واقع في فرنسة من الشقاق ، بل كان لها سبب آخر . وهو اتصاف بعض رجال فرنسة بالنفسية الثورية التي من شأنها القيام في وجه أي نظام واقع ولو كان هذا النظام محققاً لآمالهم .

ويزيد ما عند أحزاب فرنسة من عدم التسامح ومن حب القبض على زمام الحكم اعتقادها أن القوانين تجدد المجتمعات . فالجماعات الفرنسية تعتبر الحكومة ذات قدرة لاهوتية مثل القدرة التي تقمصها الملوك في العهد السابق . ولم يكن الشعب وحده واثقاً بما عند الحكومة من السلطان العظيم بل ترى عند مشترعينا نظير تلك الثقة .

ولم يفقه رجال السياسة عندنا حتى الآن أن الأنظمة معلولات لا علل وأنه لا قوة ذاتية لها . فهم إذ كانوا وارثين لذلك الوهم الثورى لا يرون أن الانسان ابن ماض لا تقدر على تجديد قواعده أبداً .

ولا ريب فى أن الصراع الواقع بين المبادىء التى فرقت فرنسة منذ قرن سيستمر . ولا يقدر أحد على كشف ما قد يولده من الانقلابات . فلو علم أهل أثينا قبل الميلاد أن افتراقهم يؤدى الى استعباد بلاد اليونان ما أتوا به . ولكن كيف كان يمكنهم كشف ذلك؟ قال مسيو غيرو :

« قلما يبالى الناس بما يعملون . فالناس وإن كانوا يهيئون المستقبل بعملهم . لا يكون المستقبل فى الغالب إلا خلاف ما يريدون . »

٢ — خلاصة الحركات الثورية التى وقعت في فرنسة منذ قرن .

أوضحنا ما للحركات الثورية التى وقعت فى فرنسة منذ قرن من العلل النفسية . والآن نلخص تاريخ تلك الثورات :

قهر الملوك نابليون فردوا فرنسة الى حدودها السابقة وأجلسوا لويس الثامن عشر على العرش . فنشر هذا الملك الجديد مرسوماً قال فيه إنه يرضى أن يكون ملكا دستورياً وأن يكون نظام البلاد نيابياً . ثم اعترف بنتائج الثورة الفرنسية من قانون مدنى ومساواة أمام القانون وحرية العبادة وعدم استرداد الاموال الوطنية الخ ، إلا أنه حصر حق الانتخاب فى الذين يدفعون ضريبة معينة .

فناهض الملكيون المتطرفون فى مجلس النواب هذا الدستور الحر وارادوا إعادة الأموال الوطنية والامتيازات السابقة الى أصحابها . ولكن لما شعر لويس الثامن عشر بأن تنفيذ هذا العمل الرجعى يشعل ثورة جديدة اكتفى بفض مجلس النواب . وأدت الانتخابات الجديدة الى اختيار نواب معتدلين فاستطاع الملك أن يثابر على الحكم بتلك المبادىء عالماً أن إرجاع سكان فرنسة إلى مبادىء العهد السابق مما يدفعهم الى العصيان .

ومن دواعى الأسف أن تبوأ شارل العاشر العرش بعد وفاة لويس الثامن عشر سنة ١٨٢٤ ، فقد كان هذا الملك السخيف العاجز عن إدراك ما طرأ على العالم من التبدل فخوراً بعدم تغيير أفكاره منذ سنة ١٧٨٩ . وأعد سلسلة من القوانين الرجعية

القائلة بتعويض المهاجرين مليار فرنك وإعادة حقوق البكرية وامتياز الاكليروس الخ . وقد عارضت أكثرية النواب فى ذلك فوضع الملك سنة ١٨٣٠ مراسيم حل فيها مجلس النواب وألغى حرية الصحافة وهيأ أمر الرجوع الى نظام العهد السابق فأوجب هذا الاستبداد تحالف الأحزاب فاتفق الجمهوريون والبوناپارتيون والملكيون الأحرار على إيقاد نار الفتنة فى باريس . ولم تمض أربعة أيام على نشر تلك المراسيم حتى استولى العصاة على العاصمة وفر شارل العاشر قاصداً انكلترة ، ثم دعا زعماء الفتنة — كتييار وكازيمير بريه ولافايت — لويس فيليب ، الذى كان الشعب لا يعلم عنه شيئاً ، الى باريس ونصبوه ملكاً للفرنسيين .

وقد استند لويس فيليب فى توطيد دعائم ملكه الى الطبقة الوسطى فوضع قانوناً خفض فيه عدد الناخبين الى متى ألف . وهذا ما أوجب انتخاب نواب من تلك الطبقة موالين للحكومة الجديدة .

فبات لويس فيليب فى موقف حرج ، إذ كان عليه أن يقاوم فى آن واحد أنصار هنرى الخامس (حفيد شارل العاشر) والبوناپارتيين الذين اعترفوا بلويس نابليون رئيساً والجمهوريين. وقد أحدث هؤلاء كلهم، (من سنة ١٨٣٠ حتى ١٨٤٠) ، بما لهم من الجمعيات الخفية المشابهة لأندية الثورة الفرنسية ، فتناً كثيرة ، وإن سهل قمعها جميعها، ولم ينصرف أنصار هنرى الخامس والكهنة عن دسائسهم قط ، فقد حاولت والدته إيقاد نار الثورة فى مقاطعة فانده . فلم تنجح ، وصارت مطاليب الاكليروس من التشدد بحيث نشأ عنها عصيان خربت فى أثنائه اسقفية باريس .

ولم يكن الجمهوريون حزباً شديد الخطر لاتفاق مجلس النواب والملك على مناهضتهم . وقد صرح الوزير غيزو أن الحكم يحتاج الى أمرين : « العقل والمدفع » ، ولا شك فى أن شيئاً من الوهم تطرق الى هذا السياسىّ الشهير الذى نسب الى العقل ما للمدفع من تأثير .

ولم يعدل الجمهوريون والاشتراكيون عن الحركة .فقد سعى أحد زعماء الاشتراكيين (لويس بلان) الى حمل الحكومة على إيجاد أعمال لأبناء الوطن كلهم . وفى سنة ١٨٤٨ حدثت أزمة إصلاح الانتخابات فنشأت عنها فتنة جديدة أوجبت سقوط لويس فيليب بغتة .

والعلل التى سوغت خلع لويس فيليب أقل أهمية من العلل التى نشـأ عنها خلع شارل العاشر ،فاذا قلت إن لويس فيليب كان سيء الظن بالانتخاب العام قلنا لك إن حكومات الثورة الفرنسية أساءت الظن به مرات كثيرة . ونضيف الى ذلك قولنا إن حكومة لويس فيليب لم تكن مطلقة كحكومة الديركتوار وغيرها .

قامت فى دائرة البلدية حكومة موقتة لتدبر دفة الأمور فاعلنت الجمهورية وقررت الانتخاب العام . وأمرت أن ينتخب الشعب جمعية وطنية مؤلفة من تسع مئة عضو . وقد صارت هذه الحكومة منذ البداءة هدفاً للدعاية الاشتراكية ولفتن كثيرة فوقعت أمور نفسية كالتى حدثت أيام الثورة الفرنسية الكبرى أى قامت أندية جديدة . وقد كان زعماء هذه الأندية يسوقون الشعب من وقت الى آخر الى الجمعية الوطنية لأسباب يرفضها العقل الرشيد . كاكراه الحكومة على معاضدة عصيان كان قد اشتعل فى بولونية .

وارضاء للاشتراكيين الذين كانوا يقترحون كل يوم اقتراحاً جديداً أنشأت تلك الجمعيـــة مصانع وطنية ليقوم فيها العمال بشتى الأعمال . وكان يشتغل فى هذه المصانع مئة الف عامل . وكانت الحكومة تنفق عليهم كل يوم مليون فرنك . ولكن هؤلاء العمال لما طلبوا أن يعطوا رواتب من غير أن يأتوا عملا قررت تلك الجمعية إغلاق ما أسسته من المصانع .

ونشأ عن ذلك القرار عصيان هائل . فرفع خمسون الف عامل راية العصيان واستولى الفزع على الجمعية الوطنية فعهدت فى السلطة التنفيذية الى الجنرال كافينياك . وقد قتل فى المعركة التى وقعت بين الحكومة والعصاة ثلاثة قواد ومطران باريس ، ثم أمرت تلك الجمعية بنفى ثلاثة آلاف سجين الى بلاد الجزائر .

ولم يلبث الفلاحون الذين ظنوا أن خطر الاشتراكية والطبقة الوسطى محدق بهم أن انقلبوا على النظام الجمهورى، ولكن لما وعدهم لويس نابليون باعادة النظام استقبلوه بحماسة . فرشح نفسه لرآسة الجمهورية فانتخبه لها خمسة ملايين ونصف مليون ناخب .

وسرعان ما وقع الخلاف بين الجمعية الوطنية ولويس نابليون ففض هذا الأخير تلك الجمعية وقبض على ثلاثين الف رجل ونفى عشرة آلاف رجل وطرد من البلاد مئة نائب، وقد رضيت الأمة بذلك عندما استفتيت فيه ، فاستحسنه سبعة ملايين ونصف مليون ناخب من ثمانية ملايين ناخب ، وفى ٢ ديسمبر سنة ١٨٥٢ نصب لويس نابليون

امبراطوراً بأكثرية اكبر من تلك، والسبب فى إعادة النظام الامبراطورى هو مقت الناس فى فرنسة للمشاغبين والاشتراكيين

وكان نظام الامبراطورية استبدادياً فى العقد الأول فأصبح دستورياً فى العقد الثانى، وخلعت ثورة ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ الامبراطور لويس نابليون على أثر تسليمه مدينة سيدان بعد أن ملك ثمانى عشر سنة .

وندر بعد هذا التاريخ وقوع فتن ثورية . ونعد أهم فتنة اشتعلت منذ ذلك الحين فتنة شهر مارس سنة ١٨٧١ التى احترق فيها قسم من مبانى باريس الفخمة والتى قتل فيها عشرون الف عاص .

وبعد ما نال البلاد من المصائب الكثيرة ما نالها فى حرب سنة ١٨٧٠ لم يعلم الناخبون شطر من يولون وجوههم فأرسلوا الى المجلس التأسيسى نواباً اكثرهم من البوربونيين والاورليانيين . ولما لم يتفق هؤلاء النواب على إعادة الملكية انتخبوا تيار رئيساً للجمهورية ثم أقاموا فى مكانه المرشال مكماهون وقد جددت الانتخابات سنة ١٨٧٦ فحاز الجمهوريون الاكثرية كما حازوها فى كل انتخاب وقع بعد ذلك .

وقد انقسمت مجالسنا النيابية بعد هذا التاريخ الى أحزاب كثيرة فأوجب ذلك سقوط كثير من وزاراتنا . على أن ما وقع بين تلك الأحزاب من الموازنة متع البلاد بسكينة نسبية . ولم ينشأ عن إسقاط أربعة رؤساء للجمهورية اشتعال ثورة أو شغب ، نعم ، حدثت فتنة شعبية سنة ١٨٨٨ وأوشكت أن تقضى على النظام الجمهورى ليقبض الجنرال بولانجه على زمام الحكم . ولكن مقاومة هذا النظام لتلك النفسية أدت الى تغلبه على الأحزاب المخالفة كلها .

ولبقاء النظام الجمهورى الحاضر فى فرنسة أسباب كثيرة : منها أن الأحزاب المتطاحنة ليست من القوة بحيث يستطيع واحد منها أن يسحق الآخر . ومنها تجرد رئيس الدولة من السلطة تجرداً لا نستطيع معه أن نعزو اليه السيئات التى نقاسى نتائجها فندعى أن الأمور تتبدل باسقاطه . ومنها أنه لما توزعت السلطة بين ألوف من الموظفين وتجزأت المسؤولية صار من الصعب معرفة من يجب لومه ومجازاته .

ونلخص التحول الذى نشأ عن الثورات التى وقعت فى فرنسة بالكلمة الآتية وهى :

أن هذه الثورات اقامت مقام استبداد الفرد الذى يسهل القضاء عليه استبداد الجماعة القوى الذى يصعب تقويض دعائمه .

ويظهر أن الأمم الطامعة فى المساواة والتى تعودت أن ترى حكوماتها مسؤولة عن كل ما يحدث لا تطيق استبداد الفرد وإنما تصبر على استبداد الجماعة وإن كان استبداد الجماعة أشد وأقسى .

وبما أن ما قنا به من ثورات كثيرة لم يؤد إلا إلى قيام استبداد الجماعة وتقويته فانه يمكن اعتبار هذا الاستبداد غاية الأمم اللاتينية ، واستبداد الجماعة هو بالحقيقة هدف الأمم اللاتينية الذى أجمعت عليه هـــذه الأمم ، وما الجمهورية والملكية والامبراطورية عند الأمم اللاتينية إلا عناوين باطلة وأشباح ماثلة .

الجزء الثالث

نشوء المبادىء الثورية فى الوقت الحاضر

الفصل الأول

تقدم العقائد الثورية بعد الثورة الفرنسية

١ — انتشار المبادىء الديموقراطية البطيء بعد الثورة الفرنسية .

تحافظ المبادىء التى رسخت فى النفوس على نفوذها أجيالا كثيرة . ولم تشذ المبادىء التى أعلنتها الثورة الفرنسية عن هـذا الناموس . فمع أن دوام تلك الثورة ، كحكومة ، كان قصيراً جـداً نرى تأثير مبادئها قد طال كثيراً . وعـلة ذلك أن هذه المبادىء لمـا صارت معتقداً ذا صبغة دينية حولت وجهة مشاعر كثير من الأجيال وأفكارهم تحويلا أساسياً .

استمرت الثورة الفرنسية وقتاً طويلا ، ولا تزال مستمرة . وذلك مع ملاحظة بضع فترات وقعت . فلم يقتصر تأثير نابليون على قلب العالم وتغيير خارطة أوربة وتجديد أعمال الاسكندر بل كان لحقوق الشعب الجـــديدة التى أعلنتها ثورتنا الكبرى وثبتها نابليون فى أناظيم وقوانين، تأثير عظيم فى كل مكان ، وقد عاشت هذه الحقوق الثورية ، التى أعان نابليون على انتشارها بعد زوال ملكه .

وماوقع بعد الدور الأمبراطورى من الحوادث التى أدت إلى إقامة الملكية أنسى الناس فى بدء الأمر شيئاً من مبادىء الثورة الفرنسية . وقد تركت هذه المبادىء أثراً فى نفوس عدد يسير من النظريين الوارثين لنظرية اليعاقبة البسيطة والمعتقدين أن القوانين تجدد المجتمعات فأراد هؤلاء استئناف العمل .

أخذوا يذيعون مبادئهم بما ينشرونه من مقالات وكتب ، وقد نشأ عن تقليدهم رجال الثورة الفرنسية عدم بحثهم فى مسألة ملاءمة خططهم الاصلاحية لطبيعة البشر ، وهاهم قد أقاموا ، مثل رجال الثورة الفرنسية ، مجتمعاً وهمياً ظانين أن تحقيق أحلامهم فيه يجدد النوع الانسانى .

والنظريون فى كل جيل وان لم يقدروا على البناء أثبتوا أنهم قادرون على التخريب قال نابليون فى جزيرة القديسة هيلانة : « لوقامت ملكية من صوان لاستطاع النظريون أن يحولوها الى غبار »

ومن بين أولئك الخياليين ، الذين نذكر منهم سانسيمون وفوريه وبيارليرو ولويس بلان وكينيه ، نرى أن أوغست كونت وحده هو الذى أدرك وجوب نشوء الأفكار والعادات قبل التنظيم السياسى .

ولا تؤدى خطط النظريين الاصلاحية فى الوقت الحاضر الى انتشار المبادىء الديموقراطية بل تعوق سيرها . فالشيوعية تخوف أرباب المال والطبقات العاملة ، وقد رأينا فى الفصل السابق أن الخوف منها كان عاملا أساسياً فى إعادة النظام الامبراطورى .

ومع أن ما ألفه كتاب النصف الأول من القرن التاسع عشر لا يستحق أن يجادل فيه . فانه يثبت ما للمبادىء الدينية والأدبية المحتقرة الآن من الشأن فى ذلك الزمن ، فالمصلحون فى كل زمن سعوا الى إقامة المجتمعات الجديدة على مالا تقوم بغيره من المعتقدات الدينية والاخلاقية .

والى ماذا يستند المصلحون فى إيجاد تلك المعتقدات ؟ يستندون الى العقل . فما دام العقل هو الذى يصنع الآلات المعقدة فلم لا يستعينون به على إيجاد معتقدات دينية أو أخلاقية ؟ لم يخطر على قلب أحد منهم أن المعتقدات المذكورة لا تقوم على أساس العقل أبداً . حتى إن ذلك خفى على أوغست كونت نفسه . فقد أسس ديناً وضعياً لم ينتحله سوى بضعة أشخاص حتى الآن . ويأمر هذا الدين بتعيين كهنة يديرهم حبر جديد غير الحبر الأعظم للمذهب الكاثوليكى .

ولم ينشأ عن هـذه الأفـكار السياسية والدينيـة والأخلاقية غـير تحويل الجماعات عن المبادىء الديموقراطية . أقول ذلك والمبادىء الديموقراطية آخذة فى الانتشار السريع. وانمـا يقع هذا الانتشار بتأثير طرق الحياة الجديدة ، لا بتأثير النظريين . فقد أوجبت مبتكرات العـــلم تقدم الصناعة وتأسيس مصانع عظيمة وتغلب مقتضيات الاقتصاد على عزائم الحكومات والشعوب شيئاً فشيئاً . وفسح المجال للمذهب الاشتراكى والمذهب النقابى أى لمظهرى الأفكار الديموقراطية فى الوقت الحاضر .

٢ — النصيب المتفاوت لمبادىء الثورة الفرنسية الثلاثة.

يمكن تلخيص ميراث الثورة الفرنسـية فى ثلاث كلمات : الحرية والمساواة والاخاء ، وقد رأينا أن تأثير مبدإ المساواة وحده كان عظيما .

والناس قد اختلفوا فى فهم تلك الألفاظ ، ومن الأمور المعلومة أنه نشأ عن الاختلاف فى تفسير الألفاظ الواحدة حروب كثيرة .

كانت كلمـة الحرية تدل عند رجال العهد على حقهم فى الاستبـداد المطلق والآن تدل عند الشاب المتعـــلم على تحرير النفس من كل احترام لمـا يضغطها من تقاليـد وقوانين وأفضليات . وهى تدل عند يعاقبة الوقت الحاضر على حقهم فى اضطهاد خصومهم .

يذكـر الخطباء السياسيون كلمـة الحرية من وقت الى آخر فى خطبهم ، وقد عدلوا عن ذكر كلمة الاخاء لدعوتهم اليوم الى تطاحن الطبقات لا إلى التوفيق بينها . وما وجد حقد يفرق بين طبقات الأمة وأحزابها السياسـية مثل الحقد الذى ينفثون سمومه . وبينما يتزعزع مبدأ الحرية ويتقلص مبدأ الاخاء نرى مبدأ المساواة ينمو . وقد بقى هذا المبدأ ، على رغم ما وقع فى فرنسة من الانقلابات السياسية منذ قرن . وبلغ من الاتساع مبلغاً صار به أساساً لحياتنا السياسـية والاجتماعية وقوانيننا وعاداتنا وتقاليـدنا ، ولو من الجهة النظرية على الأقل .

فمبـدأ المساواة هو ميراث الثورة الفرنسـية الصحيح ، وليس الاحتياج الحاضر الى المساواة أمام القانون وفى المناصب والأموال إلا طور الاشتراكية أى طور الديموقراطية الأخير ، وكلمـا عم هذا الاحتياج عظم سلطانه وإن خالف سنن الحياة والاقتصاد ، وهو صورة جديدة لمـا بين العقل والمشاعر من الصراع الذى قلما يخرج العقل منه ظافراً .

٣ – ديموقراطية الكتاب والديموقراطية الشعبية .

يمكن رد جميع المبادىء التى قلبت العالم الى ناموسين : النشوء البطىء والتكيف حسب اختلاف النفوس .

ويشبه المذهب ذوات الحياة ، فهو لا يعيش إلا إذا تحول ، و بما أن الكتب لا تذكر هذا التحول فيكون ما تقرره هو طور الماضى ، أى صورة الموت هى التى ترسم فيها لا صورة الحياة .

وقد أثبتُ فى كتاب آخر كيف تتحول النظم و اللغات والفنون عندما تنتقل من أمة الى أخرى وبينت درجة اختلاف سنن هذه التحولات عما يرد فى الكتب . والذى يجعلنى الآن أشير الى ذلك هو أنى أريد أن أوضح علة عدم مبالاتى فى البحث عن الديموقراطية بما يجىء فى مذاهبها من النصوص وعلة كونى أقتصر على التنقيب عن عناصرها النفسية وعن تأثيرها فى طبقات الناس الذين ينتحلونها .

يتحول المبدأ الأول بسرعة عند ذوى النفسيات المختلفة . ولا يلبث هذا المبدأ أن يصبح عنوان أمور كثيرة التباين . ويطابق هذا الرأى المعتقدات الدينيـة والسياسية ، فعندما يبحث فى الديموقراطية مثلا يجب تحقيق مدلول هذه الكلمة عند مختلف الأمم وتحقيق الفرق فى الأمة الواحدة بين ديموقراطية الكتاب والديموقراطية الشعبية .

ويسهل علينا ، عند وضعنا الملاحظة المذكورة موضع الاعتبار أن نحقق أن ما يرد فى الكتب والجرائد من الأفكار الديموقراطية لم يكن غير نظريات خالصة يضعها الكتاب ولا يعلم الشعب من أمرها شيئاً ولا يفيده العمل بها . فاذا حاز العامل نظرياً حق اختراق الحواجز التى تفصله عن الطبقات القائدة بالمسابقات والفحوص فان أمل وصوله الى ذلك عملياً ضعيف جداً .

وليس لديموقراطية الكتاب غاية سوى ايجاد فريق من الناس تتألف منهم طبقة الأمة القائدة . واننا نأسف على تأدية هذه الديموقراطية الى إقامة حقوق مطلقة تخص جماعة مستبدة قصيرة النظر مقام ما للملوك من الحقوق الالهية ، فالحرية لا تكون باحلال استبداد محل استبداد .

وأما الديموقراطية الشعبية فلا تسعى الى إنشاء فريق من القادة . وهى لشدة اهتمامها بالمساواة وتحسين أحوال العمال ترفض مبدأ الاخاء ولا تبالى بالحرية ، ولا تتصور

شكلا للحكومات غير الشكل الاستبدادى ، وذلك ما يبـــدو لنا من هتافها للحكومات المستبدة التى ظهرت منذ نشوب الثورة الفرنسية ومن الطريقة القهرية التى تسير عليها نقابات العمال .

والفرق النفسى بين ديموقراطية العمال وديموقراطيـــة الكتاب ليس بالأمر الخفى ، فالفريقان لا يتكلمان لغة واحدة و يصرح رجال النقابات أن الاتفاق لا يمكن أن يسودهما

حقاً إن الاتفاق بينهما لا يمكن أن يكون ، وهذا هو السبب فى عدم ظهور مفكرين عظام يدافعون عن الديموقراطية الشعبية منذ زمن أفلاطون .

٤ — التفاوت الطبيعي والمساواة الديموقراطية .

مشكلة التوفيق بين المساواة الديموقراطية والتفاوت الطبيعى من أصعب مشاكل الوقت الحاضر ، وليست أمانى الديموقراطية مجهولة لدينا ، فلنبحث عن جواب الطبيعة عن هذه الأمانى .

اصطدمت المبادىء الديموقراطية ، التى زعزعت العـالم منذ عصر البطولة اليونانية ، بمـا نشأ عن الطبيعة من التفاوت . والمؤلفون الذين قالوا مع هلفيسيوس إن التفاوت بين الناس صادر عن التربية قليلو العدد . فالطبيعة لا تعرف المساواة وقد وزعت أمور الدهاء والحسن والصحة والقوة والذكاء توزيعاً مختلفاً ، ولا تقدر النظريات على تحويل هـــذا الاختلاف . فستظل المذاهب الديمقراطيـــة محصورة فى مجال الألفاظ حتى اليوم الذى ترضى فيه نواميس الوراثة بتوحيد أهليات الناس .

وهل يجوز أن نفرض أن المجتمعات تستطيع أن تصنع المساواة التى أنكرتها الطبيعة ؟ استمر بعض النظريين على القول إن التربية قادرة على إحداث مسـاواة عامة ، ولـكن التجارب التى وقعت فى عدة سنين أثبتت ضعف نظرهم .

و يستحيل على الاشتراكية ، عند انتصارها . أن تقيم دعائم المساواة بقضائها على أفاضل الناس ، ولا يصعب إدراك مصير أمة أهلكت صفوتها فى زمن تتقدم فيه الأمم المجاورة بمـا عندها من خيرة الرجال .

وليس أمر الطبيعة مقتصراً على عدم إقرارها بالمساواة ، بل إنها أوجبت تقدم العالم بما أدت اليه من التفاوت الزائد . وهـــذا التفاوت هو الذى أوجد من خلايا الأدوار الجيولوجية أناساً غيرت اكتشافاتهم وجه الأرض .

و يشاهد مثل ذلك فى المجتمعات ، فالديموقراطية التى تصطفى أذكياء الشعب تؤدى فى نهاية الأمر إلى وجود أريستوقراطية ذهنيـة مخالفة لحلم النظريين بخفض عناصر المجتمع الراقية الى مستوى عناصره الدنيا .

والآن يشاهد الناس أنه كلما حاولت القوانين والنظم مساواة الأفراد زاد تقـــدم الحضارة تفاوتهم . فقد كان الفرق الذهنى بين الأمير الاقطاعى والفلاح ضئيلا فى العهد السابق . ولكنه أصبح عظيما بين العامل والمهندس فى هذه الأيام وهو آخذ فى الزيادة

صارت الأهلية عاملا أساسياً للرقى . فذوو الأهلية من كل طبقة يصعدون والعاطلون منها يقفون أو ينزلون . وماذا تفعل القوانين فى مقتضيات الزمن التى لا مفر منها . ؟

ومن العبث أن يزعم فاقدو الأهليـة أنهم أصحاب القوة لكثرة عددهم ، فالقضاء على ذوى الأدمغة العالية التى تفيد العمال بمباحثها يوقع العمال في الفاقة والفوضى .

وما لصفوة الناس من الشـأن العظيم فى المدنيات الحديثة واضح لا يحتاج إلى إثبات . فعند الأمم المتمـــدنة والأمم المتأخرة طبقة متوسطة متماثلة . وانما الذى يجعل الأمم المتمدنة أعلى من الأمم المتأخرة هو ما عند الأمم المتمدنة من صفوة لا نظير لها عند الأمم المتأخرة . وقد أدركت الولايات المتحدة ذلك فأغلقت أبوابها دون عمال الصين الذين يتصفون بأهلية كالتى عند عمال أمريكة ويزاحمونهم فى ميدان الصناعة بأجور بخسة .

يزيد النفور بين العوام والخواص كل يوم . ومع أن الاحتياج الى الخواص لم يشتد فى وقت اشتداده فى زماننا فان الصبر على هـذا الاحتياج لم يصعب فى دور مثل صعوبته فى الدور الحاضر .

ونعد الحقد الشـــديد على صفوة الناس من صفات الاشتراكية . وينسى أنصار الاشتراكية أن مبتكرات العلم والفن والصناعة هى سر قوة البلاد وسعادة من فيها من ملايين العمال وأن هؤلاء العمال مدينون لأصحاب العقول السامية الذين أتوا بتلك المبتكرات . فلو أن معجزة جعلت الناس ينتحلون الاشتراكية قبل قرن وقضت هذه الاشتراكية على صفة المخاطرة وإنعام النظر والاستنباط وكل باعث على العمل لأدى ذلك الى الوقوف وفقر العامل . والباعث على القول بالمساواة فى البؤس هو ما يغلى فى صدور بعض ذوى السخف من الشهوة والحسد . ولن يعدل البشر عن تقدم الحضارة إرضاء لمثل هذه الأهواء الدنيئة .

الفصل الثانى

نتائج النشوء الديموقراطى

١ — تأثير المبادىء التى لا قيمة عقلية لها فى النشوء الاجتماعى .
٢ — الروح اليعقوبية والنفسية التى نشأت عن المعتقدات الديموقراطية .
٣ — الانتخاب العام ومنتخبوه .
٤ — الاحتياج الى الاصلاح .
٥ — الفروق الاجتماعية بين أنواع الديموقراطية .

١ — تأثير المبادىء التى لا قيمة عقلية لها فى النشوء الاجتماعى

بينا فى الفصل السابق أن السنن الطبيعية لا تلائم الأمانى الديموقراطية ، ومن الأمور المعلومة أن لا تأثير لهذه الحقيقة فى المبادىء الراسخة فى النفوس ، فالانسان لا يبالى بما فى المعتقد الذى يسيره من القيمة الحقيقية ، والفيلسوف الذى يبحث عن هذا المعتقد وإن وجب عليه أن يجادل فى قيمته العقلية ينبغى أن ينقب أيضاً عن تأثيره فى النفوس .

وتبدو أهمية هذا التقسيم عند الاستعانة به على تفسير المعتقدات التى ذكرها التاريخ ، فمع أن المشترى ومولوخ وفيشنو وغيره من الآلهة خيالات من الجهة العقلية كان شأنها عظيما فى حياة الأمم ، وكذلك كان شأن المعتقدات التى سادت القرون الوسطى وحتت ظهور ألوف الناس أمام الهياكل ، ومن هو فى شك من ذلك فليقابل بين تغلب الدولة الرومانية وتغلب الكنيسة : فقد كان تغلب الرومان ملموساً لا ريب فيه وكان تغلب الكنيسة قائما على أسس وهمية ، إلا أنه اتفق لتغلب الكنيسة من السلطان القوى ما اتفق لتغلب الرومان ، ففى القرون الوسطى المظلمة نالت به الأمم الهمجية ما لا تقوم حضارة على غيره من الروادع الاجتماعية والروح القومية ، ويثبت هذا السلطان الذى نالته الكنيسة قدرة بعض الأوهام على إيجاد مشاعر مخالفة لمنافع الفرد والمجتمعات كالرهبانية والحروب الصليبية وحروب الدين الخ

وإذا عرضنا الملاحظات السابقة على المبادىء الديموقراطية والاشتراكية ظهر لنا أن نجاح هذه المبادىء لا يتطلب قيامها على أساس متين وإنما يكفيها أن تبسط سلطانها على القلوب .

ومن الخطأ أن يكلف دعاة المذاهب الجديدة أنفسهم عناء البحث عن أساس عقلى يفسرون به أمانيهم . فتأثيرهم يكون أتم وأكمل إذا اقتصروا على التوكيد وبث الآمال ، وما قوتهم إلا فى النفسية الدينية الملازمة قلب الانسان والتى لم تغير سوى المواضيع فى مختلف الأجيال . وقد قلنا عندما تكلمنا عن الكنيسة فى القرون الوسطى إنها قدرت على التأثير فى نفوس الناس . فعندما يتحقق شيء من آمال المذاهب الديموقراطية نرى أن سلطانها ليس أقل من سلطان الكنيسة فى القرون الوسطى .

٢ — الروح اليعقوبية والنفسية التى نشأت عن المعتقدات الديموقراطية .

لم يقتصر ميراث الأجيال الحديثة على المبادىء الثورية بل اشتمل على النفسية التى أوجبت انتصار هذه المبادىء .

ولقد وصفنا هذه النفسية ، عند البحث فى الروح اليعقوبية . فأثبتنا أنها تميل إلى ارغام الناس على قبول أوهامها التى عدتها حقائق . ولم تلبث الروح اليعقوبية أن عمت فرنسة والبلدان اللاتينية الأخرى فاستحوذت فيها على أحزابها ومنها الأحزاب المحافظة .

نتيجة انتشار الروح اليعقوبية هى حمل الناس على المبادىء السياسية والنظم والقوانين قسراً . وهذا هو السر فى أن المذهب النقابى ، الذى هو سلمى ومنظم فى البلاد الأخرى ، لم يلبث أن نهج عندنا نهجاً فوضوياً متجلياً فى صورة اضطرابات وحرق وتخريب .

واذا استولى الخوف على الحكومات فلم تكبح جماح الروح اليعقوبية أفسدت هذه الروح أصحاب العقول الصغيرة . فلما وافق ثلث المندوبين فى مؤتمر المعدنين الأخير على سياسة التخريب قال أحد كتاب المؤتمر : « أهدى الى كل من يعمل بسياسة التخريب من العمال سلامى الأخوى وإعجابى القلبى . »

وتوجب هذه الذهنية العامة زيادة الفوضى فى البلاد . وإذا لم تكن فرنسة الآن فى ثورة مستمرة فذلك لما هو واقع بين أحزابها من توازن . نعم إن كل حزب فرنسى مفعم من الحقد الشديد على الأحزاب الأخرى . ولكن لم يملك واحد من هذه الأحزاب قوة كافية لاخضاع غيره .

وقد سارت الروح اليعقوبية فى البلاد مسيراً جعل حكامنا أنفسهم يتـذرعون باشد الوسائل الثورية لقهر خصومهم فاضطهدوا هؤلاء الخصوم وجردوهم من أموالهم من غير أن تحتج الأحزاب على ذلك ، وما أشبه سير حكامنا فى الوقت الحاضر بسير الفاتحين فى القرون القديمة حين لا أمل للمغلوب .

إذن ليس عدم التسامح خاصاً بالعوام بل يشاهد أيضاً عند ولاة الأمور ، وقد لاحظ ميشله منذ زمن طويل أن استبداد المتعلمين أشد من استبداد العوام فى بعض الأحيان . ولا ريب فى أن المتعلمين لا يكسرون المصابيح . ولكن سرعان ما يسهل عليهم ضرب الرقاب ، فالمتعلمون والأساتذة والمحامون الذين ظن أن ما نالوه من التهذيب المدرسى لين طباعهم هم الذين اقترفوا أشد المظالم أيام الثورة الفرنسية . ولم يلطف التعليم طباع الناشئة فى الوقت الحاضر أكثر من ذى قبل . وهذا يظهر من قراءة الجرائد والرسائل التى ينشرها أساتذة الجامعات . فيسأل القارىء متعجباً كيف اشتعل الحقد فى قلوب هؤلاء الذين حالفهم الحظ الحسن .

ولم يكونوا صادقين فى قولهم إن محبة الغير هى التى تدفعهم الى ذلك فروحهم الدينية الضيقة وشوقهم إلى الشهرة هما سبب ما ينشرونه من رسائل الدعوة ، وقد استشهدت فى مؤلف آخر بعبارات أحد أساتذة مدرسة فرنسة (كوليج دوفرانس) التى جاءت فى أحد كتبه وحرّض فيها الشعب على نهب أموال الطبقة الوسطى التى يلعنها فاستنتجت منها أنه إذا اشتعلت ثورة جديدة سهل عليها أن تجد بين مؤلفي تلك الرسائل أعواناً مثل مارا وروبسبير وكاريه .

وإذا نفدت شؤون المذاهب الدينية السابقة فان حقيبة المبادىء الديموقراطية لاتزال ملآى . ونرى أنه يخرج منها كل يوم شىء جديد ، ونعد الحقد على الأفضليات من أهم ما خرج منها . وقد عم الحقد على كل من يجاوز المستوى المتوسط فكان من نتائج هذا الحقد شيوع الحسد والغيبة والميل الى الهجو والسخرية والجفاء وارتكاب الدنايا وجحود الصدق والنزاهة والذكاء . ومن يدقق فى أحاديث المتعلمين والشعب يعلم أنهم ينتقصون فيها أكابر الرجال ويحطون من قدرهم . ولم ينج أعاظم الموتى من أن يكونوا عرضة لمثل ذلك الانتقاص ، فلم تؤلف كتب اكثر من التى استصغرت فيها قيمة المشاهير الذين عدوا فى الماضى أثمن ميراث حوته البلاد .

والحسد والحقد ، كما يظهر ، قد لازما مبادىء الديموقراطية فى كل زمن ، ولكن لم يكثر شيوعهما فى وقت كثرته اليوم ، وما خفى ذلك على المدققين ، قال مسيو بوردو :

« نرى اليوم غريزة سافلة ثورية عاطلة من حلية الأدب لا غاية لها سوى خفض البشر الى الدرك الأسفل ، وهى تعد كل أفضلية ، ولو علمية ، خروجاً على المجتمع ، فهذا الميل اللئيم الى المساواة هو الذى كان مشتعلا فى قلوب اليعاقبة السفاكين حينما قطعوا أعناق لافوازيه وشينيه وغيرهما . »

وليس الحقد على الأفضليات ، العامل على انتشار الاشتراكية الآن ، هو كل ما تتصف به الروح الجديدة الناتجة عن المبادىء الديموقراطية ، بل نرى عوامل أخرى مهمة تقوى بها هذه الروح . وهذه العوامل هى : تقدم المذهب الحكومى وتناقص ما عند الطبقة الوسطى من النفوذ والقوة وزيادة تأثير الملايين وتنازع الطبقات واضمحلال الروادع الاجتماعية القديمة وانحطاط الآداب .

ومثل الحركة الاجتماعية فى زيادة سرعتها كمثل الحركة الميكانيكية ، فأمرها يتفاقم من يوم الى آخر ، ويتجلى هذا التفاقم فيما يقع كل يوم من الحوادث كاعتصاب المعدنين وموظفى البريد وانفجار المدرعات الخ . قال مسيو دولانيسان أحد وزراء بحريتنا السابقين بمناسبة تحطم المدرعة الليبرته التى قيمتها خمسون مليون فرنك والتى هلك فيها مئتا رجل فى دقيقة واحدة :

« إن المرض الذى يقوض أسطولنا هو كالذى يقوض جيشنا وإدارتنا ودواويننا ونظامنا النيابى ونظامنا الحكومى ومجتمعنا برمته ، وهذا المرض هو الفوضى أى ارتباك النفوس وسائر الامور ارتباكا تنجز به الأعمال على وجه غير معقول ويسير به كل امرىء على وجه ينافى الواجب والأدب . »

وقال رئيس بلدية باريس مسيو فليكس روسل : « ليست بحريتنا علة دائنا ، بل إن هذه العلة أعم . وتلخص فى ثلاث كلمات : عدم التبعة وقلة النظام والفوضى . »

ويدل ذلك على أن أشد المدافعين عن النظام الجمهورى يعترفون بتدرجنا الى الانحلال الاجتماعى شاعرين بعجزهم عن تلافيه ، وعلة هذا العجز صدور ذلك الانحلال عن مؤثرات نفسية أقوى من عزائمنا .

٣ — الانتخاب العام ومُنْتَخَبُوه .

الانتخاب العام هو أحد المبادىء الديموقراطية الجوهرية الفتانة ، فمبـــدأ المساواة يتجلى فيه بتساوى الأغنياء والفقراء والعلماء والجهلاء والوزراء والأجراء ساعة أمام صندوق الانتخاب ، وقد خافت الحكومات كلها ، ومنها حكومات الثورة الفرنسية ، أمر الانتخاب العام ، ومن ينعم النظر فيه ير أول وهلة إمكان الاعتراض عليه . ومما تأباه النفوس توهم قدرة العوام على انتخاب رجال صالحين للحكم أى قدرة أناس قليلى المعرفة والتهذيب محدودى النظر على نيلهم بكثرة العدد أهلية يحسنون بها التمييز بين المرشحين .

و إذ إنه يتعذر أن يحل فى الوقت الحاضر أى نظام محل الانتخاب العام وجبت ملاءمته ، ولا يفيـــد الاحتجاج عليه والقول مع الملكة مارى كارولين أيام محاربتها نابليون : « لا شىء احق بالمقت من حكم الناس فى هذا الزمن الذى ينقب الاسا كفة فيه عن عورات الحكومة ويسخرون منها . »

والحق إن كل اعتراض على الانتخاب العام ليس له من القوة ما يبدو أول وهلة . فلما ثبتت عندنا صحة سنن روح الجماعات صرنا نشك فى أن اتخاذ طريقة الانتخاب المحدود يؤدى الى اختيار رجال أفضل من الذين يتم اختيارهم حسب طريقة الانتخاب العام ، فتلك السنن تدلنا على أن الانتخاب الموصوف بالعام ليس الا وهماً ، لأنه لما كان رأى الجماعة هو فى الغالب رأى زعمائها ، كان ذلك الانتخاب أضيق انتخاب . وهنا الخطر كله ، فالزعماء القابضون على زمام هذا الانتخاب هم صنائع لجان محليـة صغيرة مشابهة لأندية الثورة الفرنسية الكبرى وهم الذين ينتخبون النائب ، ومتى يكمل انتخاب هذا الأخير يصبح ذا سلطة محليـة مطلقة على أن ينظر الى مصـالح تلك اللجان ، وذلك ما ينسيه منفعة البلاد العامة .

تحتاج اللجان الى اناس مطيعين ، فلا تنتخب للنيابة رجالا ذوى ذكاء عال وأدب رفيع . وإنما تنتخب لهـا أناساً من ذوى الأخلاق الهينة الذين ليس لهم مكانة اجتماعيـة ، ويخضع النائب لتلك اللجان ، التى هى مبعث شهرته ، خضوعاً تاماً فيقول ما تقول و يعمل حسبما تأمره و يمكن تلخيص ما يدعو اليه خياله السياسى بكلمة « طع تدم » ، على أنه قد يحدث ، أن يستأثر بعض الرجال بما لهم من الشهرة أو المنزلة أو الثروة بأصوات الشعب من غير أن تتدخل اللجان المحلية الوقحة فى ذلك .

إذن ليس الانتخاب العام فى بلاد ديموقراطية كفرنسة فى غير الظاهر ، وهذا هو السر فى وضع كثير من القوانين التى لا منفعة للامة فيها كقانون اشتراء سكك الغرب الحديدية والقوانين التى سنت ضد اليسوعيين ، ولا تعبر هذه الأمور عن غير ما أملته اللجان المحلية المتعصبة على النواب من المطاليب .

ويبدو تأثير اللجان المذكورة عند الأطلاع على اضطرار أكثر النواب اعتدالا الى الدفاع عن الفوضويين الذين يخربون دور الصناعة وعلى اتفاقهم مع القائلين بعدم التجنيد وعلى قبولهم أنحس المطاليب طمعاً فى تجديد انتخابهم .

٤ — الاحتياج الى الاصلاح

الميل الى الأصلاح بوضع المراسيم من أشد ما اتصفت به الروح اليعقوبية شؤماً وأعظم ما ورثناه من الثورة الفرنسية خطراً وهو أحد العوامل الاساسية التى أدت الى ما وقع فى فرنسة من الانقلابات منذ قرن .

ومع أننا قمنا منذ أربعين سنة باصلاحات جديرة بأن يدعى كل واحد منها ثورة صغيرة ، لانزال أقل امم اوربة تحولا ، وقد تكون تلك الاصلاحات سبب هذا التحول البطىء ، و يتجلى لنا هذا البطوء عند النظر الى ما عند الأمم من عناصر الحياة الاقتصادية والاجتماعية أى ما عندها من تجارة وصناعة الخ . إذ يظهر لنا أن تقدم كثير من الأمم ، ولا سيما الأمة الألمانية ، عظيم مع أننا نمشى الهوينا ، فقد شاخ نظامنا الأدارى والصناعي والتجارى كثيراً وأصبح غير ملائم لمقتضيات الوقت الحديث ، فصناعتنا صارت قليلة الفائدة وبحريتنا التجارية أصبحت مشرفة على السقوط ، وها نحن لا نقدر على مزاحمة المصنوعات الأجنبية فى مستعمراتنا ، وقد أوضح وزير التجارة السابق مسيو كروبى هذا السقوط المحزن فى كتاب وضعه حديثاً فرأى أن النظم قادرة على معالجته ، وعلى هذا الرأى جميع المشتغلين بالسياسة . ولذلك قلّ تقدمنا . فكل حزب يعتقد أن الاصلاحات تداوى الأمراض ويسوق هذا الأعتقاد الأحزاب الى مخاصمات تجعل فرنسة أكثر بلاد العالم انقساماً وطعمة للفوضى .

ولا نزال غافلين عن الحقيقة الدالة على أن قيمة الأمة بأفرادها ومناهجهم لا بانظمتها ، فليست الاصلاحات الشافية هى الاصلاحات الثورية بل التى تتراكم مع الزمن ، وتتم الانقلابات الاجتماعية الكبيرة مثل الانقلابات الجيولوجية بما يتجمع كل يوم من

العوامل الصغيرة ، وقد أثبت لنا تاريخ المانيا الاقتصادى منذ أربعين سنة صحة هذا الأمر
وما اكثر الحوادث العظيمة التابعة لناموس تجمع العوامل الصغيرة ، فقد تنتهى المعركة الفاصلة أحياناً فى يوم واحد ، ولكن النجاح فيها لا يتم إلا بما سبقها من الجهود الدقيقة المتراكمة ببطوء ، وقد رأينا ذلك سنة ١٨٧٠ ورآه الروس أخيراً ، فمع أن أمير البحر توغو أباد الاسطول الروسى فى واقعة تسوشيما التى توقف عليها مصير اليابان فان الوفاً من المؤثرات الصغيرة البعيدة أوجبت هذا النصر ، وليست العوامل التى نشأ عنها انكسار الروس أقل من ذلك ونعد منها : نظامهم القرطاسى المعقد المؤدى ، مثل نظامنا ، الى عدم المسؤولية ، ومنها عددهم الحربية التى يرثى لها على رغم ابتياعها بذهب يعدل وزنها ، ومنها نظام الجوائز للموظفين ، ومنها قلة المبالاة بمصالح البلاد .

والجزئيات التى تتألف عظمة الأمة منها هى من الخفاء بحيث لا تؤثر فى الجمهور ولا يصلح الأشتغال بها لقضاء منافع السياسيين الانتخابية ، فلا يلتفت هؤلاء اليها تاركين البلاد التى القت اليهم مقاليد أمورها تتدرج الى الانحلال فالى الأنقراض .

٥ — الفروق الاجتماعية بين أنواع الديموقراطية .

ظن الناس ايام الانقسام الى قبائل والتفاوت فى الأنساب أن الفروق الاجتماعية صادرة عن سنة طبيعية ، ولكن عندما زالت الفروق الاجتماعية القديمة ظهر أن الفرق بين الطبقات أمر مصنوع لا يطاق فرأت الأمم الديموقراطية أن تتلافى ذلك باحداث مراتب مصنوعة يستطيع نائلها أن ينتحل بها أفضلية على غيره . وما فشا الطمع فى الألقاب والأوسمة فى زمن فشوه اليوم .

ولا تأثير للالقاب والأوسمة فى البلدان الصحيحة الديموقراطية كالولايات المتحدة ، وإنما يتفاوت فيها الناس فى المال ، وقد يحدث أن فتيات مثريات يقترن فيها بذوى الألقاب الأريستوقراطية الأوربية ، وهكذا يفعلن بغرائزهن ما يجعل أمة فتاة كالولايات المتحدة تنال ماضياً ضرورياً لثبات مزاجها الأدبى .

وإذا نظرنا الى الأريستوقراطية التى نشاهد ظهورها فى امريكة من حيث العموم رأينا أنها لم تقم على الألقاب والأوسمة بل على المال ، ولهذا لا تلقى هنالك فى القلوب حسداً كبيراً ، فكل أمرىء فى أمريكة يطمع أن ينال منه قسطاً كافياً فى أحد الأيام .

وقد كان توكفيل يجهل ، عندما ذكر رغبة الامريكيين فى المساواة فى كتابه الباحث

عن الديموقراطية ، أنه سينشأ عن هذه المساواة المنتظرة تقسيم الناس الى طبقات حسب ما يملكونه من الدولارات ، ولا بد من حدوث ذلك فى اوربة يوماً ما .

وليس فى الوقت الحاضر ما يسمح لنا أن نعد فرنسة بلاداً ديموقراطية ، وهنا نرى أنفسنا حيال ضرورة البحث عما ينطوى تحت كلمة الديموقراطية من الأفكار التى تختلف باختلاف البلدان .

وعندنا أنه ليس فى العالم بلاد صحيحة الديموقراطيـة غير انكلترة وأمريكة ، فهذان البلدان و إن تجلت فيهما الديموقراطية على شكلين مختلفين يشاهد فيهما مبادىء واحـدة ، ولا سيما مبدأ التسامح المطلق مع جميع الآراء والأفكار ، ولكل امرىء فى هذين البلدين اللذين لا عهد لهما بالاضطهادات الدينية أن يتخذ المهنة التى تروقه مهما كان عمره ، من غير أن يقوم أى حاجز فى وجهه .

ويعتقد الناس فى ذينك البلدين أنهم متساوون لعلمهم أنه لا شىء يمنعهم من الوصول الى أعلى المراتب فالعامل فيهما يعلم أنه يستطيع أن يكون عريفاً فمهندساً ، واذ كان من الواجب على المهندس أن يبدأ فيهما بالصعود من أسفل الدرجات ، لا أن يصعد الى أعلاها دفعة واحدة . كما يقع فى فرنسة ، فانه لا يعتبر نفسه من جوهر غير جوهر الناس ، وهذا هو السر فى كون الحقد ، الشديد الشيوع عندنا ، لم ينتشر فى انكلترة وامريكة إلا قليلا .

ولا محل للديموقراطية الفرنسية الا فى الخطب ، وما فى فرنسة من أنظمة المسابقات والامتحانات التى يضطر المرء وهو شاب الى معاناتها يسد فى وجهه أبواب المهن و يحدث فى صميم الأمة الفرنسية طبقات متباينة متخاصمة .

وعلى ذلك نرى أن الديموقراطية اللاتينية أمر نظرى ، وبتعبير آخر : قـــد حل الاستبداد الحكومى عنـدنا محل الاستبداد الملكى ولم يكن أقل قسوة منه ، وقـد قامت الاريستوقراطية المالية فى بلادنا مقـــام اريستوقراطية النسب ، ولم تكن امتيازاتها أخف وطأة .

والفرق بين الملكية والديموقراطية فى الشكل أشد مما فى الأصل ، ويتبع الفرق الحقيقي بين نتائجهما ما عند الناس من النفسية المتحولة ، ولا فائدة من المجادلات فى قيمة مختلف الأنظمة التى تكون قيمتها بقيمة المرؤوسين ، وتكون الأمة على شىء عظيم من الرقى إن علمت أن منزلتها بنسبة الجهود التى يقوم بها أفرادها لا بنسبة جهود حكوماتها .

الفصل الثالث

الاشكال الحديثة للمعتقدات الديموقراطية

١ ـــ النزاع بين رأس المال والعمل .

٢ ـــ نشوء طبقة العمال والحركة النقابية .

٣ ـــ لماذا تتحول بعض الحكومات الديموقراطية الحديثة بالتدريج الى طوائف ادارية

١ ـــ النزاع بين رأس المال والعمل .

بينما يخبط المشترعون فى أمر الاصلاح والاشتراع يتدرج العالم ببطوء فى مجراه الطبيعى فتحدث منافع جديدة ويعظم ما بين الأمم من المزاحمات الاقتصادية ويقوم العمال بضروب الفتن وتظهر مشاكل مخيفة لا تحلها خطب رجال السياسة .

وأعقد المشاكل الجديدة ما يقع بين العمل ورأس المال من نزاع ، ولا يخلو بلد من ذلك حتى البلاد ذات التقاليد كانكلترة ، فقد عدل العمال عن احترام العقود وأخذوا يعتصبون لأسباب تافهة وبلغت البطالة والعوز مبلغاً يقلق البال وسرت عدوى الاعتصاب الى امريكة فعاقت صناعاتها ، ولكن استفحال الداء فيها أدى إلى إيجاد الدواء ، فنظم رؤساء الصناعات بينهم مواثقات كبيرة أصبحت من القوة بحيث تقدر على إلزام العمال طرقها التحكيمية .

ومما يزيد مشكلة العمال صعوبة فى فرنسة اضطرارها ، من أجل تناقص مواليدها ، الى قبول عدد كبير من عمال الأجانب ، وينتج عن ذلك التناقص أيضاً صعوبة محاربة الأمم المزاحمة التى سوف تلجئها قلة حقولها الى الاستيلاء على البلدان القليلة السكان سائرة على أقدم ناموس عرفه التاريخ .

وسيشتد النزاع بين العمال والمستصنعين أكثر من ذى قبل عندما يتفاقم النزاع الاقتصادى بين الآسيويين ذوى الحاجات الضعيفة والقادرين على الانتاج بأبخس الأثمان

وبين الأوربيين ذوى الحاجات العظيمة،وقد أشرت الى أهمية هذا الأمر منذ خمس وعشرين سنة ، وجاء فى كتاب للجنرال هاملتون الملحق الحربى فى الجيش اليابانى ، الذى أخبر بانتصار اليابان قبل وقوع الحرب الروسية اليابانية ، ما يأتى :

« إن الصينى كما بدا لى فى منشورية قادر على إبادة العامل الأبيض فى الوقت الحاضر ، ولا يفكر الاشتراكيون الذين يبشرون بالمساواة فى ما تؤدى اليه نظرياتهم ، فهل النوع الأبيض صائر إلى الانقراض ؟ إنى على ما فىّ من عجز وقلة بضاعة أرى أن مصيره يتوقف على عدم إصغائنا إلى الخطب القائلة إن التأهب للحرب أمر مضر لا فائدة فيه .

« وإنى أنصح العمال أن ينظروا بعين البصيرة الى شؤون العالم فى هذا الوقت فيبذروا فى قلوب أولادهم حب الحرب ويرضوا بما ينشأ عن الروح العسكرية من المحن وأن لا ينوا فى محاربة العمال الجدد المزاحمين ، ولا يمنع الآسيويين عن الهجرة وخفض الأجور وعن الاقامة بين ظهرانينا غير الحسام ، فاذا لم ينتبه الامريكيون والأوربيون الى أن بقاء منزلتهم الممتازة متوقف على ما عندهم من قوة السلاح لم تلبث آسية أن تنتقم منهم . »

ومن الأمور المعلومة أن هجرة الصينيين واليابانيين إلى إمريكة أصبحت بما أوجبته من المزاحمة للعمال البيض كارثة وطنية ، وقد أخذ اولئك يهاجرون الى اوربة أيضاً ، ولكن هذه الهجرة لم تتسع بعد ، على أن لمهاجرى الصين مستعمرات مهمة فى بعض المدن الأوربية كلندن وكارديف وليفربول الخ ، وقد أحدث وجودهم فيها واشتغالهم بأثمان بخسة قلاقل كثيرة .

٢ — نشوء طبقات العمال والحركة النقابية .

ربما كان نشوء العمال الحديث الناشىء عن الحركة النقابية اكبر المشاكل الديموقراطية الحاضرة واعظمها شأناً ، وقد انتشر المذهب النقابى القائم على تجمع المنافع المتماثلة فأصبح عالمياً ، ولبعض النقابات ميزانيات تعدل ميزانيات الحكومات الصغيرة ، ونذكر على سبيل المثال أن نقابات المانية بلغ دخلها واحداً وثمانين مليوناً ، ويدل شيوع الحركة النقابية فى جميع البلدان على أنها ليست كالاشتراكية بدعة خيالية ، بل هى نتيجة لمقتضيات الاقتصاد ، ولا قرابة بين المذهب النقابى والاشتراكية من حيث الغاية ووسائل العمل ، وقد أوضحت ذلك فى كتاب روح السياسة ، فأكتفى الآن بتلخيص الفرق بينهما فى بضعة أسطر :

ترغب الاشتراكية فى الاستيلاء على الصناعات وتسليم إدارتها الى الحكومة على أن توزع الحكومة منتجاتها بين أبناء الوطن على السواء ، وأما النقابية فانها بالعكس ترغب فى إبطال تدخل الحكومة وتود تقسيم المجتمع الى طوائف مهنية مستقلة .

ومع أن النقابيين يسخرون من الاشتراكيين ويصارعونهم فان الاشتراكيين لم يألوا جهداً فى كتم هذا الصراع ، ولكنه أصبح من الظهور بحيث يتعذر إخفاؤه ، وسوف يخسرون قريباً مالهم من النفوذ السياسى ، والسبب فى توسع النقابية على حساب الاشتراكية هو تأليفها بين الاحتياجات المتولدة عن الاختصاص الصناعي فى الوقت الحاضر .

حقاً اننا نرى ظهور المذهب النقابى فى بيئات مختلفة ، ولم ينل هذا المذهب نجاحاً فى فرنسة كما فى البلدان الأخرى ، فقد أدى لبسه ثوباً ثورياً فى فرنسة الى سقوطه موقتاً بين أيدى فوضويين لا يبالون بأى نظام ولا يفعلون غير اتخاذ المذهب المذكور آلة لتقويض دعائم المجتمع الحاضر ، وهكذا يتعاون الاشتراكيون والنقابيون والفوضويون عندنا ، مع اختلاف مبادئهم ، على محق الطبقات المسيرة للامة ونهب أموالها .

ولا تشتق المبادىء النقابية من مبادى الثورة الفرنسية ابداً ، وكثيراً ما تناقضها مناقضة تامة ، فالمذهب النقابى يأمر بالرجوع الى أنظمة إلية قريبة من أنظمة طوائف المهن التى قضت عليها الثورة الفرنسية ، وهو من المواثقات التى حرمت تلك الثورة تأسيسها ، إذ يرفض النظام المركزى الذى أقامته الثورة المذكورة .

ولا يبالى المذهب النقابى بواحد من المبادىء الديموقراطية الثلاثة أى الحرية والمساواة والاخاء ، بل تطالب النقابات أعضاءها بالخضوع المطلق المبطل لكل حرية .

وليس عند النقابات من القوة مايكفى لبغى بعضها على بعض ، ولذلك نراها تتقابل كالاخوة ، ولكن لا بد من تطاحن منافعها المتباينة عندما تنال ما تصبو اليه من القوة ، وذلك كما حدث أيام العهد النقابى فى الجمهوريات الايطالية ، فوقتئذ تنسى ما تبديه اليوم من الاخاء ويحل محل المساواة استبداد نقابى .

ويظهر أن ذلك الوقت قريب ، فالسلطة النقابية تعظم بسرعة ، ولا ترى أمامها سوى حكومات عزلاء لا تدافع عن نفسها بل تخضع لمطاليب النقابات .

وقد استعاذت الحكومة الانكليزية أخيراً بهذه الطريقة فى نزاعها مع نقابة المعدنين التى أنذرت انكلترة بوقف حياتها الصناعية إذا لم تحدد أصغر أجرة يأخذها المنتسبون اليها من دون أن يحدد أصغر عمل يقومون به ، ومع أنه لم يكن هنالك ما يسوغ قبول

هذا الطلب فقد رضيت الحكومة بأن تقترح على البرلمان أن يضع قانوناً موافقاً له ، وما ألقاه مستر بلفور من الكلام الرزين فى هذا الموضوع أمام مجلس النواب جدير بانعام النظر ، قال مستر بلفور :

« إن بلادنا ذات التاريخ الطويل الحافل بجلائل الحوادث لم تجد نفسها إزاء خطر داهم كالخطر الحاضر ، ومصدر هذا الخطر هو تلك النقابة التى تهدد صناعة مجتمعنا وتجارته بالفالج مع أن حياة هذا المجتمع قائمة على ما فيه من مصانع ومتاجر .

« ولا حد لسلطة المعدنين تحت ظل القانون الحاضر ، فهل كان لنا عهد بمثل ذلك ؟ ، وهل ظهر فى بلادنا أمير إقطاعى أشد بغياً من هؤلاء ؟ ، وهل وجدت موائقة أمريكية سخرت من المصلحة العامة مستعينة بما خولها القانون من الحقوق نظير أولئك ؟ . إن مافى قوانيننا ونظامنا الاجتماعى وفى الصلات المتبادلة بين صناعاتنا ومهننا من الكمال يلقينا أكثر من كل جيل سابق ، الى الخطر العظيم المحدق بالمجتمع فى هذا الزمن ، وهانحن نشاهد المظهر الأول لقوة العناصر التى سوف تغمر المجتمع إذا لم يحذر منها ، ويدل الطور الذى به تذعن الحكومات لمطاليب المعدنين على انتصار أولئك الذين يقومون فى وجه المجتمع . »

٣ — لماذا تتحول بعض الحكومات الديموقراطية الحديثة بالتدريج الى طوائف ادارية

إن ما ينشأ عن المبادىء الديموقراطية من الفوضى والمنازعات الاجتماعية يسوق بعض الحكومات الى تحول مفاجىء قد ينتهى بجعل سلطتها اسمية فقط ، ويقع هذا التحول الذى نلخص نتائجه الآن بتأثير بعض العوامل المهيمنة :

تتألف حكومة البلاد الديموقراطية من نواب قد تم اختيارهم حسب طريقة الانتخاب العام ، فهم الذين يسنون القوانين ويعينون الوزراء ويسقطونهم ، ولا يمضى وقت قصير على تسلم الوزراء زمام الامور حتى يبدلوا . ولما كان من يحل محلهم من الوزراء ينتسبون الى حزب آخر فانهم يحكمون بمبادىء مخالفة لمبادىء سابقيهم .

والذى يظهر أول وهلة أن القرار والدوام لا يكونان فى بلاد تتجاذبها مؤثرات متباينة كثيرة . ولكننا مع هذا التذبذب ، نرى أن أمر حكومة ديموقراطية مثل الحكومة الفرنسية مستقيم بعض الاستقامة ، فكيف نفسر هذه الحادثة ؟ نفسرها بقولنا إن الوزراء وإن ظهر أنهم يحكمون ليس بيدهم من الحكم سوى شىء يسير وينحصر سلطانهم فيما يلقونه من الخطب التى قلَّ من يصغى اليها وفى بضعة تدابير فاسدة وان خلف سلطة الوزراء

السطحية العاطلة من القوة والدوام والتي هي العوبة بيد المشتغلين بالسياسة سلطة خفية آخذة في النمو ، أعني سلطة الادارات ، فلهذه السلطة ذات التقاليد والمراتب والمتصفة بالاستمرار قوة اعترف الوزراء بعجزهم عن مناهضتها (١) وقد بلغ تجزؤ المسؤولية في الادارات مبلغاً جعل الوزراء لا يرون أمامهم من هو ذو شخصية كبيرة ويقوم أمام عزائمهم الموقتة ما يعترض به عليهم من الأنظمة والعادات والأحكام فيوجب عدم علمهم هذه الأمور قعودهم عن الاقدام على خرقها .

ولا بد من تناقص ما للحكومات الديموقراطية من السلطة . ومن نواميس التاريخ الثابتة يتضح أنه متى عظمت شوكة إحدى الطبقات. كطبقة الأشراف أو الأكليروس أو الجيش أو الشعب . لا تلبث أن تستعبد الأخرى . فعلى هذا الوجه صارت الجيوش الرومانية تعين الامبراطرة وتسقطهم . وقد لقي الملوك مصاعب شديدة في مكافحة الاكليروس . وابتلع مجلس النواب السلطة أيام الثورة الفرنسية ثم حلَّ محل الملك .

ونرى أن طائفة الموظفين ستكون دليلا جديداً على صحة هذا الناموس . فها هي قد أخذت ، بعد أن عظم أمرها . ترفع صوتها وتهدد وتعتصب . ومن ذلك اعتصاب موظفي البريد واعتصاب موظفي سكك الحكومة . وهكذا يتألف من السلطة الادارية دولة صغيرة في وسط الدولة الكبيرة ، ولا بد من استئثار السلطة الادارية بالسلطة الحقيقية إذا استمرت على نشوءها الحاضر . فتكون نتيجة ما قمنا به من الثورات انتقال السلطة من الملوك الى طائفة خفية مستبدة غير مسؤولة من الموظفين .

* * *

يستحيل اكتشاف عاقبة المعارك التي تنذرنا بالأفول ، وينبغي أن لا نتفاءل أو نتطير بل أن نقول : إن الضرورة لا تلبث أن توازن الأمور . فالعالم يجد في سيره من غير أن يبالي بما نلقيه من الخطب ، ولا شك في توصلنا الى ملاءمة تقلبات البيئة المحيطة بنا عاجلا كان ذلك أم آجلا ، وإنما الصعوبة كلها في الانتهاء الى هذه الملاءمة من غير اصطدام ثم في مقاومة أوهام الخياليين الذين خربوا العالم غير مرة حينما عجزوا عن تجديده ،

ذهبت اثينة ورومة وفلورنسة وغيرها من المدن التي أضاءت التاريخ ضحية اولئك النظريين الخطرين الذين كانت نتائج أفعالهم واحدة : فوضى فحكم مطلق فانقراض .

---

(١) اشار الوزير كروبي في كتاب نشره حديثا الى هذا العجز فقال : « إن الدواوين تشل عزائم اولي العزم من الوزراء فيعدلون عن مناهضتها . »

ولا تنفع هذه الدروس المؤتمرين الكثيرين فى الوقت الحاضر ، فلا يزالون يجهلون أن الفتن التى أثارتها أطماعهم تنذرهم بالويل والثبور ، وقد بذروا فى نفوس الجماعات آمالا يتعذر تحقيقها وحركوا شهواتها وقوضوا الروادع التى أقيمت فى قرون كثيرة لزجر أمثالهم.

وإن مقاتلة الجماعات العمياء لصفوة الرجال من الأمور التى جرت سنة التاريخ عليها ، وما أكثر المدنيات التى قضى عليها انتصار الحكومات الشعبية . فالخواص يبنون والعوام يهدمون ، ومتى يضعف أولئك يظهر تأثير هؤلاء المقسد .

ولم تتقدم الحضارات العظيمة إلا بالتغلب على العوام ، ولم ينشأ عن الاستبداد الديموقراطى فوضى لحكم مطلق فغارات اجنبية ففقد استقلال فى بلاد اليونان وحدها بل إن الاستبداد الفردى عقب استبداد الجماعات فى كل زمن ، فهو الذى زعزع عظمة رومة وأدى الى قضاء البرابرة عليها .

الخلاصة

بحثنا فى هذا المؤلف عن الثورات المهمة التى زلزلت بنيان التاريخ ، ولكننا فصلنا على الخصوص أمر الثورة الفرنسية التى هى أهمها لقلبها أوربة مدة عشرين سنة ولأن صداها لا يزال يرن .

وهذه الثورة مصدر وثائق نفسية لا ينضب معينها ولا نعلم دوراً تاريخياً جمع تجارب كثيرة فى وقت قصير مثل دورها .

وقد وجدنا فى كل صفحة من صفحات هذه الفاجعة مجالا لتطبيق ما بيناه فى مؤلفاتنا المختلفة من المبادىء الدالة على ما عند الجماعات من الروح الموقتة وعلى ما عند الشعوب من الروح الثابتة وعلى تأثير المعتقدات وشأن المؤثرات الدينية والعاطفية والاجتماعية وعلى تصادم أنواع المنطق .

وأحوال المجالس الثورية تنبئنا بصحة نواميس روح الجماعات . فالمسير لهذه المجالس فى حالة الأندفاع وحالة الخوف عدد صغير من الزعماء ، وكثيراً ما تأتى هذه المجالس أعمالا مخالفة لعزائم كل عضو من أعضائها وهو منفرد ، فمع أن المجلس التأسيسى كان ملكياً فقد قضى على الملكية ومع أن الجمعية الاشتراعية كانت مشبعة من روح الانسانية فقد سمحت بوقوع مذابح سبتمبر ومع أنها كانت مسالمة دفعت فرنسة إلى القيام بحرب هائلة ثم وقع مجلس العهد فى مثل ذلك التناقض مع أن اكثريته كانت مؤلفة من فلاسفة ذوى عواطف رقيقة ومع أن أعضاء مجلس العهد كانوا يمجدون المساواة والاخاء والحرية ويمقتون الاضطهاد اقترفوا أشد المظالم ، وقد وجد مثل هذا التناقض فى عهد الديركتوار أيضاً ، ومع أن مجالسه كانت معتدلة فى أمانيها سفكت الدماء بغياً وعدواناً ومع أنها أرادت توطيد دعائم السلم الدينى نفت ألوف الكهنة ومع أنها ودت تعمير فرنسة زادتها خراباً .

إذن الاختلاف تام بين عزائم رجال الثورة الفرنسية وهم منفردون وعزائمهم وهم مجتمعون ، وعلة ذلك إطاعتهم قوى خفية لا سلطان لهم عليها ، فهم وإن اعتقدوا

أنهم خاضعون لسلطان العقل المطلق كانوا يعانون ما لم يدركوا أمره من المؤثرات الدينية والعاطفية والاجتماعية

* * *

تقدم الذكاء مع تعاقب الأجيال ففتح للانسان آفاقاً عجيبة ، وأما الخلق الذى هو أساس روح الانسان والمحرك الحقيقى لأعماله فلم يتبدل منه شيء ، وإذا تنكر الخلق قليلا فانه لا يلبث أن يظهر كما كان ، ولذلك وجب النظر إلى الطبيعــــة البشرية كأمر واقع لا يتغير .

ولم يرض القائمون بالثورة الفرنسية بذلك فجربوا تحويل الناس والمجتمعات باسم العقل ولم يتيسر لأى مشروع من وسائل النجاح كما تيسر لمشروعهم . فقد كانت قوتهم حينما أرادوا إنجازه أعظم من قوة الجبابرة ولكن الثورة الفرنسية مع تلك القوة ومع انتصار الجيوش ومع ما سنوه من القوانين الصـــارمة ومع استئثارهم بالسلطة لم تؤد إلى غير التخريب وإقامة الحكم المطلق .

ولم تخل هذه التجربة من فائدة ، فالتجارب ضرورية لتثقيف الأمم ، ولولا الثورة الفرنسية لصعب إثبات كون العقل المطلق لا يغير الرجال وكون المجتمع لا يتجدد كما يريد المشترعون مهما كان سلطانهم عظيما .

* * *

لم تلبث الثورة الفرنسية التى أثارتها منافع الطبقة الثانية أن أصبحت شعبية فحاربت الغريزة العقل وانتهكت حرمات الزواجر التى أخرجت الانسان من طور الهمجية إلى طور الحضارة ، وقد حاول المصلحون أن ينشروا مذاهبهم باستنادهم إلى مبدإ السلطـــة الشعبية وصار الشعب الذى يقوده الزعماء يتدخل فى مذاكرات مجالس النواب ويقترف أشد المظالم .

وتاريخ الجماعات فى ذلك الدور حافل بالفوائد ، فهو يثبت خطل المشتغلين بالسياسة الذين يعزون الى الروح الشعبية كل فضيلة .

وتدلنا حوادث الثورة الفرنسيـة على أن الشعب يرجع مسرعاً الى همجيـة القرون الخالية إن تفلت من الزواجر الاجتماعية التى هى أساس كل مدنية وترك يسير بغرائزه ، ففى كل انتصار يتم للثورة الشعبية عود الى التوحش ، ولو استمرت ثورة الكومون التى وقعت سنة ١٨٧١ لأحييت دور الهول الاكبر ، وقد اقتصر رجال هـــذه الثورة على

حرق أهم مباني باريس عندما رأوا أنهم لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون قتل أناس كثيرين .

ولم تكن الثورة الفرنسية غير تصادم قوى نفسية تخلصت من القيود الزاجرة لها ، وقد نشأ عن تصادم هذه القوى النفسيـة التي هي الغرائز الشعبية والمعتقدات اليعقوبيـة والمؤثرات الارثية والشهوات والمطامع التي لا حد لها تضريج فرنسة بالدماء وإشرافها على الدمار .

ويلوح للناظر من بعيد أن الثورة الفرنسية كانت تتألف من مجموع تلك القوى التي لا تجانس بينها ، وينبغي تحليلها للوقوف على حقيقة تلك النازلة واستجلاء سر المحرضات التي حركت نفوس أبطالها ، وتتوازن أنواع المنطق المختلفة — أي المنطق العقلي والمنطق العاطفي والمنطق الديني ومنطق الجماعات — في الأزمنة العادية تقريبا وأما في أيام الفتن فانها تتصادم وينتقل الانسان من حال الى حال .

لم تنكر في هذا الكتاب ما جادت به الثورة الفرنسية على حقوق الأمم ، ولكننا قلنا مع كثير من المؤرخين إن ما ربحناه ، بعـــد اقتراف كثير من أعمال التخريب في أثنائها ، كان لا بد من نيله مع سير الحضارة بلا عنـاء ، وما أعظم ما أصابنا من خسارة مادية وانحـلال أدبي لكسب زمن قصير ! . ولا يتم إصلاح هـذه الأمور الطارئة على سلسلة التاريخ إلا بالتدريج ، ولم يتحقق هذا الاصلاح حتى الآن .

ويظهر أن الشبيبة الحديثة تفضل العمل على الفكر ، وهي تستخف بمجادلات الفلاسفـة العقيمة ولا ترى فائدة في الآراء الفـارغة التي تدور حول أمور لا يزال جوهرها مجهولا ، حقاً إن العمل أمر محمود ، ولكنه لا يفيد إلا إذا وضع في محله

والعمل يكون مضراً إذا احتقر الحقـائق وسعى في تحويل مجرى الأمور بعنف ، والفرق عظيم بين تجربة يكون موضوعها المجتمع وتجربة يكون موضوعها ما في المختبر من الآلات ، وما أتينا به من الانقلابات يدلنا على شـــدة ما ينشأ عن الأغلاط الاجتماعية من المصائب .

يرغب كثير من المتهوسين الذين استحوذت عليهم الأوهام أن يعيـدوا دور الثورة الفرنسية ، وسترجع الاشتراكية التي هي خلاصة هذه الرغبة بالناس الى الوراء لابطالها

أهم عوامل السير فيهم ، فهى باقامتها تبعة الجماعات وقوة استنباطها مقام تبعة الفرد وقوة استنباطه تسقطهم الى الدرك الأسفل .

وليست الساعة الحاضرة ملائمة لمثل هذه التجارب ، فالأمم تمعن الآن فى التسلح ، وجميع الناس شاعرون بأنه لا مكان للامم الضعيفة فى مزاحمة العالم .

تنمو فى أوربة الوسطى دولة حربية مخيفة طامعة فى سيادة العالم لتنال أسواقا لسلعها ، فاذا داومنا على خرق اتحادنا بما يقع عندنا من النزاع الداخلى ومن تنافس الأحزاب ومن الاضطهاد الدينى ومن وضع قوانين مقيدة لتقدم الصناعة فان شأننا فى العالم ينتهى ونفسح المجال الى أمم ملتحمة الأجزاء عالمة كيف تسير مع مقتضيات الطبيعة من دون أن تحاول تذليلها . نعم إن الحال لا يعيد الماضى و إن التاريخ حافل بأمور وقعت بغتة ، ولكن الحوادث فى مجموعها مسيرة بسنن أزلية .

فهرس

صفحة

صفحة

الفصل الرابع — روح الجماعات الثورية

الفصل الخامس — روح المجالس الثورية

الجزء الثانى — الثورة الفرنسية

الباب الأول — مآخذ الثورة الفرنسية

الفصل الاول — آراء المؤرخين فى الثورة الفرنسية

الفصل الثانى — مبادىء النظام السابق النفسية

صفحة

صفحة

الفصل الرابع — حكومة مجلس العهد

الفصل الخامس — مظالم الثورة الفرنسية

الفصل السادس — جيوش الثورة الفرنسية

الفصل السابع — روح زعماء الثورة الفرنسية

صفحة

الفصل الثانى — نتائج التطور الديموقراطى

الفصل الثالث — الاشكال الحديثة للمعتقدات الديموقراطية

ص

٨ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون) وترجمة الاستاذ صادق رستم

١٥ حضارة مصر الحديثة . محاضرات عن مصر والشرق لكبار رجال مصر

١٠ الحركة الاشتراكية (لرمزى مكدونالد) وترجمة الاستاذ محمود العرابي

٥ تذكرة الكاتب ، أو الاغلاط اللغوية الدارجة للاستاذ أسعد خليل داغر (طبعة منقحة)

١٢ مراجعات في الادب والفنون (للاستاذ عباس محمود العقاد)

١٥ ملقى السبيل ، في مذهب النشوء والارتقاء للاستاذ اسماعيل مظهر

١٥ الدنيا في امريكا ، مصوّر (للاستاذ امير بقطر)

١٠ التربية الاجتماعية (لعلى بك فكرى)

٥ التعليم والصحة (للدكتور محمد عبد الحميد بك) (لازم لكل معلم ووالد)

١٠ تربية دودة القز وأشجار التوت (للاستاذ محمد بسيم)

٨ اليوم والغد (للاستاذ سلامه موسى)

١٠ مختارات سلامه موسى « « «

٨ نظرية التطور واصل الانسان ، مصور « « «

٢٠ اناتول فرانس في مباذله (للامير شكيب ارسلان)

١٠ رسائل غرام جديدة ، مصوّر (للاستاذ سليم عبد الاحد)

١٠ الغربال ، في الادب العصرى (للاستاذ ميخائيل نعيمه)

١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)

٨ عشرة ايام في السودان « « « « «

٨ نسمات وزوابع ، شعر منثور ، مصور ، للاستاذ نقولا يوسف

١٠ قبض الريح (للاستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى)

١٥ حصاد الهشيم (طبعة ثانية مكبرة) « « « «

٢٥ جمهورية أفلاطون (للاستاذ حنا خباز)

١٢ يسوع ابن الانسان ، طبعة جديدة مصورة (لجبران خليل جبران)

٥ آلهة الارض — وصلاة بابيني (معا) « « «

٨ النبي (طبعة ثانية) « « «

٥ المجنون « « « « «

٥ رمل وزبد (تحت الطبع) « « «

٦ مراقى النجاح (كتاب ثمين للارشمندريت انطونيوس بشير)

٥ اعترافات تولستوى « « «

٥ ثلاثة مفكرين « « «

٥ خواطر حمار ، مصور ، ترجمة الاستاذ حسين الجمل

ص	
٣	الحقوق الوطنية للاستاذ فرنسيس ميخائيل
٥	مركزُ المرأةِ في شريعتيّ موسى وحورابي (للاستاذ العقاد)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (للاستاذ عبد الله حسين المحامى)
٥	المرأة بين الماضي والحاضر ، (للاستاذ محمود خيرت المحامى)
١٥٠	الحب والزواج ، مصوّر (للاستاذ نقولا الحداد)
١٥	ذكراً وأنثى خَلَقَهم « « «
٥٠	علمُ الاجتماع (جزآن كبيران) « « «
٢٥	« الجزء الواحد بمفرده
١٥	أسرار الحياة الزوجية ، للدكتورة ماري ستوب « « « طبعة ثانية
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها ، مصورة (للدكتور فخرى) طبعة ثانية
٢٠	الضعف التناسلي (الكتاب الاول) مصوّر « «
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات ، « « «
٥	الطب القديم — عن كتاب خطي قديم — منقح (طبعة ثانية)
١٥	الزنبقة الحمراء ، بالصور ، لاناتول فرانس ، وترجمة الاستاذ احمد الصاوى محمد
١٠	تاييس « « « « « « طبعة ثانية
١٠	جريمة سلفستر بونار « «
١٠	القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة) للأستاذ توفيق عبد الله
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة للاستاذ خليل بيدس)
٥	مريم المجدلية (تأليف الكاتب الشهير موريس مترلنك)
٦	أميرة بابلية لدى الدروز « « « هنري بوردو
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (ترجمة الاستاذ اسعد خليل داغر)
١٢	رواية اهوال الاستبداد (كبيرة مصورة للاستاذ خليل بيدس)
١٠	« فاتنة المهدى ، او استعادة السودان (الاستاذ محمد على)
١٥	« التائه ، عصرية اجتماعية اخلاقية (ايليا ابو رزق)
٨	« الانتقام المهذّب (ترجمة الاستاذ اسعد خليل داغر)
٦	« المرأة المفترسة (مترجمة عن الافرنسية بقلم الاستاذ رستم)
٥	« النفس الحائرة (قصة مصرية جيلة للاستاذ حبيش)
٥	« فقر وعفاف (ترجمة الاستاذ احمد رأفت)
١٢	« بارزيت ، كبيرة مصورة (للاستاذ توفيق عبد الله)
١٢	« غرام الراهب او الساحرة المجدورة « « «
٣	« الفاجرة ، او بول دي سويف « « «

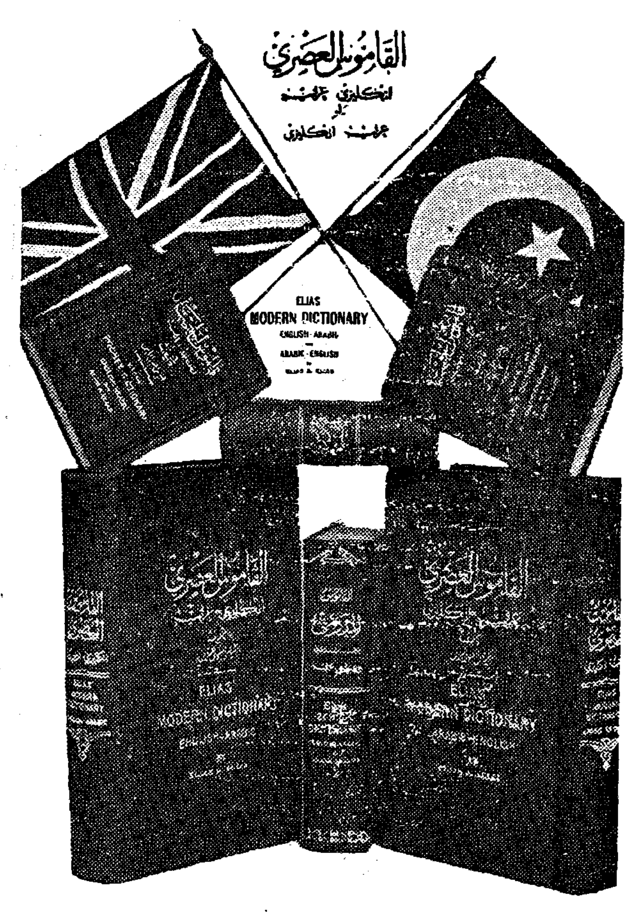
ص				
٧٥	رواية روكامبول ، ١٧ جزء			(للمرحوم طانيوس عبده)
٥	« « « (الجزء الواحد رواية كامله)			
٢٥	« ام روكامبول ، ٥ اجزاء		«	«
٢٠	« باردليان ، ٣ اجزاء كبيرة		«	«
٢٠	« الملكة ازابو ، ٤ اجزاء		«	«
٢٠	« الاميرة فوستا ،	جزءآن كبيران	«	«
٢٠	« عُشاق فنيسيا	«	«	«
١٦	« كابيتان	«	«	«
١٦	« بائعة الخبز	«	«	«
١٦	« الساحر العظيم	«	«	«
١٦	« الوصية الحمراء	«	«	«
١٢	« فلمبرج	«	«	«
١٠	« فارس الملك ، جزء واحد		«	«
١٠	« ضحايا الانتقام «		«	«
٥	« المتنكرة الحسناء «		«	«
٥	« مروضة الاسود «		«	«
٥	« شهداء الاخلاص «		«	«
١٦	« دار العجائب ، جزءآن			(للمرحوم نقولا رزق الله)
١٠	« فرنسوا الاول (كاملة في جزء واحد)		«	«
١٠	« الجنون فنون «	«	«	«
٨	« حورية «	«	«	«
٨	« الغلامان الطريدان		«	«
٨	« الشقيقتان «	«	«	«
٥	« احمس الاول ، تمثيلية ، (حائزة لجائزة وزارة المعارف) لعادل غضبان			

عبد الله حسين الخريج فى الحقوق والعلوم السياسية ، وكبير محررى جريدة الاهرام الغراء . على تأليف هذا الكتاب ، وأورد فيه آراء كبار الفلاسفة قديمًا وحديثًا فى المرأة ، وأسباب سوء التفاهم بينهما و بين الرجل ، والحب وتأثيره فى كل منهما . وأسباب الخصام الذى يقع بين الزوجين ، ومسئولية كل من الرجل والمرأة فيه ، وفى النزاع القائم بين الرجل والمرأة فى سبيل الاحتراف والحرف والحكم والانتخاب . وتكلم عن حقيقة الحب ، وفرق فى أمره بين النساء المصونات والساقطات . وعن البغاء ، وعن الزواج ، الخ الخ . وقد عالج هذه المواضيع بعبارة صريحة شيقة

(صفحاته ٢٦٦ وثمنه عشرة قروش)

حضارة مصر الحديثة

يشمل هذا الكتاب العظيم إثنى عشرة محاضرة ألقاها إثنا عشر عالم اختصاصى من أكبر علماء مصر العاملين « فى قاعة يورت التذكارية » بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى سنة ١٩٣٢ وكلها تدور حول موضوع واحد يهم كل شرقي الاطلاع عليه وهو « حضارة مصر الحديثة » فمنها الثلاثة الأولى تتناول موارد البلاد المادية ، ويلى ذلك ستة محاضرات تبحث فى حالة مصر الاجتماعية وكيفية تقدمها ، ثم ثلاثة فى التنظيم الاجتماعى . ويمتاز هذا الكتاب بأنه من وضع المصريين الذين لا تشوب آراءهم صبغة أجنبية أو حزبية مثل سعادة الدكتور محمد شاهين باشا وكيل وزارة الداخلية للشئون الصحية . وفؤاد بك أباظه مدير الجمعية الزراعية الملكية ، وعبد الرحمن بك فكرى سكرتير عام مجلس الشيوخ والدكتور بهمن طبيب الأمراض العقلية ، والاستاذ على بك عبد الرازق والدكتور حسين هيكل بك والآنسة « مى » واحمد بك صفوت ، وسابا بك حبشى ، والأستاذ سلامه موسى ، والدكتور هيوم ، والأستاذ اسماعيل القباني — والكتاب يقع فى ٢٠٠ صفحة من القطع الكبير و به خريطة كبيرة وثمنه ١٥ قرشًا ؟



هذه القواميس قد قررتها وزارة المعارف المصرية لمدارسها الثانوية والابتدائية

الثمن { القاموس العصرى الانكليزى أو العـــربى ٧٠ قرشاً ، والمدرسى ٣٥ قرشا
والجيب الانكليزى ١٥ قرشاً ، والعربى ٢٠ قرشاً ، والاثنان معاً ٣٠ قرشاً

المطبعة العصرية بشارع الخليج الناصرى رقم ٦ بالفجالة ، بمصر
تليفون نمرة ٥٩٧٥٦



Bibliotheca Alexandrina
0247152